

كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"

ترجمة وقراءة نقدية

الجزء الثالث



هل ثمة تحول

الدكتور
رضا محمد الدقيقي

من إصدارات
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر

كتاب تاريخ القرآن

للمستشرق الألماني "تيودور نولدكه"

ترجمة وقراءة نقدية

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة الشؤون الإسلامية

دولة قطر

الطبعة الأولى

الدوحة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قام بعمليات المراجعة والتنضيد الضوئي والإخراج الفني



دار الميمان للنشر والتوزيع

الرياض: هاتف: ١٤٦٢٧٣٣٦ (٩٦٦)+ فاكس: ١٤٦١٢١٦٣ (٩٦٦)+

القاهرة: هاتف: ٢٧٩٤٩٣٧٠ (٢٠٢)+ فاكس: ٢٧٩٦٢٧٣٠ (٢٠٢)+

بريد إلكتروني: info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله.

وبعد...

فلقد أوقفنا الجزء الثاني من هذه الدراسة على خطأ نولدكه فيما ادعاه من أن وحي الله إلى محمد كان مجرد صوت داخلي، ظنه محمد ﷺ وحيًا قادمًا له من الله تعالى.

وفي هذا الجزء[1] أعرض وأناقش دعوى نولدكه أن رسول الله ﷺ كان يتخذ أهل الكتاب (في العهد المكي وبداية العهد المدني مرجعية عليا استند إليها في دعوى النبوة)؛ وعندما عارضوه ولم يؤمنوا به بحث عن جهة أخرى مرجعية؛ فوجدها في الأنبياء القدامى الذين لم يعد لهم طوائف يعارضونه؛ وخص منهم إبراهيم. ويستدل على هذه الدعوى بعدة شبه سنعرض لها فيما بعد.

وأود أن أوضح هنا أن نولدكه لم يعرض نظريته المزعومة عن تحول النبي في البحث عن مرجعية؛ (من كونها أهل الكتاب إلى كونها إبراهيم ﷺ)؛ كنظرية محددة المعالم مفصلة في بحث مستقل؛ وذلك لأن الكتاب موضوع دراستي ليس كتابا في موضوعات تفصيلية عن الإسلام ونبيه؛ بل هو الكتاب حول القرآن كما يتضح من عنوانه. إلا أنه كان – وهو بصدد حديثه عن أي موضوع من علوم القرآن – يتناول فكرة أو نظرية معينة ابتكرها أو أفادها من المستشرقين السابقين؛ ومنها نظريته التي جعلتها موضوع هذا الجزء من الدراسة.

---

(١) يعالج هذا الجزء من الدراسة الأفكار التي ذكرها نولدكه في كتابه تاريخ القرآن بالألمانية، صفحات: ٧١،٨٩،١٠٥،١٤٦-١٤٧،١٥٠،١٥٢،١٥٣،١٥٦،١٥٩-١٦٤،١٦٩-١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٩١-١٩٢، ٢٠٣-٢٠٤، ٢٢٩-٢٣٠.

من هنا كانت نظريته هذه نصوصًا متناثرة في ثنايا كتابه المذكور. وقد كان بعض هذه النصوص كليًّا يذكر النظرية بأفكارها الرئيسة الثلاثة. وكان بعضها جزئيًّا يحمل شبهًا تأتي في إطار التدليل على النظرية، أو تنطلق منها على أنها مُسَلَّمة.

ودوري هنا هو ترجمة هذه النصوص وتصنيفها (بأن أضع النص الجزئي في نفس السياق الذي نفهمه من النص الكلي، مرتبًا الجميع ترتيبًا منطقيًّا يقتضيه البحث العلمي، ولا يكون مخالفًا للسياق العام لنظرية نولدكه، كما توضحها نصوصه الكلية)، ثم أحلل أفكاره وأناقشها.

وسأعرض في البداية أربعة نصوص من النوع الكلي من أقوال نولدكه؛ بغرض أن توقفنا على دعواه بشكل مجمل، ثم أعمد إلى تفصيلها في فصول ثلاثة.

يقول تيودور نولدكه[1]:

"Anfangs ist Muhammed überzeugt, den Arabern dasjenige zu bringen, was die Christen von Isa die Juden von Musa usw. erhalten haben, and zuversichtlich beruft er sich den Ungläubigen gegenüber auf "die Wissenden" (Sur. 16, 45. 21, 7), welche man nur zu befragen brauche, um die Bestätigung der Richtigkeit seiner Lehren zu erhalten. In Medina kommt die Enttäuschung, die Schriftbesitzer wollen ihn nicht anerkennen. So muß er für sich eine über ihre Kontrolle erhabene Instanz suchen, die dennoch seinen früheren Offenbarungen nicht widerspricht. Da greift er nach den älteren Propheten, deren Gemeinden ihm nicht entgegen treten können"". Mit voller Deutlichkeit ist diese Tendenz allerdings nur an einer Stelle, Sur. 2, 129, ausgesprochen".

وترجمته:

"أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى. ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقية رسالته: الآيتان: ٤٥ النحل، و٧ الأنبياء[2]. وتأتي خيبة الأمل

(١) تاريخ القرآن باللغة الألمانية ق١ ص١٤٦-١٤٧.

(٢) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى باعتبارها مرجعية لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته، [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط ١٢٩ البقرة[(١)]"[(٢)].

ويقول بشأن زمن نزول الآية ٣١ المدثر[(٣)][(٤)]:

"Doch mögen sie immerhin aus der ersten medinischen Zeit sein, da er in ihnen noch der Juden freundlich gedenkt und sie mit den Gläubigen in eine Linie stellt, während er dieselben bald als seine bittersten Feinde erkannte".

وترجمته:

"يحتمل أن تكون هذه الكلمات نزلت في أوائل الفترة المدنية، وقت أن كان [أي النبي ﷺ] يعامل اليهود بشكل لطيف ويضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة. لكنهم سيبدون له فيما بعد على أنهم ألد أعدائه".

---

(١) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهي في مصحفنا رقم (١٣٥).

(٢) ويبين نولدكه أنه أفاد حجج هذه النظرية من سنوك هورجرونيه من كتابه: (الأعياد المكية)، ومن أبحاثه الأخرى اللاحقة لهذا الكتاب، التي أكد فيها أيضًا على أهمية إبراهيم بالنسبة لتطور تصور محمد عن أديان الوحي السابقة عليه. يقول (هامش٢ ص١٤٦):

"Die Argumente der folgenden Beweisführting entnehme ich aus Snouck Hurgronje, Het Mekkaansche Feest. Leiden 1880, S. 28 40. Auch in späteren Aufsätzen hat dieser Forscher die Bedeutung Ibrahims für die Entwicklung der Stellungnahme Muhammeds früheren Offenbarungen gegenüber mit Recht immer wieder hervorgehoben (Vgl. De Gids 1886, II, S. 460. 466, Revue list. Relig. Bd. 30 (1894) S. 64ff".

(٣) ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

(٤) تاريخ القرآن باللغة الألمانية ق١ ص٨٩.

ويقول[1]:

"Muhammed hatte anfangs große Hoffnungen auf sie gesetzt, als auf Leute, welche die Offenbarung schon kannten. Da sie nun aber ihre alte Auffassung derselben nicht gleich dem neuen Propheten zuliebe aufgaben, dessen große Abweichungen von ihrem Glauben ihnen viel leichter zu erkennen waren als ihm, da ward der Zwiespalt immer größer und hörte nicht auf, bis endlich alle Juden umgebracht, vertrieben oder unterjocht waren".

ترجمته:

"لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل. ولأنهم لم يتركوا في التو رأيهم القديم مراعاة لخاطر النبي الجديد؛ إذ إن إدراك الاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أسهل عليهم أكثر منه؛ فقد أخذ الانقسام في التعاظم؛ ولم ينته حتى قتل كل اليهود وطردوا واستذلوا.." إلخ قوله.

ويقول[2]:

"Der Grund zur Veränderung der jerusalemischen Gebetsrichtung liegt in der neuen Stellung zu den älteren Offenbarungsreligionen, die Muhammed almählich in Medina gewonnen hatte. Während er sich früher den Juden und Christen nächstverwandt fühlte, bewog ihn die Erfolglosigkeit seiner Propaganda unter diesen, sich nach einer anderen Anknüpfung umzusehen, und er fand sie schließlich in der Reliegion des Ibrahim , den eine Offenbarung eng mit der Ka.ba verflocht ,vgl. Oben S. 146 f. So wurde der heidnische Kultusort zu einem Heiligtum des Islam und als solches zum Ort der Gebetsrichtung ebenso geeignet, wie es Jerusalim für die Juden war".

وترجمته:

"إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورشليمية يندرج في إطار التصور الجديد عن

(١) تاريخ القرآن باللغة الألمانية ق١ ص١٦٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥ هامش١ رقم K.

أديان الوحي القديمة، الذي كوَّنه محمد بالتدريج في المدينة. ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخر؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة. ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة كما كانت أورشليم بالنسبة لليهود.".

***

ونستطيع أن نجمل أفكار نظرية نولدكه التي يعالجها هذا الجزء - من خلال نصوصه التي ذكرتها قبل قليل، وغيرها التي سترد فيما بعد - في النقاط الآتية:

١- يدلل نولدكه على اتخاذ النبي (في الفترة المكية وبداية المدنية) أهل الكتاب مرجعية بزعْمه أن معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل، وأن آيات الهجوم على اليهود يغلب أن تكون مدنية، وأن ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى إنما هو موجه لعقائد المشركين، لا النصارى، وأن النبي أوجد في مكة (مساواة وصداقة بينه وبين المسيحيين)، وأن القرآن اعتبر نصر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفار، وأن بدايات القرآن المدني لم تنكر على اليهود، وأن موقف القرآن من أهل الكتاب في العهد المكي وبدايات المدني كان اعتماد إيمانهم وقبوله؛ لكنه تغير إلى رفضهم وتكفيرهم بعد ذلك، وأن القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى.

٢- يتحدث نولدكه عمَّا سماه: تحول النبي (في الفترة المدنية) عن اتخاذ أهل الكتاب مرجعية؛ فيدعي أن غزوات النبي ﷺ ضد اليهود كانت بسبب أنهم لم يتركوا دينهم ويتبعوه.

ويدعي أن النبي لم يبين انحراف اليهود عن الدين إلا بعد أن انهار أمله فيهم، وأن تكفير غير المسلم جاء في نهاية العهد المدني.

٣- يتحدث نولدكه عن تحول النبي (فيما بعد بداية العهد المدني) إلى إبراهيم؛ ليصبح مرجعية له؛ فيذكر أن النبي كوَّن في ذلك الوقت تصورًا جديدًا عن إبراهيم.

ويشير إلى دافِعَين مزعومين (يرى أنهما شجَّعا النبي في المدينة على تشكيل تصوره المدَّعى عن إبراهيم). ويزعم في هذا السياق أن (خبر القرآن عن تأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة) إنما جاء رد فعل على عداء اليهود للنبي ﷺ. ويدعي مدنية الآيات التي تربط بين إبراهيم والحرم المكي. ويدعي أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين من سماهم نولدكه: الآباء الإسرائيليين، بشكل لم يحصل في القرآن المكي. ويزعم أن (الصلة التي بين النبي وإبراهيم) لم توجد إلا في القرآن المدني، وأنها جاءت بتأثير يهودي أو نصراني.

ويزعم أن (تقدير القرآن لملة إبراهيم)؛ و(الإخبار بأنها كانت الإسلام) و(الأمر باتِّباعها)؛ هي وجهات نظر جديدة للنبي في المدينة.

ويزعم أن (الاتجاه للكعبة لاتخاذها قبلة للصلاة)، و(إدخال الحج إلى مكة في عبادة الإسلام)، يأتيان في سياق التصور الجديد عن إبراهيم.

ونستطيع أن نصنف كلام نولدكه هنا في ثلاثة محاور:

الأول: أن النبي اتخذ أولًا أهل الكتاب مرجعية.

الثاني: أن النبي تحول عنهم.

الثالث: أن النبي اتخذ إبراهيم مرجعية.

من هنا يأتي هذا الجزء في فصول ثلاثة:

الفصل الأول عنوانه: دعوى نولدكه اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية.

أتناول فيه ما يظنها نولدكه أدلة تفيده في زعمه أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية (طيلة العهد المكي، وبدايات العهد المدني). وسيأتي في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول**: دعاواه المتعلقة بالعهد المكي.
- **المبحث الثاني**: دعاواه المتعلقة ببدايات العهد المدني.
- **المبحث الثالث**: الدعوى المتعلقة بالعهد المكي، وبدايات العهد المدني.

والفصل الثاني: دعواه تحول النبي عن اتخاذ أهل الكتاب مرجعية.

أتناول فيه دعاوى نولدكه التي يقدمها، ويظن أنها تفيده في زعمه أن النبي (لما خاب أمله بعد الهجرة أن يترك اليهود دينهم ويتبعوه؛ هاجمهم). وكان أول مظهر للهجوم عليهم صلتهم بإبراهيم. ثم انتهت العلاقة بطردهم وإذلالهم. كما زعم أن الحكم القرآني على غير المسلم بالخسران في الآخرة كان على صلة بهذا التحول المدعى. وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول** بعنوان: دعاواه بشأن هجوم القرآن على اليهود: أسبابه، أول مظاهره، نهايته.
- **المبحث الثاني**: دعواه أن تكفير غير المسلم جاء في النهاية.
- **الفصل الثالث** عنوانه: دعواه اتخاذ محمد ﷺ إبراهيم عليه السلام مرجعية.

وأتناول فيه دعاوى نولدكه التي يقدمها أدلة على أن (النبي لما عارضه أهل الكتاب بعد الهجرة، وتحول عنهم وهاجمهم، بدأ في تكوين تصور جديد عن إبراهيم.

وأناقشه في: منهج هذه الدعوى، وأصلها، وحديثه عن دافعين مزعومين شجَّعا النبي على تشكيل تصوره الجديد عن إبراهيم عليه السلام. كما أناقشه في دليله على كونه تصورًا جديدًا.

ثم أتناول دعواه أن قول القرآن بتأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة إنما كان تصورًا جديدًا عنهما في المدينة، جاء رد فعل لعداء اليهود. وكذا دعواه أن الآيات التي تربط بين إبراهيم والكعبة هي مدنية.

وأناقش دعواه أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي.

وأتناول أخيرًا دعاواه بشأن علاقة النبي ﷺ بإبراهيم عليه السلام؛ حيث شعر النبي أنه موصول به، ومن ثم اتجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخل الكعبة ومكة في شعائر الحج، وقدَّر القرآن ملة إبراهيم.

وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **الأول** بعنوان: ملاحظات تمهيدية بشأن هذه الدعوى.
- **الثاني** بعنوان: دعاواه بشأن ما نسبه القرآن إلى إبراهيم وإسماعيل.
- **الثالث** بعنوان: دعاواه بشأن علاقة النبي بإبراهيم.

وأسأل الله تعالى التوفيق والقبول

رضا محمد الدقيقي



الفصل الأول

دعوى نولدكه اتخاذ النبي أهلَ الكتاب مرجعية

تمهيد

أتناول في هذا الفصل دعاوى نولدكه التي يقدمها، ويظن أنها تفيده في زعمه أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية طيلة العهد المكي، وبدايات العهد المدني.

ويمكننا أن نقسم تلك الدعاوى إلى دعاوى متعلقة بالعهد المكي، وأخرى متعلقة ببدايات العهد المدني، بالإضافة إلى دعوى متعلقة بالعهد المكي، وبدايات العهد المدني.

فعن الدعاوى المتعلقة بالعهد المكي يزعُم نولدكه أن معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل، وأن آيات الهجوم على اليهود يغلب أن تكون مدنية، وأن ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى إنما هو موجه لعقائد المشركين، لا النصارى.

كما يزعم وجود ما يسميه: (تساويًا وصداقة بين النبي والمسيحيين في مكة)، وقال: إن النبي دعا العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى؛ كما دعاهم أيضًا لسؤال أهل الكتاب عن حقيقته.

ومن أجل تأييد دعواه تلاعب نولدكه في الحكم بمكية آيات معينة أو مدنيتها؛ فافترض مكيةَ كل الآيات التي فيها أن أهل الكتاب يعرفون النبي ويشهدون له.

وعن الدعاوى المتعلقة ببدايات العهد المدني؛ يزعم نولدكه أن القرآن فيها لم يكن يهاجم اليهود؛ بل جعلهم مع المؤمنين في جبهة واحدة. كما أنه - أي القرآن - اعتبر المسيحيين الحقيقيين مؤمنين. بل إن القرآن المدني تحدث عن النصارى بود طيلة العهد المدني.

أما دعوى نولدكه المتعلقة بالعهد المكي وبدايات العهد المدني فهي زعمه أن كون قبلة الصلاة في ذلك الوقت كانت بيت المقدس، يدل على أن مرجعية النبي كانت في ذلك الوقت هي اليهود.

وعلى هذا سيأتي هذا الفصل في مباحث ثلاثة:

- **الأول**: دعاواه المتعلقة بالعهد المكي.
- **الثاني**: دعاواه المتعلقة ببدايات العهد المدني.
- **الثالث**: الدعوى المتعلقة بالعهد المكي وبدايات العهد المدني.

* * *

المبحث الأول
دعاوى نولدكه المتعلقة بالعهد المكي

بالإضافة إلى الأقوال التي نقلتها عن نولدكه في مطلع هذا الجزء حول زعمه اتخاذ النبي – في العهد المكي – أهل الكتاب (اليهود تحديدًا) مرجعية؛ فإنه يطرح من الدعاوى في ثنايا كتابه – عند تناوله للآيات القرآنية – ما يمكن أن تظهر لذوي النظرات القاصرة أو العجلى على أنها أدلة تثبت أن النبي كان في مكة ينظر إلى أهل الكتاب، باعتبارهم مرجعية بالفعل.

هذه الدعاوى هي:

- معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل.
- آيات الهجوم على اليهود يغلب أن تكون مدنية.
- ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى موجه لعقائد المشركين، لا النصارى.
- وجود ما يسميه (تساويًا وصداقة بين النبي والمسيحيين في مكة).
- قوله: إن النبي دعا العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى؛ وأنه دعاهم أيضًا لسؤال أهل الكتـاب عن حقيقته.
- افتراضه مكية كل الآيات التي فيها أن أهل الكتاب يعرفون النبي ويشهدون له.

وقبل أن أبدأ في عرض دعاواه مفصلة ومناقشتها، أود أن أشير هنا إلى شكِّ الوهلة الأولى، الذي اعتراني عند وقوفي لأول مرة على زعم اتخاذ النبي اليهود[1] مرجعية.

---

(١) يؤكد نولدكه على اليهود بوجه خاص.

إن التفكير السوي يقتضي أنه حين يلجأ النبي لاتخاذ اليهود مرجعية يستند إليها في دعوته العرب للإيمان برسالته؛ فلا بد أن يكون هؤلاء أهلًا لثقة العرب ونموذجًا اجتماعيًّا ودينيًّا يحتذى؛ فهل كان اليهود المعاصرون للنبي في العهد المكي هكذا بالنسبة للعرب؟

إن الانطباع الذي كان سائدًا وقتئذ في الذهنية العربية عن اليهود وطباعهم أنهم كانوا ذوي صفات ذميمة: كالحرص على جمع المال وعدم احترام المواثيق، والرغبة في التسلط على الآخرين. وقد أدت هذه الصفات لنفور العرب منهم. كما أن شعائرهم الغامضة وشعورهم بالاستعلاء العرقي والديني على العرب المحيطين بهم ... ساعدا على تنامي هذا النفور العربي.

إن اليهود "ظلوا يؤلفون طبقة متحاجزة عن العرب؛ فكانوا يحافظون على انتسابهم إلى المدن والأقاليم التي قدموا منها. كما أنهم وضعوا لمعالم يثرب ومواضعها أسماء عبرية.."[1] و"كان العرب ينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء"[2] مرجعهما كما يقول علي حسني الخربوطلى[3] إلى "اعتبارهم عملاء للفرس في اليمن؛ ولِما عُرفوا به من صفات ذميمة كالتهافت على جمع المال ونقض العهود والغدر".

ويقول محمد فريد وجدي[4]: (لم يكن عرب الجاهلية يمنحون كل ما عليه طابع يهودي أي اعتبار؛ بل الذي ورد أنهم كانوا يكرهون جوارهم ويقاتلونهم؛ ليجلوهم عن مواطنهم التي اختاروها دارًا لهجرتهم).

ويضيف مكسيم رودنسون[5] سببًا آخر لنفور عرب ذلك الوقت من اليهود، حيث إن هؤلاء الأخيرين كانوا "يحتقرون العرب ويعتبرونهم من المتوحشين الذين لا كنائس لهم تنظم أمورهم الدينية كبقية الشعوب المتحضرة".

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول القاهرة ١٩٦٧ ص٢٩٨.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج١ ص١٢١.

(٣) العرب واليهود في العصر الإسلامي، من سلسلة كتب قومية عدد ٢٤٧ ص٢٤، ٢٥.

(٤) في تعليقه على فنسنك: دائرة المعارف الإسلامية مجلد١ ص٢٨.

(٥) *Mahomet p.89* نقلًا عن ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية ج٣ ص٧٨.

إننا إذا جارينا نولدكه - مؤقتًا - في إسناده الأمر للنبي... فهل يتصور أنه بعد تلك الانطباعات السلبية للغاية لدى العرب عن اليهود يُتوقع من محمد ﷺ أن يتخذهم في فترةٍ ما مرجعيةً يستند إليها في دعوته العرب للإيمان برسالته؟ إن هذا محل شك!

إن الشخص العادي لا يمكن له أن يفعل ذلك؛ فكيف يتوقع نولدكه حصوله من محمد ﷺ، وقد وصفه في كتابه الذي نعالجه بالذكاء السياسي؟

إن توقع حصول ذلك منه مقارب إلى حدٍّ ما لافتراض أن يقوم مصلح إسلامي اليوم (وهو في سبيله لإقناع قومه للأخذ بأفكاره) بالاعتماد على شهادة اليهود المحتلين لفلسطين له بصدقية آرائه!! من هنا فإني أزعم أن هذا الشك في هذا الجزء من دعواه ليس شعورًا ذاتيًا نشأ لديَّ نتاج اعتقاد خاص؛ بل هو نتاج وعي شكلته مُعطيات تاريخية.

كما أن فِقرة من حوار المبايعين عند العقبة الثانية يُفهم منها - على نحو واضح - أن العلاقة بين النبي في مكة واليهود لم تكن أبدًا على النحو الذي يريد نولدكه أن نفهمه.

فهذا أبو الهيثم بن التيهان: أحد كبار الأنصار؛ يعترض إجراءات البيعة قائلًا: (يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالًا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟). قال: فتبسم رسول الله ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»[1].

إن هذه الفقرة تتيح لنا أن نتصور ذلك الشعور الذي حرك أبا الهيثم، وجعله يفهم أن عقد البيعة مع النبي يستلزم قطع الحبال مع اليهود؛ ومن ثم يشترط لقومه مع الرسول أنه إذا أظهره الله فلا يرجع النبي إلى قومه ويدع الأنصار يواجهون وحدهم مصيرهم مع اليهود. ولا دليل على انفراد أبي الهيثم بهذا الشعور؛ فقد أقره الحاضرون معه؛ كما تجاوب النبي مع نتيجته.

فكيف يتفقان: قول نولدكه إن النبي في الفترة المكية كان يتخذ اليهود مرجعية؛ ووجود

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢ ص٢٧٩.

شعور لدى المسلمين في العهد المكي بعدم ودية العلاقة بين النبي واليهود؟

ورغم ذلك سأعرض الآن – مع المناقشة والرد – دعاوى نولدكه المشار إليها من قبل، كُلًّا على حدة:

الدعوى الأولى: يدعي نولدكه أن "معارضة النبي –الذي ظهر من بين الوثنيين – لأهل الكتاب في أثناء الفترة المكية لم تكن ذات أهمية"(١).

"da der Gegensatz des aus den Heiden hervorgegangenen Propheten zu den Schriftbesitzern in Mekka weniger Bedeutung hatte".

كما يدعي أن من ميزات القرآن المكي في مجمله عدم مهاجمة النصارى، وندرة مهاجمة اليهود، وأن المواضع التي هاجم فيها القرآن اليهود يغلب أن تكون مدنية. فعند حديثه عن القرآن في الفترة المكية يقول(٢):

"Dabei greift der Prophet seine heidnischen Gegner oft geradezu persönlich an und droht ihnen mit der ewigen Strafe. Dagegen bekämpft er, während er nur unter Heiden lebt, selten die ihm viel näherstehenden Juden und fast nie die Christen"

وترجمته:

"كثيرًا ما هاجم النبي- بصورة شخصية - خصومه المشركين؛ حيث عاش بين ظهرانيهم، وهددهم بالعذاب الأبدي. في حين أنه لم يحتج - إلا نادرًا - أن يهاجم اليهود؛ حيث كانوا أكثر قربًا إليه من المشركين. ولم يهاجم النصارى أبدًا".

واستخدم نولدكه القول بمدنية آية من سورة الأنعام المكية لتأكيد زعمه فقال(٣):

"Mit mehr Recht setzt man V. 91 nach der Auswanderung, da der direkte Vorwurf gegen die Juden, sie schrieben ihre heiligen Bücher nieder und verheimlichten dabei vieles, nämlich die Stellen, in denen von Muhammed die Rede sei, in Medina eher als in Mekka gefallen sein dürfte".

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧١.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦١-١٦٢.

"يجعل البعض[١] – بكثير من الحق – الآية ٩١: الأنعام[٢] بعد الهجرة؛ ففيها الهجوم المباشر ضد اليهود الذين كتبوا كتبهم المقدسة على الورق مخفين الكثير منها؛ وذلك لأن المواضع التي قال فيها مثل هذا الكلام يغلب أن تكون مدنية عن أن تكون مكية".

وأجيب عن هذا بالآتي:

أ- إننا إذا أخذنا الأمر بالنظر إلى نسبة الآيات المكية – في الشأن الذي يحدثنا عنه نولدكه – إلى الآيات المدنية المتعلقة به؛ وجدنا أن آيات مواجهة أهل الكتاب في القرآن المدني أكثر من مثيلتها في القرآن المكي. لكن هذه النتيجة لا توضع على الإطلاق في السياق ذاته الذي وضعها فيه نولدكه، بحيث نظر إليها كدليل على تحول النبي في البحث عن مرجعية (حيث ادعى أنه لم يكن يعارض أهل الكتاب في مكة؛ لأنهم كانوا مرجعيته، ولما ذهب إلى المدينة عارضهم لأنهم كذبوه).

ب- والحق أن ينظر إلى هذه النتيجة في إطار حقيقة هي: أن الفوارق بين معالجة القرآن المكي للعلاقة مع أهل الكتاب، ومعالجة القرآن المدني للأمر ذاته تنسجم مع طبيعة القرآن نفسه، كما تنسجم مع النظر العقلي في المسألة:

أما انسجامها مع طبيعة القرآن نفسه؛ فكما نعلم أن القرآن مُنَجَّم؛ لم ينزل جملة واحدة ... هكذا اقتضت حكمته تعالى[٣]. ومن جملة ما

---

(١) في رواية منقطعة لابن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أنها مدنية، وروي ذلك أيضًا عن سعيد بن جبير (الواحدي: أسباب النزول ١٨٠-١٨١ والسيوطي: لباب النقول ص١٤٣)، وورد في تفسيري ابن جرير وابن كثير (عند تفسيرهما للآية) أنها نزلت في قريش. والموجود في مصحفنا أن هذه الآية مدنية.

(٢) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. نلاحظ هنا أنه لما كانت الدعوى اليهودية قريبة لأن تكون إلحادية؛ إذ إنها تنفي أي وحي من الله لأي بشر؛ ناسب أن توضع في سورة تعالج مواقف الكفار المشركين.

(٣) انظر بشأن الحكمة في تنجيم القرآن: السيوطي: الإتقان ص٥٥، ٥٧، ٥٨ وصبحي الصالح: =

ذكره القرآن كسبب لتنجيمه هو: مواكبة الحوادث والوقائع والأقوال في عصر النبوة. قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾[1].

ولأن الحوادث والملابسات الناتجة عن التعامل المباشر مع اليهود في المدينة لم تكن موجودة مطلقًا بمكة؛ إذ لم يكن ثمة يهودي هناك؛ ناسب إذًا أن تنزل في المدينة الآيات المدنية المواكبة للأحداث المدنية التي حصلت مع أو من اليهود، ولم يكن مناسبًا أن يَسبق التعقيبُ على تلك الأحداث فينزل في مكة! إن هذا لو تم لكان مخالفًا لمنهج القرآن الذي شكّل بنزوله منجمًا في سنوات تنـزله الثلاث والعشرين وعي الأمة بالتدريج[2].

ولقد كان لذلك في الشأن الذي معنا[3] - كما في غيره - فائدة تربوية ناجزة؛ حيث كان التعقيب القرآني يأتي إثر القول أو الفعل المتجنى من اليهود في حق الإسلام ونبيه، ناظرًا إلى صنيعهم من خلال تاريخهم العام، أو كاشفًا خبايا أنفسهم التي حملتهم على هذا الصنيع، أو مذكرًا إياهم بنعم الله عليهم وعهدهم وميثاقهم معه، فينشأ من هذا كله البناء الإيماني والدعم النفسي للمسلمين في مواجهتهم.

= مباحث في علوم القرآن ص٤٩-٦٢.

(١) الفرقان: ٣٢، ٣٣.

(٢) يقول مالك بن نبي في كتابه الفريد (الظاهرة القرآنية ١٨٠-١٨١): (كيف كان القرآن يؤدي دوره حيال طبيعة الإنسان التي جاء يصوغها في ذلك العصر، لو أنه سَبق بنزوله أحداث حنين وأحد؟ وماذا كان (يمكن) أن يكون لو أنه لم يأت لكل ألم بعزائه العاجل؛ ولو أنه لم يُنزل لكل تضحية جزاءها، ولكل هزيمة أملها، ولكل نصر درسه في الاحتشام، ولكل عقبةٍ إشارةً إلى ما تقتضيه من جهد، ولكل خطر أدبي أو مادي روح التشجيع اللازم لمواجهته؟... فهل كان لدرسه أن يجد طريقه إلى قلوبهم وضمائرهم؛ لو لم يكن نزوله تبعًا لأمثلة الحياة نفسها والواقع المحيط بهم؟).

(٣) وهو نزول معظم الآيات المواجهة لليهود في المدينة.

ولن تكون هذه الثمرة الأخيرة تامة التحقق إذا تم التعامل القرآني مع اليهود عن طريق الأحكام المسبقة القَبْلية؛ فناسب إذًا أن يأتي التعقيب القرآني بعد أن يكون أبناء المجتمع المسلم قد خبروا اليهود في العهد المدني، وتعاملوا معهم عن قرب.

وأما انسجامها مع النظر العقلي في المسألة؛ فالملاحظ أنه في مكة لم تكن قد نشأت بعدُ عداوةٌ من اليهود للنبي ﷺ مثل تلك التي نشأت في المدينة؛ وإن كانت قد ظهرت منهم بعض بوادر خصومة عن بُعد[1]؛ لكنها بطبيعة الحال لا ترقى لأن تكون مماثلة لما ظهر منهم في المدينة.

وهذا أمر طبيعي؛ لأن هناك أمرين ساعدا على عدم وقوف اليهود موقف العداوة الشديدة للنبي نظريًّا أو عمليًّا.

أولهما: بعد المسافة بين مكة (حيث النـــبي) والمدينة (حيث اليهود).

ثانيهما: عدم تأكد اليهود من غلبة أمره ﷺ في النهاية؛ بل توقعهم سهولة أن يتخلص منه القرشيون...

لكن الأمر تغير منذ الشهور الأولى بعد الهجرة؛ فجمـاعة المسلمين تكبر، ودولة الإسلام تؤســس يومًا بعد يــوم، ويتآكل - تدريجيًّا تبعًا لهذا - سلطان اليهود الديني والدنيوي؛ لذا فهم - وقد اختاروا عدم اتباعه ﷺ - قد عظمت لديهم أسباب حقيقية للعداوة، فلجُّوا في خصومتهم وعداوتهم رغم موادعة النبي ﷺ إياهم[2].

نقول إذن: إن الاحتكاك المباشر مع اليهود في المدينة ولَّد عددًا من

(١) وقائعها بطبيعة الحال ليست كثيرة. لكن منها ما ورد من أن أحبار يهود المدينة نصحوا من ذهب إليهم من المشركين - طالبين النصح في أمر النبي - أن يسألوه عن أحداث وأشخاص من الماضي وعن الروح (ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٨٠، والبلاذري: أنساب ج١ ص١٤٢).

(٢) راجع الفصل الثاني من هذا الجزء.

الوقائع التي تضمنت أخطاء، بل خطايا يهودية؛ لذا فقد اقتضى الأمر كثرة التعقيبات القرآنية؛ أما مكة فلم يكن بها ثمة احتكاك. فموقف القرآن منهم كان مسايرًا للحالين معًا؛ فبقدر خصومتهم كان رده؛ وبقدر تجنيهم كان توضيحه للحقائق.

إن نولدكه يعتمد على كثرة الآيات المدنية المهاجمة لليهود عن أخواتها المكية في دعوى تحول النبي عن اتخاذهم مرجعية؛ فهل كان من المفترض لآيات مدنية مرتبطة بحوادث مدنية مثل: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ الآية[1] و﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[2]... وغيرهما كثير..

أقول: هل كان من المفترض أن تنـزل هذه الآيات في مكة قبل حصول الوقائع التي نزلـت تلك الآيات للتعقـيب عليها؟

وهل كان من المنطقي لو أتى في القرآن المكي -وليس بمكة ثمة يهودي- آيات يُسَجِّل فيها خطابُ اليهود أو بني إسرائيل المعاصرين للنبي حضورًا قويًّا؟

وهل كان من المفترض كذلك أن تنـزل في مكة آيات ترسم صورة كاملة في الوعي المسلم لليهودي المعاصر للنبي، رغم عدم وجود دواع تقتضي ذلك؟

---

(١) البقرة: الآية ٩٧، والحادثة هي أن نفرًا من أحبار يهود قالوا للنبي: إن جبريل عدونا يأتي بالشدة وسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك (ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٣٥١).

(٢) آل عمران: ١٨١. والحادثة هي أن أحد أحبار يهود يدعى: فنحاص، نسب - في حوار مع أبي بكر - الفقر لله؛ تعالى الله عن ذلك، زاعمًا أن هذا هو مفهوم قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. [الحديد: ١١] فضربه أبو بكر؛ فذهب فنحاص إلى النبي شاكيًا زاعمًا أنه لم يقل ذلك. ثم نزلت الآية (ابن هشام عن ابن إسحاق: ج٢ ص٣٦٤- ٣٦٥، والسيوطي: لباب النقول ٧٨-٧٩ من قول ابن عباس، والواحدي: أسباب النزول ص١١٢- ١١٣ عن عكرمة والسدي ومقاتل وابن إسحاق).

بطبيعة الحال لا. لذلك فإنه كما قلت سلفًا: إن حقيقة أن آيات الهجوم على اليهود يغلب كونها مدنية؛ تلك الحقيقة التي أغرب نولدكه في توظيفها وتفسيرها؛ تنسجم مع طبيعة القرآن نفسه، كما تنسجم مع النظر العقلي في المسألة. وهكذا يفسِّرها القلم المجرد عن الهوى ... وهو - مع بالغ الأسف - ما لم يفعله نولدكه.

ج- لكن هل يعني هذا خلو القرآن المكي من معارضة اليهود والنصارى[1]؟

قبل أن أجيب على هذا السؤال أقول: إن مشكل نظرية نولدكه؛ في الجانب الذي معنا؛ أنها تضعنا أمام مرجعيتين للنبي: أهلِ الكتاب في المرحلة المكية وبداية المدنية، وإبراهيم بعد ذلك. والمفترض - وفقًا لهذه النظرية - أن يكون الموقف من كل مرجعية وقت إقرارها من قبل النبي متماثلًا. ونولدكه يقول: إن القرآن المدني[2] أثنى على إبراهيم وقدَّره فترة اتخاذه مرجعية؛ فالمفترض أن يكون قد فعل الشيء نفسه مع أهل الكتاب فترة اتخاذهم مرجعية في الفترة المكية وبداية الفترة المدنية.

فهل أثنى القرآن عليهم في الفترة المكية؟

إن الإجابة عن السؤال المطروح أعلاه ستجلي هذا المشكل تمامًا.

وللإجابة عنه أقول: إن في القرآن المكي آيات تنكر على اليهود، وآيات تنكر على النصارى:

أما إنكار القرآن المكي على اليهود؛ فقد تجلى في الآتي:

- بيانه قلة عدد الذين آمنوا لموسى من قومه في بداية دعوته، رغم أنه

(١) حتى تستقيم لنولدكه دعواه؛ فإنه سيزعم أن ما في القرآن المكي من مهاجمة النصارى في عقيدتهم أن لله ابنًا؛ هو موجه ضد المشركين وليس ضد النصارى. وسنرى هذا في الدعوى التالية.

(٢) المدني فقط في زعمه. لكن سيتبين لنا في الفصل الثالث أن المكي أيضًا فيه هذا الثناء.

مرسل لإنقاذهم؛ فقال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

- ذكره بعض أخطائهم في حق نبي الله موسى؛ من قبيل الحديث معه بأسلوب لا يليق: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.
- بيانه نزوعهم نحو الوثنية بعد أن نجاهم الله من فرعون في عهد موسى عليه السلام؛ فقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ الآية، ولما فشلت محاولتهم هذه المرة عادوا من جديد إلى المحاولة منتهزين فرصة غياب موسى لمناجاة ربه؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[1]، وأصروا عليه بعد تحذير هارون عليه السلام لهم: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[2].
- وأُشِيرَ في القرآن المكي أيضًا إلى الآتي: إفسادهم، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، واختلافِهم الذي ما كان ينبغي منهم مع وضوح العلم لهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

---

(١) الآيات بالترتيب هي: يونس: ٨٣، الأعراف: ١٢٩، ١٣٨، ١٤٨.

(٢) طه: ٩١. وعن نفس الحادثة: طه: الآيات ٨٥-٩٨.

(٣) الآيات بالترتيب هي: الإسراء: ٤، الجاثية: ١٦، ١٧، يونس: ٩٣، النمل: ٧٦-٧٨.

- وجاء فيه أيضًا أن الله حرم عليهم بعض المطعومات جزاء بغيهم؛ فقال في سورة الأنعام المكية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[1].

- ووصفوا فيه بالأوصاف الآتية: (ظالمين)، (القوم الظالمين)، (كانوا أنفسهم يظلمون)، (المفترين)، وبأنهم (قد ضلوا). ومن جراء وصف بعضهم بالظلم فإن القرآن المكي أباح أن يكون الجدال مع هذا الصنف منهم بغير التي هي أحسن؛ فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ الآية. وبسبب هذه الصفة لبعضهم فقد عاقبهم الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾. كما وُصف الذين اتخذوا العجل منهم على لسان موسى بـ: (السفهاء)[2].

- كما أُشيرَ فيه إلى عقوبات أنزلها الله بهم نتيجة ضلالهم عن منهجه؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾. وقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[3].

- وتوعدهم الله في القرآن المكي بالعذاب والخزي في الدنيا والآخرة إن هم استمروا على ضلالهم وبغيهم، فقال تعالى مخاطبًا

(١) الأنعام: ١٤٦.

(٢) والمواضع القرآنية بالترتيب هي: الأعراف: ١٤٨-١٥٠، (النحل: ١١٨، الأعراف: ١٦٠)، الأعراف: ١٤٩، ١٥٢، العنكبوت: ٤٦، الأعراف: ١٥٥، ١٦٢.

(٣) الأعراف: الآيتان ١٥٢، ١٦٦.

إياهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾، وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[1].

- كما تعرض لخلفهم أيضًا؛ فقد جاء في سورة الأعراف أن أجيالهم الماضية قُطِّعت في الأرض، منهم الصالحون ومنهم العصاة؛ لكن خَلَفَ هذه الأجيال باعوا ما ورثوه لقاء عرض الدنيا الزائل، وزعموا المغفرة من الله، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

وأما إنكار القرآن المكي على النصارى فيتضح من الآتي:

- لقد بينت سورة مريم المكية أن المسيح عليه السلام نطق في المهد بعبوديته لله، وكونه نبيًا له؛ حيث قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾. وبينت السورة ضلال النصارى المبين بشأن المسيح عليه السلام، ونفت الولد عن الله، وتوعدت من يزعم ذلك منهم بالويل: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[3].

(١) الآيتان: الإسراء: ٨، الأعراف: ١٦٧.

(٢) الأعراف: ١٦٨، ١٦٩.

(٣) مريم: ٣٠، ٣٣-٣٨.

- أعلنت سورة الزخرف المكية: أن عيسى عليه السلام ليس إلا عبدًا من عباد الله، جعل الله ولادته بغير أب آية على طلاقة قدرته، وأنه أقام تلك الآية في مواجهة بنى إسرائيل، وأن المسيح أعلن بنفسه أن الله هو ربه ورب الجميع، الذي تتوجه إليه وحده العبادة. وأشارت السورة إلى اختلاف النصارى من بعده في شأنه، وتوعدت الذين انحرفوا عن الحق بشأنه بعذاب يوم أليم؛ قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].
- بينت سورة (المؤمنون) المكية أن المسيح وأمه آية من الله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[2].

فهل يستقيم هذا الهجوم الصادر من القرآن المكي على ضلالات النصارى مع عبارة نولدكه الجازمة، ولغته الواثقة في نفي ذلك؟ أعيد الآن عبارته مضيفًا نص ما ذكره بالألمانية لنتبين حجم جناية من يوصف من قبل المستشرقين -بسبب كتابه الذي بين أيدينا الآن- بأنه رائد (المنهج النقدي التاريخي في دراسة الكتب المقدسة)؛ يقول نولدكه في أثناء حديثه عن السور المكية في القرآن[3]:

"Dabei greift der Prophet seine heidnischen Gegner oft geradezu persönlich an und droht ihnen mit der ewigen Strafe. Dagegen bekämpft er, während er nur unter Heiden lebt, selten die ihm viel näherstehenden Juden und fast nie die Christen"

---

(١) الزخرف: ٥٩، ٦٣-٦٦.

(٢) المؤمنون: ٥٠.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧١.

وترجمته:

"كثيرًا ما هاجم النبي - بصورة شخصية - خُصومَه المشركين حيث عاش بين ظهرانيهم، وهددهم بالعذاب الأبدي. في حين أنه لم يحتج - إلا نادرًا - أن يهاجم اليهود؛ حيث كانوا أكثر قربًا إليه من المشركين. ولم يهاجم النصارى أبدًا".

وبعد..

فقد اتضحت لنا الآن - بعد وقوفنا على هذا الإنكار الصريح، والهجوم اللاذع الوارد في القرآن المكي على أهل الكتاب - معالم المشكل الكبير لهذا الجانب من نظرية نولدكه[1]؛ لأتساءل من ثم:

بأي منهج علمي ساغ لنولدكه ألا يلتفت إلى كل تلك الآيات؟

لكني أقول: إن ذلك كان لحسن حظه؛ وإلا لوقع في خطأ علمي آخر، بأن يجعلها جميعها بجرة قلم: آيات مدنية حتى لا يضحي بنظريته. ولِم لا يفعل[2]؟ أليس هو المستشرق الكبير الذي ينظر إليه تلامذته وزملاؤه باحترام وتقدير، يغنيهم عن التدقيق في أحكامه أو مراجعة أقواله؟

* * *

الدعوى الثانية: وهي على علاقة جزئية بالدعوى الأولى؛ فإذا كان نولدكه قد ادعى فيها أن من ميزات القرآن المكي عدم[3] مهاجمة النصارى؛ فكيف يفلت من إشكال وجود آيات في القرآن المكي تنكر على النصارى نسبتهم الولد لله تعالى؟ هل يجعلها نولدكه آيات مدنية لتسلم له نظريته؟ يحتمل أنه فكر في ذلك؛ غير أنه وجده مسلكًا صعبًا يعوزه الدليل أو حتى شبهة الدليل.

لكن بدا لنولدكه أنه وجد المخرج؛ إذ بان له أن مشركي العرب كانوا ينسبون

(١) أي تفسيره لحقيقة أن معارضة القرآن لأهل الكتاب في مكة كانت أقل نسبيًّا منها في المدينة.

(٢) قد فعل ذلك، لكن سأعرض في موضع آخر له.

(٣) لاحظ كلمة عدم.

الولد لله تعالى، فالتفت إلى ذلك ظنًّا منه أنه سينقذ نظريته؛ فوجدناه يزعم هنا أن ما في القرآن المكي من رفض لعقيدة أن لله ابنًا؛ إنما هو ضد المشركين العرب، وليس ضد النصارى. فقال[1]:

"Man darf nicht in allen Stellen, in denen Muhammed gegen die Lehre eifert, daß Gott Nachkommenschaft ولد *hätte, eine Polemik gegen die Lehre von Christus als Gottes Sohn sehen.*

Die heidnischen Araber nannten ihre Göttinnen al-Lat, Manat und al-'Uzza "Töchter Allah's". Der Name bedeutet wahrscheinlich nichts anderes als göttliche Wesen weiblicher Natur, vgl. J. Wellhausen, Reste arabischen Heidentums S. 24f.".

وترجمته:

"لا ينبغي أن يُنظر إلى كل المواضع التي يتهجم فيها محمد على عقيدة أن لله ولدًا على أنها جدل ضد بنوة المسيح لله؛ فالوثنيون العرب اعتبروا آلهتهم: اللات والعزى ومناة؛ بناتٍ لله[2]. ولا يعني هذا أكثر من كونها كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية. راجع يوليوس فيلهاوزن: بقايا الوثنية العربية ص ٢٤، والتي تليها".

وأقول:

أ- لقد جاء هذا من نولدكه لكي يستَبِقَ أيَّ اعتراض عليه في دعواه أن القرآن المكي لم ينكر على النصارى على النحو الذي بينته عند مناقشتي للدعوى الأولى. وهو يحاول بالزيف أن يُفهِم قارئه الغربي أن رفض القرآن المكي لعقيدة أن لله ابنًا - في الآيات التي بيناها قبل قليل - ليس موجهًا ضد النصارى، بل ضد المشركين العرب.

ب- إن التزييف في محاولته هذه واضح لا نحتاج في الوقوف عليه إلا لتأمل الآيات المكية الواردة بهذا الشأن؛ لأن هذه الآيات المنكرة على النصارى

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧١ هامش٢.

(٢) لم تأت أي آية في القرآن يفهم منها أن العرب جعلوا آلهتهم بنات لله، والذي جاء فيه هو زعمهم أن الملائكة هي بنات الله. [الباحث].

- التي استشهدنا بها من قبل - صريحة في إنكار هذا الـجُرم وتشنيعه عليهم:

لنقرأ قوله تعالى في سورة مريم تعقيبًا على ضلال النصارى بشأن عيسى عليه السلام:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

إنه لا يمكن أن تُعَقِّبَ الآية بتنـزه الله تعالى عن الولد إثر ذِكر ضلال النصارى في شأن المسيح؛ ثم لا يكونوا مقصودين بهذا التعقيب، في حين يُقصد المشركون وحدهم[2] الذين لم يجرِ لهم هنا ذكر أصلًا!! والعجيب أن يصبح غير الممكن هذا في خيال نولدكه العجيب هو المقصود الوحيد للآية!!

كما أن نولدكه تجاهل متعمدًا القرينة الواضحة التي تُظهر - بالإضافة إلى ما ذُكر - أن النصارى هم المقصودون بهذا الإنكار؛ وهي قوله تعالى في الآيتين التاليتين: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ إذ فيهما إشارة إلى الاختلاف الحاصل بشأن المسيح بين أحزاب النصارى وطوائفهم.

كما ورد في سورة الزخرف المكية في سياق الحديث عن المسيح التأكيدُ على عبوديته لله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية[3]، ومعلوم أن في إثبات عبوديته إنكارًا لألوهيته التي قال بها النصارى.

وحتى الآيات المكـية التي فيها إنكارٌ لعقيدة أن لله ابنًا ولم يجرِ قبلها ذكر للنصارى؛ فلا يمكن - إن كان في ألفاظها عموم - قصرُ الإنكار فيها على

(١) مريم: ٣٣، ٣٤.

(٢) تنزه الآية الله تعالى عن أي ولد ينسبه له أي طائفة.

(٣) الموضعان هما: مريم: ٣٧، ٣٨ ، الزخرف: ٥٩.

مشركي العرب وحدهم؛ بل إنه يتوجه أيضًا إلى كل ادِّعاء أن لله ولدًا أو ابنًا أيًّا ما كانت ملة المدعي.

هذه الآيات من قبيل:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾.

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾.

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

ووصف الله ذاته في القرآن المكي بأنه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وبأنه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾[1].

---

(١) الآيات بالترتيب هي: الأنعام: ١٠١، مريم: ٨٨،٩٣،المؤمنون: ٩١، الزخرف: ٨١، ٨٢ ، يونس: ٦٨، ٧٠ ،الإسراء: ١١١ ، الكهف: ٤، ٥، الفرقان: ٢، الإخلاص: ٣.

لقد وضعتنا هذه الآيات إزاء صِيَغٍ تنفي عن الله عموم الولد، وتنكر على كل الذين زعموه لله.

إن كل ما يُنسب لله تعالى من ولد: أيًّا ما كان ذلك الولد: كبيرًا أو صغيرًا، بشرًا أو جنًّا أو ملكًا، نبيًّا أو غير نبي، حقيرَ الشأن أو عَظِيمَهُ؛ فإن القرآن المكي ينزه الله عنه، وينكر ويشنع القول به، ويجعله جرمًا في حقه تعالى.

وكذلك كل من ينسبون له تعالى الولد: أيًّا من كانوا: عربًا أو غير عرب، مشركين أو نصارى أو يهودًا أو مجوسًا؛ وفي أي زمن كانوا: معاصرين للنبي أو سابقين أو لاحقين له؛ فإن القرآن المكي ينكر عليهم ذلك الصنيع أشد الإنكار.

إنه حتى في هذه الآيات لا دليل على تخصيص هذا العموم.

كما أن الصيغة التي يُنكر فيها القرآن المكي على النصارى زعمهم الولد لله تعالى شبيهة، من حيث عموم اللفظ بصيغة إنكاره على كل من يزعمون لله الولد، ولا فارق في هذا الجانب بين آية: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ الواردة بشأن النصارى؛ وبين آيات: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، و﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ و﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[1] المنكرة على كل من يتخذ لله ولدًا.

ج- وأشير هنا إلى نقطة منهجية ما كان لمستشرق في مكانة نولدكه أن يقع فيها:

فقد لاحظنا أن نولدكه؛ لكي يدعم نظريته المتهافتة: (أن القرآن المكي لم يهاجم أهل الكتاب؛ لأن النبي كان يتخذهم مرجعية)؛ فإنه لجأ لنفي أن يكون النصارى مقصودين بهجوم القرآن المكي على عقيدة أن لله ابنًا، وألمح إلى إمكان أن يكون مشركو العرب هم المقصودين بهذا الهجوم؛ لأنهم عَدُّوا آلهتهم بنات لله[2].

(١) الآيات المذكورة هي بالترتيب: مريم: ٣٤، ٩٢، المؤمنون: ٩١، الإسراء: ١١١.

(٢) أعيد قوله مرة أخرى: "لا ينبغي أن يُنظر إلى كل المواضع التي يتهجم فيها محمد على عقيدة=

فنخرج هنا إذن برأيه أن الآيات المكية التي تنفي أن يكون لله ابنًا ليست موجهة ضد النصارى، بل ضد المشركين في ادعائهم لله "كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية".

لكنه في مكان آخر، ومن أجل أن يدعم نظرية أخرى كاذبة عن النبي هي: (أنه كان يبحث في سنواته المكية الأولى عن حل وسط مع الشرك)؛ فإن نولدكه رأى أن القرآن المكي لم يعارض مشركي العرب في وجود كائنات تابعة لله؛ فقال عن فرية الغرانيق المزعومة[1]:

"Die Episode erklärt ich aus der ängstlichen Stimmung Muhammeds, der einen Kompromiß mit dem alten Glauben suchte, indem er jene Götter als Allah unter geordnete gute Wesen anerkannte"

وترجمته:

"إن هذا الحدث العابر يُفسَّر بحالة خوف محمد، الذي كان يبحث عن حل وسط مع العقيدة القديمة؛ وفيه يعترف بتلك الآلهة على أنها كائنات طيبة تابعة لله".

وقال[2]:

"Der Ausspruch über die Gharaniq will ja die heidnischen Gottheiten nicht etwa dem einen Allah gleichstellen, sondern betrachtet sie als untergeordnete Wesen, denen nur das Recht der Fürbitte zusteht".

وترجمته:

"إن الكلام عن الغرانيق لا يُقصَدُ منه أن يضع كلًّا من الله الواحد والآلهة الوثنية الإناث على قدم المساواة؛ وإنما يعدهن كائنات تابعة، لها حق الشفاعة فقط".

= أن لله ولدًا على أنها جدل ضد بنوة المسيح لله؛ فالوثنيون العرب اعتبروا آلهتهم: اللات والعزى ومناة؛ بناتٍ لله، ولا يعني هذا أكثر من كونها كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية".

(١) ١٠٠-١٠١. وفرية الغرانيق متهافتة، مردود عليها بنقد سند الرواية التي يُستند إليها في القول بها، وبنقد متنها كذلك، وسوف أتناول بشكل موسع الرد على هذه الفرية في دراسة قادمة بإذن الله عن الدعاوى الاستشراقية بالتأثير الوثني على القرآن الكريم.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٠٢.

ومؤدى هذا الكلام أن القرآن المكي اعترف بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

وهنا يكمن التناقض في النتيجتين:

فالقرآن المكي ذاته الذي قال عنه نولدكه من قبل: إنه هاجم المشركين في ادعائهم لله "كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية"؛ هو نفسه الذي يقول عنه[1]: "إنه اعترف بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

فنتيجتا نولدكه اللتان معنا هنا هما:

١- أن القرآن المكي كان ضد المشركين في ادعائهم لله" كائنات إلهية ذات طبيعة أنثوية".

٢- أن القرآن المكي اعترف بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

وهما نتيجتان متناقضتان تمامًا؛ إذ تحكمان بالنفي والإثبات لشيء واحد. فكيف نفسر هذا التناقض؟

إننا نلاحظ هنا أنه لكي يستدل نولدكه على أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية في الفترة المكية وجدناه يدعي أن النبي لم يهاجمهم أثناءها؛ وفضل أن تكون النصوص القرآنية المكية التي هاجمت (عقيدة أن لله ابنًا)؛ موجهة ضد الوثنيين العرب الذين اتخذوا آلهتهم: اللات والعزى ومناة؛ بنات لله؛ دون أن تكون ضد النصارى. لكن يبدو أنه نسي هذا الذي انتهى إليه؛ فادعى بعد ثلاثين صفحة أن القرآن اتخذ حلًّا وسطًا مع المشركين مستدلًّا بزعمه أن آيات القرآن المكي "اعترفت بما ادعاه المشركون لله من كائنات إلهية تابعة لله".

إن لم أكن مخطئًا؛ فإن نولدكه كان يصدر في بحثه لهاتين الجزئيتين عن نظريتين سابقتين، فرضهما عليه بإلحاحٍ شديدِ العقلُ الاستشراقي الجمعي.

(١) بعد حوالي ٣٠ صفحة من قوله الأول.

الأولى: أن النبي اتخذ - وهو بمكة - أهل الكتاب مرجعية.

الثانية: أن النبي كان يبحث في مكة عن حل وسط مع المشركين.

ثم إن نولدكه كان يتلمس لكل نظرية ما يظن أنه يؤيدها، فوقع فيما أشرت إليه هنا من القول بالشيء ونقيضه، كما وقع في غيره.

وهكذا فإن الأمر يبدو لي كما لو أن النتيجتين المذكورتين كانتا ورقتين بيد نولدكه؛ يُخرج الأولى إذا أراد ادعاء أن النبي اتخذ أهل الكتاب مرجعية في الفترة المكية؛ ويُخرج الثانية إذا أراد ادعاء أن القرآن اتخذ حلًّا وسطًا مع المشركين؛ دون أدنى اعتبار لقواعد المنهج العلمي الذي يزعمه، أو حتى احترام لعقل القارئ الغربي المخدوع الذي تأسره سمعة الكاتب وشهرته عن أن يجري مقاربة نقدية لآرائه على النحو الذي جرى هنا.

وبعد.. فبناءً على ما قدمناه من نقد، نقول:

إن دعوى نولدكه المذكورة باطلة، قائمة على تزييف واضح. وثبت لدينا أن القرآن المكي هاجم اعتقاد النصارى في كون المسيح ابنًا لله، وثبت تلفيق نولدكه في دعواه أنه في ذلك كان يهاجم مشركي العرب وحدهم.

***

الدعوى الثالثة: لقد وصل نولدكه بعد ذلك لأن يتحدث عن اهتمام النبي في مكة بالمسيحيين، وأن يزعم وجود ما يسميه: تساويًا وصداقة بين الطرفين، وأن النبي في مكة اعتبر نصر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفار. كما استدل نولدكه على دعواه بأن موسى ذكر في القرآن المكي كثيرًا؛ فقال[1]:

"Wohl aber hatte Muhammed ein Interesse für die Christen, mit denen er sich damals noch beinahe identifizierte; ihm mußte der Sieg der Byzantiner über die Perser der der Monotheisten über die Ungläubigen sein, und daher fanden seine Gegner Gelegenheit, ihm vorzuhalten, daß seine Freunde besiegt wären, und sein Gott ihnen wohl nicht hätte helfen können".

(١) في سياق الحديث عن القرآن المكي ص١٥٠ هامش٤.

وترجمته:

"لقد كان لدى محمد – حقًّا – اهتمام بالمسيحيين الذي كان ما يزال وقتئذ يكاد أن يتساوى بهم. ولقد كان نصر الروم على الفرس بالنسبة له نصرًا للموحدين على الكفار، وبهذا وجد أعداؤه الفرصة ليعيروه أن أصدقاءه هزموا، وأن إلهه لا يستطيع مساعدته".

كما ذكر أن النبي ركز في القرآن المكي كثيرًا على موسى تحديدًا لشعوره أنه قريب منه؛ يقول[1]:

"Am häufigsten behandelt Muhammed übrigens die Geschichte Mose's, dem er sich damals wohl am nächsten verwandt fühlte".

وترجمته:

"إن محمدًا تناول قصة موسى كثيرًا، حيث كان يشعر في نفسه وقتذاك أنه قريب منه".

وأقول وبالله التوفيق:

أ – إن دعواه أن النبي كان في مكة يهتم بالمسيحيين ويكاد أن يتساوى بهم؛ هي دعوى مرسلة ذكرها نولدكه دون أن يقدم ما يمكن أن يكون شاهدًا لها حتى نناقشه فيه. كما أنه لم يبين مظاهر اهتمام النبي بالمسيحيين أو تساويه المزعوم بهم.

ب– أما دعواه أنه ﷺ اعتبر نصر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفار؛ فإن طرحه المسألة بهذه العجالة ينطوي على مغالطة؛ فمعلوم تاريخيًّا أن "كسرى أبرويز زعيم الفرس زحف عام ٦١٤م[2] على بلاد خاضعة للروم هي سوريا ومصر وأنطاكية وبيت المقدس، وقتل في سوريا وقتها ٩٠٠٠٠ إنسان. كما فتح آسيا الصغرى التي كانت كذلك خاضعة للروم. وظل هذا الانتصار حتى عام ٦٢٢م حين حشد هرقل قواته، وركب

(١) عند حديثه عن سور الطَّور المكي الثاني ١٢٠.

(٢) حدد د. البهي (تفسير سورة الروم ص١٤) تاريخ هزيمة الروم بالعام ٦١٦م.

البحر إلى كليكيا في آسيا الصغرى، واحتل إيسوس وحارب الفرس، وانتصر عليهم في نفس العام"[١].

والآيات الكريمة التي أشارت لهذين الحادثين هي قوله تعالي: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٢].

ونلاحظ هنا أن الروم لم يوصفوا في الآيات التي معنا - أو في غيرها - بالموحدين. ولعل عدم وصفهم بهذا الوصف فيها؛ هو الذي جعل نولدكه لا يذكرها عند عرضه لدعواه، حتى يجعل الأمر ملتبسًا على قارئه الألماني.

كما أن الروايات التي وردت في الشأن الذي معنا لم تصف الروم بالموحدين؛ بل أشارت إلى قرب نسبي سيتضح بعد قليل؛ فقد روى ابن جرير بسنده[٣] عن عبد الله بن مسعود قال: (كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم - أي الروم - أهل كتاب وهم أقرب لدينهم...). الحديث.

وعن ابن عباس قال[٤]: (... كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب).

(١) راجع: جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج١ ص٥٢-٥٣.

(٢) الروم: ٢-٦:

(٣) تفسير الطبري لمفتتح سورة الروم.

(٤) دلائل النبوة: البيهقي ج٢ ص٣٣٠-٣٣١ وبهامشه تخريج الحديث المذكور، حيث أخرجه الترمذي في جامعه ٤٨: كتاب التفسير ٣١: باب (ومن سورة الروم) حديث (٣١٩٣)، صفحة ٥: ٣٤٣-٣٤٤، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة. وانظر: ابن كثير، التفسير ج٣ ص٤٠٨.

وجاء كذلك عن أبي سعيد الخدري من الصحابة ومجاهد من التابعين أن فرح المسلمين بنصر الروم لأنهم كانوا أهل كتاب والفرس أهل أوثان[1].

ويقول ابن كثير[2]: (لما انتصرت الروم على الفرس فرح المؤمنون لذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس).

وغاية ما في فرح المؤمنين المشار إليه في الآيات أن هناك حيثيتين له؛ فهم فرحوا لأن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المشركين؛ فانتصارهم محبب - بلا شك - للمسلمين. وفرحوا كذلك؛ لأن هذا النصر مقدمة لانتصارهم هم على المشركين العرب.

ج- أما ذكر موسى عليه السلام في القرآن المكي كثيرًا فلا يمكن أن يكون دليلًا على أنه ﷺ كان يتخذ اليهود مرجعية لأنه عليه السلام قد ذُكر كذلك في القرآن المدني ستًّا وعشرين مرة كلها في مواضع تقدير وتكريم؛ وفيها:

أن الله آتاه الكتاب والفرقان وسلطانًا مبينًا[3]، وأنه جاء قومه بالبينات والمعجزات[4]، وأن الله كلمه[5]، وأخذ منه الميثاق[6]، وأن الله أمر محمدًا ﷺ أن يؤمن بما أنزله على موسى[7]، وسمى الذين كذبوه كافرين[8].

---

(1) المرجع نفسه ص٣٣١، ٣٣٢.

(2) تفسير القرآن العظيم ج٣ ص٤١١.

(3) الآيات هي: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، و﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾، و﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا﴾، و﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهي الآيات: البقرة: ٥٣، ٨٧، والنساء: ١٥٣، والأنعام: ١٥٤.

(4) البقرة: ٦٠، ٩٢.

(5) النساء: ١٦٤.

(6) الأحزاب: ٧.

(7) البقرة: ١٣٦، آل عمران: ٨٤.

(8) الحج: ٤٤.

كما أن النبي ﷺ قال: **«أنا أولى بموسى منهم»**[1]، وقال عنه: **«إن موسى كان رجلًا حييًّا سِتِّيرًا، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه...»**. الحديث[2].

وأثنى النبي عليه؛ ففي الحديث أن رجلًا من المسلمين ورجلًا من اليهود تشاتما فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين - في قسم يقسم به - فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده عند ذاك فلطم اليهودي، فذهب اليهودي إلى النبي فأخبره.. فقال النبي ﷺ: **«لا تخيروني على موسى؛ فإن الناس يصعَقون فأكون أولَ من يُفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صَعِق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله»**[3].

لذا أقول: إن ذكر موسى عليه السلام وشعور النبي ﷺ أنه قريب منه لم يكن قاصرًا على القرآن المكي ولا الفترة المكية.

* * *

الدعوى الرابعة: استدل نولدكه على اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية في الفترة المكية وبدايات المدنية، بأن القرآن دعا العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه اليهود من موسى، وما تلقاه المسيحيون من عيسى؛ فلقد مر قوله[4]:

"أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى".

وأقول هنا:

أ- إنه صحيح أن النبي دعا العرب في مكة أن يؤمنوا بما تلقاه اليهود من موسى، وما تلقاه المسيحيون من عيسى:

---

(١) البخاري: بشرح ابن حجر، ك: أحاديث الأنبياء ح (٢٣٩٧)، ج٦ ص٤٢٩.
(٢) المصدر نفسه ح (٣٤٠٤)، ص ٤٣٦.
(٣) المصدر نفسه ح (٣٤٠٨) ص٤٤١.
(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦، وذكرته من قبل في سياقه.

فقد قال الله تعالى في آية مكية من سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

وقال في آية مكية من سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2]. ويقول بعدها: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآية[3].

لكن القرآن المكي لم يقف عند هذا الحد الذي ظنه نولدكه مؤيدًا لدعواه؛ بل أضاف أيضًا أن القرآن ذاته مصدق للكتب التي أنزلها الله قبله:

فقال تعالى في آياتٍ كلها مكية واصفًا القرآن بأنه: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ و﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. ووصف الرسول ذاته بأنه ﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4].

ب- لكن الذي سيصدم من يؤيد نظرية نولدكه هو أن القرآن المدني أيضًا واصل تَجْلية كل تلك الحقائق رغم زعم نولدكه التحول في المرجعية؛ إننا نجد فيه:

وجوب الإيمان بما أُنزل على موسى وعيسى وغيرهما من حملة وحي الله؛ قال تعالى في آيات مدنية: ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾. الآية. و﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾. و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.

(١) الآية: ٤٦.

(٢) الآية: ١٣.

(٣) الشورى: ١٥.

(٤) المواضع مرتبة هي: (٣٧ يونس و١١١ يوسف)، (٩٢ الأنعام)، (٣١ فاطر و٣٠ الأحقاف)، (٣٧ الصافات).

و﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[1].

كما ذكر الوحي المدني كذلك تصديق القرآن للكتب التي قبله؛ فقد استمرت الآيات المدنية في تأكيد هذه الحقيقة؛ فوُصِف القرآن في تلك الآيات بأنه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2] و﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾[3].

إن استمرار القرآن المدني في تجلية هذه الحقيقة من شتى جوانبها يكشف لنا خطأ نولدكه حين نظر لها على أنها موقف مرحلي أو (تكتيكي) من النبي في مكة لارتباطه باتخاذ اليهود والنصارى مرجعية له في تلك المرحلة كما زعم. ولو كان الأمر كما زعم لتغيَّر هذا الموقف عندما عارض اليهود النبي في المدينة ووقفوا في وجه دعوته وحرضوا عليه؛ لكن الحاصل هو أن القرآن استمر في المدينة مؤكدًا لهذه الحقيقة. وعليه فلا قيمة لاستدلال نولدكه بهذه الشبهة.

***

الدعوى الخامسة: استدل نولدكه بما قال إنه دعوة من القرآن المكي العربَ لسؤال أهل الكتاب عن صدق النبي ﷺ فقال[4]: إنه "دعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقية رسالته: الآية ٤٥ النحل و٧ الحج"[5].

ويتعلق بهذا أن نولدكه حكم بمكية الآيات التي تبين معرفة أهل الكتاب بالنبي ﷺ أو إيمانهم به؛ فقال[6]:

---

(١) الآيات هي: المائدة: ٥٩، البقرة: ٤، النساء: ١٣٦، آل عمران: ٨٤. وقريب منها البقرة: ١٣٦.

(٢) البقرة: ٩٧، وآل عمران: ٣، والمائدة: ٤٨.

(٣) البقرة: ٨٩.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦، وذكرته من قبل في سياقه.

(٥) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٣.

“Sur. 28, 52 deutet man ebenso falsch auf die Christen, welche zu Muhammed nach Medina kamen. Denn um andere Gründe zu verschweigen, wie konnte Muhammed nach seinen traurigen Erfahrungen mit den Juden noch sagen, daß die welche die Schrift empfangen hätten, an den Qoran glaubten?”

وترجمته:

"يجعل البعض[١] بشكل خاطئ الآية ٥٢: القصص[٢] والتي تليها تشيران إلى النصارى الذين قدموا على محمد ﷺ في المدينة؛ إذ إنه - ومع سكوتنا عن الأسباب الأخرى - [نسأل]: كيف كان في استطاعة محمد بعد خبرته السيئة مع اليهود أن يستمر في القول: إن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالقرآن؟".

وقال[٣] بشأن الآية ٢٠ من سورة الأنعام ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ الآية: إنها "قدمت من قِبل البعض بدون علة كافية على أنها مدنية، ويحتمل أن يكون ذلك بسبب ذكر أهل الكتاب".

وبسبب وجود لفظي (شهيد) و(شاهد)؛ قال[٤] الشيء ذاته عن الآية ٤٣ من سورة الرعد ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. والآية ٩ من سورة الأحقاف ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾.

فهو يرفض إذن أن تكون الآيات (التي فيها إيمان أهل الكتاب بالقرآن) مدنية.

وأقول فيما يتعلق بطلب القرآن من العرب سؤال أهل الكتاب:

أ- إن نولدكه يستشهد هنا بالآيتين: ٤٢ النحل[٥] و٧ الأنبياء؛ وهما وإن كانتا

(١) يشير في الهامش إلى مفسرين منهم: الطبري والرازي والزمخشري والبيضاوي والسيوطي في الإتقان.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦١.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٣-١٦٤، وص١٦٠.

(٥) هي في مصحفنا رقم (٤٣).

قد ختمتا بالطلب من العرب أن يسألوا أهل الكتاب: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ إلا أن بداية كل منهما ليس فيها ما يشير من قريب أو بعيد إلى أن يسأل العربُ أهل الكتاب عن صدق رسالة النبي ﷺ؛ لأن الجزئية التي طُلِب من العرب أن يسألوا عنها محددة هي: كون الأنبياء السابقين بشرًا؛ فالآيتان هما: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ و﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقد ذكر ابن كثير[1] قول ابن عباس: (لما بعث الله محمدًا رسولًا أنكر العرب ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أهل الكتب الماضية: أبَشرًا كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟).

وقال[2] كذلك بشأن آية الأنبياء: "أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشرًا أو ملائكة؟".

ب- وفي الحالة التي قام فيها المشركون بسؤال أهل الكتاب، ورواها ابن إسحاق[3] كسبب لنزول سورة الكهف؛ كان المشركون هم المبادرين بالسؤال دون أمر من النبي. وفيها أن المشركين سألوا في العهد المكي يهود المدينة عن صدق النبي ﷺ - فوجهوهم لأن يسألوه عن أهل الكهف

(١) تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٥٥١.

(٢) المرجع نفسه ج٣ ص١٦٩، وراجع كذلك: محمد البهي: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: الأنبياء ص١١.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص١٨٠-١٨١، وذكر السيوطي (لباب النقول في أسباب النزول ص٢٠٩) أن ابن جرير الطبري أخرج الرواية من طريق ابن إسحاق، وراجع تفسير ابن كثير ج٣ ص٧٠.

وذي القرنين وعن الروح فنزلت سورة الكهف، لكن ليس فيها أن ذلك السؤال كان بأمر من النبي.

ج- وحتى إن كان ذلك السؤال بأمرٍ من القرآن أو منه ﷺ، وكان على حقيقته، ومتعلقًا بصدقية رسالته؛ فإنه لا يصدر من منطلق اعترافٍ بمرجعية أهل الكتاب؛ وإنما يصدر من أنهم كانوا ينتظرون مبعثه؛ إذ قد تضافرت الروايات على ذلك، وبدليل أن جمهورًا عريضًا من المعاصرين له ﷺ هم الأوس والخزرج؛ آمنوا به ﷺ؛ وكان من دوافع هذا الإيمان تبشير اليهود بينهم بمقدم نبي قرب زمانه[1]. كما يصدر من أن بعض أهل الكتاب آمنوا بالنبي في مكة، وفق ما بينته بعض آيات القرآن المكي.

فلا ضير إذن في أن يساعد القرآن العرب - إن كان قد حصل طلب أصلًا - حتى يصلوا للحقيقة في شأنه ﷺ بأن يأمرهم أن يسألوا هؤلاء. وسؤالهم إنما هو لهذين الجانبين.

د- كما أنه على فرض ثبوته كذلك؛ فلا يمكن أن يكون الطلب من العرب سؤالَ أهل الكتاب دليلًا على أن النبي كان يتخذهم مرجعية؛ لأن المسؤولين إذا كانوا يهود المدينة؛ فلاشك أن في قدوم النبي الجديد إهدارًا لمرجعيتهم؛ فكيف يُجعل سؤالهم دليلًا عليها؟!. وإذا كان المسؤولون مؤمني أهل الكتاب؛ فكيف يتصور كون دينهم السابق مرجعية للنبي؛ برغم أنهم قد أسقطوا بأنفسهم كونه مرجعية لهم وحل محله في هذا: الإسلام؟

***

(١) من هذا القبيل ما رواه ابن إسحاق (السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣٥٥) عن ابن عباس أن معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور، أخا بني سلمة، قالا ليهود: (يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته). وفي المصدر نفسه أيضًا (ص٣٦٨) أن معاذًا قال لبعض اليهود: (اتقوا الله!! فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته). وسيأتي تفصيل هذا في الفصل التالي.

وفيما يتعلق بافتراض نولدكه مكيةَ كل الآيات التي فيها أن بعض أهل الكتاب يعرفون النبي ويشهدون له أو يؤمنون به؛ أقول:

إن تخطيء نولدكه لأقوال بعض علمائنا بمدنية الآيات المذكورة قد لا يجلب كثير خلاف معه، ما دام حكمه بمدنية آية أو مكيتها مبنيًّا على رواية صحيحة أو قاعدة منضبطة، وليس للفكرة المسبقة دخل فيه؛ لكن الذي حدث أن نولدكه تخفى وراء الحكم بمكية هذه الآيات ليدعم دعواه الباطلة أن النبي ﷺ كان يتخذ أهل الكتاب مرجعية له في مكة، ومن ثم أعلن (أي النبي) أنهم يعرفونه ويؤمنون به؛ لكن النبي بعد أن كذَّبه اليهود في المدينة؛ فلا ينتظر منه إذن أن يستمر في القول إنهم يؤمنون بالقرآن أو يعرفون النبي؛ فلقد مر قول نولدكه: "كيف كان في استطاعة محمد بعد خبرته السيئة مع اليهود أن يستمر في القول (!!): إن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالقرآن؟".

إنه هنا وبغض النظر عن مكية أو مدنية الآيات محل الخلاف؛ وبرغم أني أميل إلى كونها مكية كما ذهب نولدكه؛ فإن ذكر القرآن حقيقة أن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي لم يحصل في مكة فقط كما يدعي؛ بل حصل في المدينة أيضًا:

١- أما حصوله في مكة فهو في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾[1] الذي رجح نولدكه القول بمكيته، وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[2]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[3].

لكن حصول هذا في القرآن المكي لا يفسر أبدًا من منطلق نظرية نولدكه المزعومة؛ لأنها تهدف إلى القول بأن النبي ﷺ كان يتخذ أهل الكتاب مرجعية له في مكة،

---

(١) القصص: الآيات ٥٢-٥٥.

(٢) الإسراء: ١٠٧-١٠٩.

(٣) سبأ: ٦.

ومن ثم أعلن (أي النبي) أنهم يعرفونه ويؤمنون به. بل يفسر بروايات صحيحة تربط معظم هذه الآيات بأحداثٍ حقيقية؛ آمن فيها بعض أهل الكتاب بالنبي في مكة[1].

إن نولدكه يريد أن يفترض فكرة ذهنية لدى النبي هي التي أنتجت هذه الآيات؛ لكن الحقيقة هي أن تنزيل هذه الآيات كان مرتبطًا بحوادث واقعية بإسلام بعض أهل الكتاب.

٢- وحصوله في المدينة ورد في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2] و﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الآية[3] و﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[4]، و﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

---

(١) قال ابن إسحاق (السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٢٤٤-٢٤٥، وراجع ابن كثير: التفسير ج٣ ص٣٨٠) بشأن الآيتين ١٠٧-١٠٩: الإسراء اللتين ذكرتا أعلاه: "ثم قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلًا، أو قريب من ذلك، من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألته عما أرادوا؛ دعاهم رسول الله إلى الله، وتلا عليهم القرآن؛ فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه؛ اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال؟ ما نعلم ركبًا أحمق منكم. أو كما قالوا. فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم؛ لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرًا". وأقول: لا ينبغي لأحد أن يستبعد حصول هذا؛ لأن هؤلاء النصارى قد بلغهم خبر النبي عن طريق مهاجري الحبشة، وقد صرحت الرواية بذلك.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) البقرة: ١٤٦، بالإضافة إلى الأنعام: ٢٠، التي مدنيتها محل خلاف.

(٤) البقرة: ٨٩.

(٥) الصف: ٦.

ومدنية هذه الآيات دليل على استمرار مواجهة أهل الكتاب بعرض حقيقة أنهم يعرفون النبي، وأن هذا لم يحصل في مكة فقط؛ وإنما حصَل في المدينة أيضًا؛ لأن الأمر يتعلق بحقائق ثابتة - لا يسع نولدكه أو غيره تجاهلها - عن معرفة[1] أهل الكتاب للنبي.

٣- وإذا كانت هذه الآيات المدنية تواجه بتلك الحقيقة أهل الكتاب الذين لم يدخلوا في الإسلام؛ فإنه توجد أيضًا آيات مدنية أخبرت أن بعض أهل الكتاب آمنوا بالنبي محمد ﷺ في المدينة؛ منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية، وقوله تعالى بعد أن أخبر أنه أعد للكافرين من اليهود عذابًا أليمًا: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الآيات[3].

إن هذه الآيات ترتبط بإسلام بعض أهل الكتاب في المدينة؛ فلقد أسلم منهم

(١) تروي السيدة صفية بنت حيي بن أخطب (ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٣٢٩-٣٣٠) أنه عندما نزل رسول الله قباء في بداية الهجرة ذهب إليه أبوها وعمُّها أبو ياسر بن أخطب مبكرَين، فلم يرجعا حتى غربت الشمس وبهما غم وهم شديدان. قالت: فسمعت عمي يقول لأبي: أهُوَ أهُوَ؟ قال أبي: نعم والله؛ قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت!! هذا وقد حاول سيد يهود بني قريظة؛ وهو: كعب بن أسد إقناع قومه أن يعلنوا ما يعرفونه من صدق النبي بقوله لهم: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه لَلَّذِي تجدونه في كتبكم... لكنهم أبوا. (راجع: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي المجلد١ ص٢٨١). وقال عبد الله بن صوريا (أحد أحبار اليهود) عن إخوانه منهم (ابن هشام: ج٢ ص٣٦٩): أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك.

(٢) الآيات مرتبة هي: البقرة: ١٢١، آل عمران: ١٩٩، النساء: ١٦٢.

(٣) المائدة: ٨٢، ٨٣، وأيضًا ٨٤، ٨٥، ٨٦.

عبد الله بن سلام أحد كبار أحبارهم، بعد أن عرف رسولَ الله بصفته واسمه وزمانه ودَعا عمته: خالدة بنت الحارث، وأهل بيته فأسلموا. كما أسلم مخيريق بن الفطيون الذي كان من أحبار يهود بني ثعلبة المتعنتين مع الرسول. وكان إسلام هذين في بداية مقدم النبي المدينة. وأسلم يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب من يهود بني النضير. وأسلم ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد من بني قريظة، وأسلمت ريحانة بنت عمرو بن خنافة من بني قريظة كذلك. وأسلم محيصة بن مسعود وأخوه حويصة، وأسلمت صفية بنت حيي بن أخطب التي تزوجها النبي وكان أبوها من أشد اليهود عداوة للنبي والمؤمنين. كما أسلم غلام منهم عاده الرسول في مرض موته، ودعاه للإسلام فنظر إلى أبيه فقال له: أطع أبا القاسم. كما أسلم من أولاد بني قريظة الذين كانوا صغارًا عند قتل آبائهم: عبد الرحمن بن الزبير وعطية القرظي ورفاعة بن شموئيل القرظي. بالإضافة إلى بعض النصارى مثل الجارود بن عمرو من بني عبد القيس.

فكيف يتجاهل نولدكه إيمان كل هؤلاء، ليزعم أنه "كيف كان في استطاعة محمد بعد خبرته السيئة مع اليهود أن يستمر في القول (!!): إن الذين أوتوا الكتاب آمنوا بالقرآن؟".

كما أن نولدكه ذاته اختار[1] القول بمدنية آية، فيها ذكر لاتباع بعض أهل الكتاب للنبي ﷺ، وهي الآية ١٥٦ [2] الأعراف ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وذلك بسبب ورود كلمات: (الأُمِّيَّ) (التَّوْرَاةِ) (الإِنْجِيلِ) التي لا ذكر لها في القرآن المكي، و(عَزَّرُوهُ) و(نَصَرُوهُ) التي تشير إلى الأنصار.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٩-١٦٠.

(٢) هي في مصحفنا رقم (١٥٧).

إننا نصل هنا إذن إلى أنه: كما أن القرآن المكي فيه أن أهل الكتاب يعرفون النبي، وأن بعضهم آمنوا به، وأن ذلك يرتبط بوقائع ثابتة ولا ينطلق من نظرية نولدكه المزعومة؛ فإن القرآن المدني فيه هذا أيضًا؛ وعليه فقد تجلى كذب دعوى نولدكه ورود ذلك فقط في القرآن المكي.



المبحث الثاني
ادعاءاته المتعلقة ببدايات العهد المدني

الدعوى الأولى: ادعى نولدكه أن القرآن في بدايات العهد المدني لم يهاجم اليهود.

فعند حديثه عن الآية ٣١ المدثر ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾؛ رجح أنها – ما عدا خاتمتها: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ تنتمي لبداية العهد المدني، مستدلًّا على ذلك بما ذكر في الآية من طوائف أربعة قُسّم إليها البشر في المدينة؛ هم: (الذين كفروا)، و(الذين أوتوا الكتاب)، و(الذين آمنوا)، و(الذين في قلوبهم مرض). معـلِّلًا ذِكر (الذين أوتوا الكتاب) إلى جانب المؤمنين؛ بأن محمـدًا ﷺ كان ما يزال لديه فكرة طيبة عن اليهود، وكان يضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة، لكنه عرفهم فيما بعد على أنهم أعدى أعدائه".

يقول[١]:

"In diesen Teil ist ein Abschnitt aus weit späterer Zeit eingesprengt, nämlich V. 31 - 34, während der Schluß وما هو إلا ذكرى للبشر *vielleicht dem älteren Bestande angehört und die ursprüngliche Fortsetzung von V.30 gewesen ist. Die Interpolation welche vielleicht schon vom Propheten herrührt ist jedenfalls erst medinisch. Denn wir finden in ihr schon die vier Klassen von Menschen unterschieden, mit denen es Muhammad in Medina zu tun hatte*

1) die Juden ("die, welche die Schrift erhalten haben");

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٨٨-٨٩.

2) die Muslime ("die, welche glauben;"

3) die Zweifler[1] "die, in deren Herzen Krankheit ist."

4) die Götzendiener.

Doch mögen sie immerhin aus der ersten medinischen Zeit sein, da er in ihnen noch der Juden freundlich gedenkt und sie mit den Gläubigen in eine Linie stellt, während er dieselben bald als seine bittersten Feinde erkannte".

وترجمته:

"أُدخل في هذا القسم (يقصد القسم الأول من سورة المدثر) مقطع يعود إلى وقت متأخر، وتحديدًا الآيات من ٣١ إلى ٣٤[2]، في حين أن التذييل (وما هو[3] إلا ذكرى للبشر) ربما ينتمي إلى الجزء الأساس من السورة، ويكون تكملة للآية ٣٠. هذه الإضافة - التي ربما أضيفت من النبي ذاته - هي على أية حال مدنية؛ وذلك لأننا نجد الأصناف الأربعة المختلفين من البشر الذين وجب على محمد أن يتعامل معهم في المدينة:

١- اليهود "الذين أوتوا الكتاب"

٢- المسلمين "الذين آمنوا"

٣- الشكاك "الذين في قلوبهم مرض"

٤- عباد الأصنام "الكافرون".

(١) استخدم نولدكه كلمة *die Zweifler* الألمانية لترجمة: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وكذلك في كل مرة يرد فيها ذكر (المنافقين). وكان الأولى به أن يستخدم كلمة: *die Heuclher* لأنها تتضمن معنى الخداع، وهو من أهم مميزات النفاق، كما أن كثيرًا من المستشرقين الألمان قد سبقوه إلى استخدامها؛ لكنه انتقدهم وقال: إن استخدامها غير صواب؛ لأن معظم الناس الذين وصفوا في القرآن والسنة بالمنافقين ليسوا مخادعين حقيقة؛ بل إن قلوبهم لم تقتنع بالإسلام، والظروف وحدها هي التي أجبرتهم على اعتناقه.. راجع تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٨٨ هامش٥. وسأعالج هذه الجزئية في مكانها المناسب من دراسة لاحقة إن شاء الله.

(٢) وفقًا لترقيم مصحف فلوجل جعلت أربع آيات. وهي في مصاحفنا رقم ٣١.

(٣) كذا.. والصواب: (هي).

ومن المحتمل أن تكون هذه الآيات من الفترة المدنية الأولى حينما كان محمد لديه فكرة طيبة عن اليهود، وكان يضعهم والمؤمنين في صف واحد؛ لكنه ما لبث أن نظر إليهم فيما بعد على أنهم ألد أعدائه".

وقال[١]: "لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل".

هذا بالإضافة إلى أن نولدكه يتحدث عما يشبه أن يكون ربطًا منه بين عداوة اليهود للنبي، وإنكار القرآن المدني عليهم، ويحدد بداية تلك العداوة بما بعد غزوة أحد[٢] بما يعني في النهاية أنه قبل ذلك لم يكن هناك إنكار عليهم.

* * *

إن حديث نولدكه عن أمل النبي في اليهود ووضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة سأناقشه بعد قليل؛ وأقول هنا:

أ- بشأن دعواه مدنية آية المدثر مستدلًّا بذلك على أن القرآن في بدايات العهد المدني لم يهاجم اليهود؛ فإنه ليس لدى نولدكه دليل - من رواية أو اجتهاد صحيحين - على أن هذه الآية تنتمي لأوائل العهد المدني. فالروايات تجعلها مكية، فقد ذكر ابن جرير الطبري في تفسيرها بسنده عن عكرمة أن الآيات من: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ - حتى بلغ - ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة. كما ذكر ذلك ابن هشام. وذكر السيوطي عن ابن إسحاق أن أبا جهل قال يومًا: يا معشر قريش!! يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددًا؛ أفيعجز مائة رجل منكم على رجل منهم؟؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ الآية. وقريب من هذا لدى الرازي[٣].

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٩.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩٢.

(٣) راجع: ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٦٣. والسيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ٣٥٧، والرازي: التفسير الكبير المجلد ١٥ الجزء ٣٠ ص٨٤٦-٨٤٧.

- وما استدل به على مدنيتها من ذكر هذه الطوائف الأربعة فليس ثمة ارتباط بين الأمرين؛ إذ لم يقتصر ذكر المؤمنين والكافرين وأهل الكتاب على القرآن المدني؛ فذِكْر المؤمنين والكافرين في القرآن المكي أظهر من أن ندلل عليه. وذكرُ أهل الكتاب ورد في: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ الآية. و﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ الآية[1].

ب- ودعواه هنا الارتباط بين ذكر أهل الكتاب في آية وكونها مدنية يعارضها هو نفسه في موضع آخر حين رفض قول بعض العلماء المسلمين[2] عن آيات: إنها تعد مدنية معللين ذلك بذكر أهل الكتاب فيها؛ واعتبر هذا السبب علة غير كافية للحكم بمدنيتها؛ قال[3]: "قُدمت الآية ٢٠ من سورة الأنعام[4] من قِبل البعض بدون علة كافية على أنها مدنية، ويحتمل أن يكون ذلك بسبب ذكر أهل الكتاب".

وقال[5] الشيء نفسه عن الآية ٤٣ من سورة الرعد[6]، والآية ٩ من سورة الأحقاف[7]؛ بسبب وجود لفظي: (شهيد) و(شاهد).

وأتساءل هنا: كيف تكون العلة الواحدة مرة مقبولة وكافية للتوصل إلى حكم معين؛ ومرة أخرى غير مقبولة ولا كافية لأن يُتوصل بها إلى الحكم ذاته؟

- أما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هنا فلا يشير بالضرورة إلى منافقي المدينة؛ إذ إنهم كانوا مُحددي المعالم بارزي السمات ذوي تكتل خاص، وظهروا في المدينة بعد الهجرة عند بروز الإسلام كقوة لم يقدروا على مواجهتها علنًا، فاختاروا طريق الدس الخفي.

---

(١) العنكبوت: من الآيتين: ٤٦، ٤٧.

(٢) السيوطي: الإتقان ٢٠، ٢٣.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦١.

(٤) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ﴾ الآية.

(٥) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٣-١٦٤، وص١٦٠.

(٦) ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

(٧) ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ وهي رقم (١٠) في مصحفنا.

والذي ورد هنا هو وصف: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ولـيس: (المنافقون).. والفارق بينهما واضح.؛ إذ إن الأول أعم يشمل المنافق وغيره ممن انطوى قلبه على شك غير مخطط له، لم يخفه صاحبه.. وهؤلاء ما اقتصر وجودهم على العهد المدني، بل يمكن أن يوجدوا في المرحلة المكية. أما المنافق فهو يسير وفق خطة يظهر فيها - لغرضٍ ما - الإيمان ويبطن الكفر - لا الشك - ويجتهد في إخفاء كفره، فلا يظهر إلاّ رغمًا عنه.

وعلى ذلك فلا يمتنع عقلًا وجود أفراد في مكة لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وأثرت فيهم حملات التشكيك من جانب المشركين؛ فاضطرب إيمانهم. وقد ألفينا ذكرًا لبعض أخبارٍ عن مرض قلوبهم فارتدوا إثر حادثة الإسراء[1]. وقد يضم إلى هؤلاء أيضًا فريق من المشركين لم يكونوا جازمين بكذب رسالة النبي، بل كانوا شاكين فيه؛ يقول الرازي: (ويجوز أن يُراد الشك. لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب)[2].

لهذا كله فإني أرفض دعوى نولدكه أن الآية تنتمي إلى الفترة المدنية الأولى؛ وبالتالي يسقط احتجاجه بأن ما ادعاه فيها من مضامين تنتمي كذلك إلى نفس الوقت.

ج- لكن بغض النظر عن هذه الجزئية.. أتساءل: هل تنطوي الآية فعلًا على ما يفيد أن النبي كان لديه في ذلك الوقت فكرة طيبة عن اليهود، وأنه كان يضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة كما ادعى نولدكه؟ ستتبين الأمر:

إن الآية تبين أن التأثير المترتب على ذكر عدد خزنة النار سيكون على ضروب أربعة:

أولها: فتنة الكافرين؛ وهذا ما حدث بالفعل؛ فقد رُوي أنه لما نزلت قال أبو جهل:

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٣ ص٨١ رقم (٤٤٥٨)، والسنن الكبرى ج٦ ص٣٧٧ رقم (١١٢٨٣).

(٢) التفسير الكبير مجلد ١٥ ج٣٠ ص٨٥١.

أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين!. فقال المسلمون: ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين!.. فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[١].

ثانيها: استيقان أهل الكتاب[٢] لأنهم كانوا يقرؤون التوراة والإنجيل، وفيها: أن عدد الزبانية هو هذا القدر، ولكنهم ما كانوا يعولون على ذلك كل التعويل لعلمهم بتطرق التحريف إلى هذين الكتابين، فلما سمعوا ذلك من رسول الله قوي إيمانهم، واستيقنوا أن ذلك العدد هو الحق والصدق[٣].

كما أن هذا العدد "لما كان موجودًا في كتابهم؛ وأخبر عليه السلام على وفق ذلك من غير سابقة دراسة وتعلم؛ فظهر أن ذلك حصل بسبب الوحي؛ فالذين آمنوا بمحمد من أهل الكتاب يزدادون به إيمانًا"[٤].

ثالثها: ازدياد إيمان المؤمنين، وذلك بسبب أن "كل قول من ربهم يزيدهم إيمانًا؛ لأن قلوبهم مفتوحة موصولة"[٥].

رابعها: عدم ارتياب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنين؛ فلا يعاودهم الشك مرة أخرى.

خامسها: أن الذين في قلوبهم مرض والكافرين سيتساءلون قائلين: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

إن جملة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ على أي وجه فهمت عليه؛ لا تشهد لنولدكه في دعوى أن الآية تحمل فكرة طيبة عن اليهود، وتجعلهم مع المؤمنين جبهةً واحدة:

(١) الرازي: التفسير الكبير المجلد ١٥ الجزء ٣٠ ص٨٤٦-٨٤٧، ونفس المعنى لدى السيوطي: لباب النقول ٣٥٧، وابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٩١.

(٢) ليس اليهود فقط كما قال نولدكه.

(٣) نفس المرجع ٨٥٠.

(٤) نفسه.

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن مجلد٦ ص٣٧٥٩.

فإذا فهمنا منها أنها تعني: الذين آمنوا بالنبي منهم؛ كما ذكر الرازي؛ فإن الحديث إذن ليس عن طرفين في جبهة، وإنما عن طرف واحد؛ ضمّ إلى جانب المؤمنين؛ مَن لحق بهم من أهل الكتاب.

وإذا فهمنا منها أنها تعني كافة أهل الكتاب: من آمن منهم ومن لم يؤمن؛ فإننا نلاحظ في الآية أثرين مختلفين لذكر عدد ملائكة النار؛ أحدهما ينفي الارتياب، وهو مشترك ومتحقق لكل من أهل الكتاب والمؤمنين: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. أما الآخر فهو يُثبِت. لكن الذي يثبته للمؤمنين غير الذي يثبته لأهل الكتاب؛ فهو يثبت لأهل الكتاب: (الاستيقان): ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾؛ ويثبت للمؤمنين (ازدياد الإيمان): ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾. فلئن كان الفريقان قد جاءا في جملة واحدة؛ فإن الوصف بالإيمان المعهود المعروفِ متعلَّقُه؛ لم يكن إلا للمؤمنين؛ أما وصف الاستيقان في الآية فقد لا يتعلق بغير عدد خزنة النار، ولا يترتب عليه عندئذ الحكم بالإيمان؛ لأن المرء قد يكون مستيقنًا من أمر معين، لكنه لم يؤمن به بعد. فلا يقبل إذن القول: إن الآية تضعهما في جبهة واحدة.

د- وأتساءل مرة أخرى: لماذا تغافل نولدكه عن آيات كثيرة في العهد المكي، وأخرى في بدايات العهد المدني؛ تعارض أهل الكتاب، وتفضح أخطاءهم، واعتمد فقط على آية وحيدة هي التي معنا، بعد أن نزعها من سياقها في سورة مكية؟

ومعارضة القرآن لليهود في العهد المكي تحدثت عنها فيما سبق. أما معارضته لهم في بدايات العهد المدني فإنه مما لا شك فيه أن سورة البقرة أولُ المدني؛ وإذا كان علماؤنا عدوها كذلك[1] فإن نولدكه لا يجادل في هذا، بل يقر بصوابية قولهم[2]؛ فهو يجعلها الأولى في ترتيب السور المدنية[3]، ويقول عنها[4]: إنها

(١) السيوطي: الإتقان ص١٤ الواحدي أسباب النزول. ص٢٥ وابن كثير: التفسير ج١ ص٣٤.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٣.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ صX.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٣.

"أقدم تلك السور؛ لأن الجزء الأكبر لها ينتمي للعام الثاني من الهجرة وتحديدًا لفترة ما قبل غزوة بدر".

أقول: إن في سورة البقرة هذه عددًا كبيرًا من الآيات التي تفضح بعض صفات اليهود وفعالهم وترد عليهم؛ فتذكر عدم التزامهم بالبر الذي يدعون الناس إليه، وعدم شكرهم نعم الله عليهم في تاريخهم الطويل، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير الحق، ومخالفتهم لموسى رسول الله إليهم وتمردهم عليه، وقسوة قلوبهم بحيث صارت أشد من الحجارة، وتحريف بعضهم كلام الله وكفرهم ببعضه، وادعائهم عليه تعالى ما لم يقله، واتخاذهم العجل، وتشبثهم بالدنيا وحرصهم عليها، وعدائهم لجبريل ونقضهم العهود. كما تذكر عقاب الله لهم، حيث ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[1]. وورد هذا في آيات كثيرة من أوائل العهد المدني منها:

الآيات ٧٥-٨٢[2] من سورة البقرة التي تبين أنه لا ينبغي أن يطمع المؤمنون في إيمان اليهود، حيث إنهم لم يكونوا أوفياء للوحي الذي أنزل إليهم، فكيف يتوقع إيمانهم بالوحي الذي أنزل على غيرهم؟ وتصفهم الآيات بكتمان معرفتهم صحة نبوة النبي، وتوعدت الذين حرفوا كتاب الله منهم بالويل، ورفضت دعواهم قلة مدة بقائهم في النار.

والذي يتوقع من أي باحث موضوعي يتناول هذه الآيات - التي تعد من أوائل المدني - أن يستوقفه ما فيها من هجوم على اليهود؛ فلا يتسرع في ادعاء أن القرآن

---

(١) راجع الآيات ٤٤، ٥١، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٧١، ٧٤، ٧٩، ٨٠-١٠٥ البقرة، ٤٦ النساء، ٨٨ البقرة.

(٢) من الآيات التي حددها، قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ و﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

المدني في بداياته لم يهاجم اليهود؛ لكن نولدكه لم يفعل؛ فقد اكتفى بأن أورد عن هذه الآيات جملة إذا ترجمناها إلى العربية فلن تزيد عن سبع كلمات هي قوله[1]:

"V. 70–76 [2] reden die Muslime an, aber mit Bezugnahme auf die Juden"

وترجمته:

"إنها تخاطب المسلمين لكنها تشير إلى اليهود".

ويا له من جديد طريف ذلك الذي وضعت أيدينا عليه جملته هذه!!

كما أن الآيات من ٨٣-٩٣[3] نسبت إليهم التظالم فيما بينهم. ووصفتهم بأنهم: يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وأنهم باعوا الآخرة واشتروا الدنيا، وتوعدت الذين فعلوا ذلك منهم بالخزي في الدنيا وأشد العذاب يوم القيامة، واتهمتهم بتكذيب فريق من أنبياء الله وقتل فريق، وبينت أن لعنة الله حقت عليهم بوصفهم كافرين، وأنهم باءوا بغضب من الله على غضب، وأنهم من بعد ما جاءهم موسى بالبينات اتخذوا العجل، الذي تمكن حبه من قلوبهم بسبب كفرهم.

كما أن بدايات القرآن المدني قد ردت عليهم في جوانب شتى من عقائدهم.

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٦.

(٢) هذا هو ترقيم نسخة القرآن التي رجع إليها نولدكه، نشر (فلوجل)، وهي تقابل ترقيم نسختنا الذي أشرت إليه أعلاه.

(٣) منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ و﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ و﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ و﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ و﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

فعلى سبيل المثال مسألة الآخرة؛ حيث كان اليهود يتصورون أن الجنة لهم وحدهم باعتبارهم جنسًا مختارًا؛ فرد عليهم القرآن في هذا؛ قال تعالى في هذا الشأن مخاطبًا اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وحكى عنهم ورد عليهم؛ قال: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ و﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

كذلك كانت سورة آل عمران[٢]؛ فقد وصفت اليهود بـ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٣]، وعابت عليهم إعراضهم عن تحكيم كتاب الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[٤].

هـ- وأود أن أسجل لنولدكه هنا أنه لم يخطئ فيجعل الآيات المذكورة من سورة البقرة مدنية متأخرة حتى تسلم له نظريته؛ وإنما ترك الحكم عليها، فأظهرت لدى البحث غير السطحي نقطة ضعف في نظريته... لكنه في موضع آخر وقع في هذا الخطأ، حين عمد إلى آيات تعارض اليهود، نزلت في بدايات العهد المدني فحدد لها زمن نزول متأخر.

أمامي مثال أطرحه الآن: لقد وجد نولدكه نفسه أمام آيات سورة المائدة التي تتناول تهَيُّبَ اليهود من دخول الأرض المقدسة؛ وتصفهم بالفسق لاجترائهم على الله

(١) الآيات مرتبة: ٩٤، (٨١،٨٠)، (١١١-١١٢ البقرة).

(٢) رجح عندي أن بدايات سورة آل عمران لم تتأخر في النزول للعام التاسع، راجع الملحق الخاص بذلك في نهاية هذا الجزء.

(٣) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢].

(٤) آل عمران: الآية ٢٣.

ورسوله: موسى[١]؛ من هذه الآيات: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[٢]؛ وهي تفضح سلوك بني إسرائيل كما هو واضح.

فماذا يفعل نولدكه وقد وردت هذه الآية في الروايات المتعلقة بأحداث بدر؛ أي في بدايات العهد المدني الذي يدعي نولدكه أن القرآن لم يهاجم فيه بني إسرائيل؟ هل يترك المسألة تمر فتُهدم دعواه (أن بدايات القرآن المدني لم تهاجم اليهود)؟

لقد حدد نولدكه[٣] لهذه الآيات "زمن نزول متأخر هو زمن نزول معظم سورة المائدة: السنة السادسة أو السابعة من الهجرة"، وقال: "إن ذلك يُستدل عليه بآية أخرى في نفس المجموعة[٤] وهي: ﴿إِنَّمَا جَزَـٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ الآية[٥] التي دعت لحرب سافرة مفتوحة قاسية.

"unverkennbar offenen und rücksichtslosen Krie"

وذلك حصل بعد طرد بني قينقاع (في شوال ٢هـ) وقبل الغزوة الأخيرة ضد آخر قوة ليهود العرب في خيبر(جمادى الأولى ٦ هـ)".

ورغم أنه يقول: إن حكمه هذا ظني[٦] *vermutlich* إلا أنه قال[٧]: " لا يجوز لنا أن نكترث *brauchen wir uns nicht zu kehren* بالروايات التي تجعل الآية ٢٧ من سورة المائدة[٨] مذكورة بالفعل في الحديث عن غزوة بدر".

---

(١) الآيات من ٢٠-٢٦.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٩-٢٣٠.

(٤) هو يتناول الآيات ١٢- ٣٤ من: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗا﴾ الآية. إلى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية.

(٥) المائدة: ٣٣.

(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٩.

(٧) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٢٩ هامش٩.

(٨) هي في مصحفنا رقم (٢٤).

و هكذا نرى أنه، ومن أجل حكم ظني؛ وفق وصفه هو له؛ أطاح نولدكه هنا وبغير اكتراث - كما قال - بالروايات الصحيحة التي جاءت في البخاري(١) وابن هشام(٢) والواقدي(٣) والطبري(٤) وابن سعد(٥). كل ذلك من أجل أن يتهرب من وجود قرآن في أوائل الفترة المدنية فيه هجوم على اليهود(٦).

- ودليله الذي قدمه لا يقول به أي دارس مبتدئ لعلوم القرآن؛ فكون معظم السورة نزل متأخرًا؛ وكون علمائنا يقولون: إن المائدة "مدنية بإجماع، نزلت منصرف رسول الله من الحديبية"(٧)؛ لا يلزم منه أن تكون كلها نزلت مرة واحدة، ولا يعني بحال أن ذلك ينطبق على كل آياتها؛ بل يستثنى منه ما ورد نزوله منفردًا؛ وقد حصل هذا لبعض آياتها(٨)، وذلك مثل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ الآية؛ نزلت يوم عرفة عام حجة الوداع، ومثل آية التيمم(٩).

كما يستثنى ما ورد في روايات صحيحة تربطه بأحداث سابقة على وقت نزول معظم السورة، وإن لم تنص على زمن نزوله(١٠)؛ وذلك مثل الآية التي معنا. وقد

---

(١) فتح الباري ج٧ كتاب المغازي ص ٢٨٧ حديث رقم (٣٩٥٢)، وج٨ كتاب التفسير ص٢٧٣ حديث (٤٦٠٩).

(٢) السيرة النبوية: ج٢ ص٤٠٧.

(٣) المغازي ٤٧.

(٤) التاريخ ج٢ ص٤٣٤.

(٥) الطبقات ج٣ ق١ ص١١٥.

(٦) لاحظ ما ورد في سورة البقرة من هجوم على اليهود، وهي كذلك نزلت أوائل الفترة المدنية.

(٧) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن المجلد٣ ج٦ ص٣٠.

(٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: كتاب التيمم ج١ ص٤٣١ حديث (٣٣٤)، وكتاب التفسير ج٨ ص٢٧٠-٢٧٢ الأحاديث: (٤٦٠٦)، (٤٦٠٨)، السيوطي: الإتقان ص٢٧، ٣٠، ٣١ والواحدي أسباب النزول. ص١٥٦-١٥٨، ١٦٠ وغيرها.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الآية.

(١٠) عند دراسته للآيات من ٢٣-٣٨ من المائدة: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية إلى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية؛ وضمنها الآيات التي تهاجم اليهود؛ =

تضافرت على ذلك الروايات الصحيحة كما مر. والأمر هنا مثل الأمر في سور كثيرة ينزل معظمها في زمن، ثم يوضع فيها بأمر النبي آيات تنزل فيما بعد أو كانت قد نزلت من قبل.

- أما استشهاده على حكمه بتأخر نزول تلك الآيات بوجود آية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ التي وصفها بأنها دعت لحرب سافرة مفتوحة قاسية؛ فلي معه وقفتان:

الأولى: إن تأخر نزول آية جزاء المحاربين، وهي رقم ٣٣ في السورة لا يستلزم على الإطلاق تأخر نزول آيات عن اليهود في نفس السورة؛ لا من حيث الرواية الصحيحة، ولا من حيث الترابط المنطقي.

الثانية: إن الحرب السافرة المفتوحة التي قال: إن آية الحرابة دعت إليها لا وجود لها إلا في ذهن نولدكه؛ وقوله هذا يحتمل أحد أمرين:

- أن يكون قد توقف عند كلمة (يحاربون) الواردة في الآية؛ فخلط بين الحرب؛ ولا شأن للآية بها[1]؛ والحرابة، والآيةُ نَصٌّ فيها.
- أو أن يكون قد فهمها على وجهها الصحيح، لكنه تكلم عن حرب سافرة مفتوحة بغرض أن يصطنع بينها وبين مواجهة الآيات لليهود ارتباطًا ذهنيًّا؛ ليوهم القارئ أن هذه المواجهة إحدى صور تلك الحرب؛ وهذا الارتباط يدعم نظريته.

وكلا الأمرين ليسا في صالح دعواه؛ فالأول مرده لخطأ لغوي وفقهي لم يفرق نولدكه فيه بين (حرب) و(حرابة)، ولا نحتاج في بيانه لمزيد إيضاح. والثاني منشؤه عدمُ التدقيق بشأن مناسبة نزول هذه الآية؛ إذ إنها - كما رأى جمهور العلماء -

= قال المستشرق هيرشفيلد: إنها مكية *New Researches into the Composition and Exegesis of the Qoran* ص٧١؛ لكن ذلك بطبيعة الحال لا يعجب نولدكه؛ لأن فكرته التي تسيطر عليه: أن القرآن في بداية العهد المدني لم يهاجم اليهود؛ فكيف يقبل أن يكون ذلك الهجوم مكيًّا؟

(١) بل هناك آيات أخرى تفصل أحكامها.

نزلت[1] في العُرَنِيِّين[2] وهم قوم نزلوا المدينة سنة ست من الهجرة، وكانوا مرضى فآواهم رسول الله شهرًا حتى صَحُّوا فقابلوا الإحسان بإساءة؛ فقتَلوا راعي إبل النبي التي طعموا منها، وسرقوها ومضوا، وأخافوا الناس في الطريق فنزلت الآية. فالحقيقة أن الآية لم تَدْعُ لحرب، وإنما فرضت حد الحرابة؛ ولا يصح استدلال نولدكه بها على تأخر نزول آيات مواجهة اليهود في سورة المائدة. ولا ندري كيف غاب هذا عن زعيم المستشرقين الأكبر، كما وصفه جولد تسيهر!

- كما أن في سورة المائدة ذاتها آيات تواجه اليهود؛ فقد جاء في صحيح مسلم[3] أن اليهود غيروا حكم رجم الزاني، فمَرّ النبي على رجل يهودي مُحَمّمًا مجلودًا فسألهم: «**هل هذا حكم الله في التوراة؟**». فأجابوا كاذبين: نعم؛ فسأل النبي واحدًا من علمائهم قائلًا: «**أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟**». قال: لا؛ نجده الرجم... إلخ الحديث، الذي فيه كذلك، أن اليهود كانوا يقولون: ائتوا محمدًا، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فنزل قوله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟

---

(١) البخاري: كتاب التفسير ج٨ ص٢٧٣-٢٧٤ حديث (٤٦١٠)، والواحدي: أسباب النزول ص١٥٩-١٦٠، والسيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ص١٢٥، وابن كثير: التفسير ج٢ ص٤٧-٥٠، والقرطبي: الجامع.. ج٣ ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) قال ابن كثير: (التفسير ج٢ ص٤٧): (عرينة من البحرين).

(٣) بشرح النووي المجلد٤ ص٢١٠ رقم (١٧٠٠)، وراجع: الواحدي: أسباب النزول ص١٦٠- ١٦٢.

مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1].

ولا يتصور تحاكم اليهود للنبي إلا قبل الصدام العسكري معهم، وذلك في بداية العهد المدني، وقد حددت بعض روايات الوقت صراحة؛ فأبو داود[2] يجعله (حين قدم رسول الله المدينة).

ونولدكه نفسه يرى بشأن الآيات من ٤٥ إلى ٥٥ من سورة المائدة[3] - وفيها الآيتان المذكورتان وهجومهما اللاذع على اليهود - أنها قد تكون أقدم من الصدام مع بني قريظة يقول[4]:

"إن الآيات من ٤٥-٥٥ المائدة تعالج نزاعًا مع اليهود، ويُحكى عنها أشياء متعددة لو كان فيها شيء صحيح[5] لوجب أن تكون الآيات أقدم من إبادة بني قريظة؛ حيث إن القبيلة تحدد في بعض الروايات".

بناء على هذا نقول: إنه ثبت لدينا إذن وجود آيات نزلت في بداية العهد المدني، وقبل الصدام مع اليهود تهاجمهم وتفضح أخطاءهم. وبهذا تبطل دعوى نولدكه أن القرآن لم يهاجم اليهود في ذلك الوقت. وبالتالي يبطل الاستناد إلى هذا في دعواه اتخاذ النبي اليهود في ذلك الوقت مرجعية.

---

(١) المائدة: ٤١، ٤٤.

(٢) السنن: ج٤ ص١٥٤ رقم (٤٤٥١).

(٣) من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. إلى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٣٠.

(٥) لا مجال لهذا التشكيك؛ فقد ورد ذلك كما مر في البخاري ومسلم.

هـ- وأخيرًا فإن نولدكه نفسه يعارض قوله هذا؛ يقول[1]:

"كثيرًا ما كان محمد بعد الهجرة يهاجم اليهود، دون النصارى، بقسوة بالغة، وحاول أن يظهر أنهم منذ القدم معاندون، ولذا فإنهم لعنوا من الله".

كما قال[2] عن بعض الآيات في سورة البقرة[3]:

إنها "تعتبر موجهة ضد الكلام الكفري لبعض اليهود، ويمكن أن تكون منتمية لنفس الفترة الزمنية (كان يتحدث[4] عن النصف الأول من السنة الهجرية الثانية).

كما تحدث عما سماه: آيات في سورة البقرة[5] تهاجم اليهود نشأت بعد فترة وجيزة بعد الهجرة؛ يقول[6]:

"يحاول محمد هنا أن يدلل على أن اليهود من أول الوقت كانوا لا دينيين *gottlos*، و... هذه الآيات قد نشأت بعد فترة وجيزة بعد الهجرة عندما تكشفت مع الأيام إرادة اليهود الشريرة".

***

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٠.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٦.

(٣) من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الآية إلى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ الآية. وبينهما نجد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية. و﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ الآية. و﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥.

(٥) هو لا يحدد هذه الآيات بالأرقام، ولكن يشير إليها بأنها التي تلي الآيات التي تحكي قصة خلق الإنسان الأول وخطيئته:

Schöpfung und Sundenfall der ersten Menschen.

(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٤-١٧٥.

الدعوى الثانية: زعم نولدكه أن النبي في بداية العهد المدني كان يضع اليهود مع المؤمنين في جبهة واحدة، وأنه كان قد تملكه وقتئذ أمل كبير فيهم أن يتركوا دينهم ويتبعوه؛ لكنهم لم يفعلوا؛ لأن إدراكهم للاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أكثر من إدراك النبي ﷺ له.

ولقد رأينا قبل قليل حديثه[١] عن الآية ٣١ المدثر[٢] التي رجح أنها تنتمي[٣] لبداية العهد المدني، حيث يرى أن النبي وضع اليهود مع المؤمنين في جبهة واحدة، لكنه نظر إليهم فيما بعد على أنهم أعدى أعدائه".

وقال[٤]: "لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل. ولأنهم لم يتركوا في التو رأيهم القديم مراعاة لخاطر النبي الجديد؛ إذ إن إدراك الاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أسهل عليهم أكثر منه؛ فقد أخذ الانقسام في التعاظم؛ ولم ينته حتى قُتل كل اليهود وطردوا و استذلوا ..." إلخ قوله[٥].

وقال[٦]: "أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآيتان: ٤٥ النحل و٧ الأنبياء[٧]. وتأتي خيبة الأمل[٨] في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به".

وأقول:

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٨٨-٨٩.

(٢) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً﴾ الآية.

(٣) ما عدا خاتمتها: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٩-١٧٠.

(٥) الذي سيأتي بتمامه في الفصل الثاني من هذا الجزء.

(٦) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦-١٤٧.

(٧) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٨) هذا هو الذي يعنينا الآن من قول نولدكه: أما الادعاءات الأخرى فيه فقد سبق تناولها.

أ- بشأن ما زعمه من أن النبي في بداية الهجرة جعل كلًّا من اليهود والمؤمنين في جبهة واحدة:

١- إنه زعم باطل يعتمد على النظرة الخاطئة لآية المدثر المذكورة، وقد انتهينا - عند مناقشة الدعوى الأولى - إلى كون الآية مكية؛ وإلى أنها لا تنطوي على ما يفيد أن النبي كان يضع اليهود والمؤمنين في جبهة واحدة.

ولقد تناقض نولدكه مع نفسه بهذا الشأن في مواضع أخرى من كتابه هذا عن علاقة النبي باليهود، كما خالف ما ثبت في القرآن وسيرة النبي عن ذات الأمر:

٢- أما مناقضته لنفسه: فقد سبق أن بينت اعتراف نولدكه بأن القرآن في بدايات العهد المدني هاجم اليهود؛ فكيف يتفق ذلك مع دعواه هنا: أن النبي جعلهم مع المؤمنين في جبهة واحدة؟

٣- وأما مخالفته لما ورد في القرآن؛ فقد سبق أن ذكرت ما ورد بهذا الشأن فيه - سواء المكي منه أو المدني - في مواجهة اليهود. ولا يُتصور أبدًا أن تتم مواجهة فكرية لليهود على هذا النحو الذي رأيناه، ثم نفاجأ بالنبي - كما زعم نولدكه - وقد جعلهم مع المؤمنين في جبهة واحدة.

٤- وأما مخالفته لما ورد في سيرة النبي؛ فإننا من خلال قراءة وثيقة النبي ﷺ[1] مع اليهود[2] - التي كانت في بداية العهد المدني وقبل غزوة بدر

(١) كتب رسول الله وثيقة لترسم العلاقة بين المهاجرين والأنصار، كمسلمين فيما بينهم من جانب؛ وأخرى لترسم علاقة المسلمين مع اليهود.

(٢) ذكرها ابن هشام ج٢ ص٣١٨-٣٢٠ عن ابن إسحاق بدون إسناد، وأوردها أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال ص١٩٤-١٩٧ من طريق ابن شهاب (الزهري)، ووردت منها نصوص متفرقة في: البخاري ومسلم وأحمد وأبي داود وابن ماجه والترمذي بأسانيد متصلة، وبطرق مستقلة عن التي وردت بها الوثيقة. ووردت موادعة النبي لبني قينقاع في سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٢٠٠، حيث قال: "لم يختلف أهل السيرة عندنا: ابن إسحاق وموسى بن عقبة وجماعة ممن روى السيرة أن بني قينقاع كان بينهم وبين رسول الله موادعة وعهد. كما جاء فيها كذلك=

الكبرى[1]، لا نلاحظ علـى الإطلاق أن النبي كان يجعل اليهود والمؤمنين فـي جبهة واحدة؛ بل إن الحـدود فيها واضحة؛ فلقد عبـرت الوثيقة[2] عن المؤمنيـن والمســلمين من قريش وأهل يثرب؛ بســائر قبائلهــم ومن تبعهم فلحـق بهـم وجاهـد معهم بأنهـم: "أمة واحدة مـن دون النـاس"؛ في حين أنهـا حين تحدثـت عن اليهود قالت: "وإنه من تبعنا مـن يهود فإن له النصر والأسوة..".

ولقد جعلت الوثيقة[3] كلًّا من المؤمنين واليهود طرفًا مستقلًّا؛ لكلٍّ دينُه ونفقتـه، والأمر لا يتعدى حدود التعاون المشترك بين أبناء وطن واحد، أقر الإسلام التعددية فيه؛ حيث جاء فيها: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم[4]". "وإن اليهود يُنفقون مع

= (ج٩ ص٢٣٢ رقم ١٨٦٣٦) موادعة النبي لبني قريظة. ولقد ذكرت أهم مصادر السيرة موادعة النبي لليهود، وأنه كتب بينهم كتابًا ألا يعينوا عليه أحدًا، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه. هذه المصادر هي: أنساب الأشراف للبلاذري ج١ ص٢٨٦، ٣٠٨، وتاريخ الطبري ج٢ ص٤٧٩، وإمتاع الأسماع للمقريزي ص٦٤. واكتفى ابن حزم (جوامع السيرة ص٧٣) بالإشارة إلى موادعة النبي إياهم.

(١) بشأن تاريخ هذه الوثيقة، فالراجح عندي أنها كانت قبل غزوة بدر بفترة. لكن ورد في سنن أبي داود أن النبي دعا اليهود أن يكتب بينه وبينهم كتابًا بعد مقتل كعب بن الأشرف؛ الذي حصل كما حدد الواقدي (المغازي ١/ ١٨٤) في السنة الثالثة هـ. وقد يكون هذا عقدًا جديدًا يجدد فيه الرسول مع بني النضير ما سبق أن أمضاه مع كل اليهود؛ فقد صرح الطبري (تاريخ ج٢ ص٤٧٩)، وكذلك أبو عبيد القاسم بن سلام (الأموال ١٩٧) أن موادعة اليهود كانت حدثان مقدم رسول الله المدينة؛ وورد في البلاذري (أنساب ج١ ص٢٨٦، ٣٠٨) التصريح بأنها كانت قبل أن يبعث أية سرية وقبل بدر.. ومعلوم أن أول سرية كانت في ربيع الأول سنة ٢هـ. كما جعلها ابن حزم (جوامع السيرة ٧٣) بعد بناء المسجد وقبل المؤاخاة.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٣١٨-٣٢٠ وأبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال ص١٩٤، ١٩٥.

(٣) نفسه.

(٤) لاحظ معي هنا استخدام رواية ابن هشام حرف الجر: (مع) وليس (من)؛ فالأول يفيد (المعية) التي تقتضي أن كلًّا من المؤمنين واليهود طرف مستقل، لكنهما يعملان (معًا) في المجالات =

المؤمنين ما داموا محاربين". "وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم".

فليس صحيحًا إذن ما زعمه نولدكه أن النبي جعل اليهود في بداية الهجرة مع المؤمنين في جبهة واحدة.

ب- وأقول بشأن أمل النبي فيهم:

١ - إن أمل النبي: أيِّ نبي في إيمان الناس برسالته وسعيه بشتى وسائل الإقناع لتحقيق ذلك الهدف أمر لا يمكن أن يحمل أية مضامين سلبية بحق هذا النبي؛ لأن ذلك يدخل في صميم مهمته، ولا يُتصور لها نجاح بغيره؛ وبالتالي فإن الباحث المحايد في تاريخ النبوات يسجل حصول ذلك من النبي له لا عليه.

٢- لكن نولدكه هنا يحاول تصوير النبي في صورة الشخص الذي تتشكل في وعيه آمال ساذجة بناء على معطيات مُتوهَّمة؛ فهو قد طمع في إيمان اليهود في البداية وبنى على هذا آمالًا عراضًا؛ لكنهم لم يؤمنوا به؛ وذلك بسبب إدراكهم لعمق الخلاف بينه وبينهم أكثر من إدراكه هو له. فحمَّل نولدكه - من خلال عباراته - ذلك الأمل من المضامين السلبية ما لم يكن يحمله بدونها.

ولقد جافى نولدكه الحق هنا؛ إذ إن رسول الله وهو يتعامل مع يهود المدينة بعد الهجرة كان - على عكس ما ادعى نولدكه - يدرك تمامًا عمق الخلاف بينه وبينهم؛ وذلك لسبب، ما كان لمبتدئ في دراسة القرآن أن يجهله، هو أن النبي

= التي نصت عليها الوثيقة؛ لكن الثاني يفيد (البعضية) التي تقتضي أن اليهود بعض من المسلمين؛ وهو غير مراد؛ لذا لم يستخدم في الحديث. إلا أن أبا عبيد القاسم بن سلام (الأموال ١٩٥) أوردها: "من" لكنه قال (ص١٩٧): "وقوله: (وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين) إنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم؛ فأما الدين فليسوا منه في شيء. ألا تراه قد بين ذلك فقال: (لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم).

لم يكن يصدر في تعامله هذا من فراغ، وإنما كان يصدر من رصيد خبرة أسسها القرآن المكي والمدني في مواضع كثيرة منه، جرى تفصيلها من قبل[1].

لكن أريد أن أركز هنا على إشارات في آيات من بدايات العهد المدني في سورة البقرة، تتعلق باليهود وتُسهم في تجلية نقطة حديثنا هنا: قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

يبين الله لرسوله هنا أن وجود بقايا الوحي القديم مع اليهود لن يكون عاملًا مساعدًا لإيمانهم بالوحي الجديد، حيث لم يستفيدوا من الوحي القديم، بل حرفوه[3].

إن كون هذه الآية تنتمي لبدايات العهد المدني يلقي بظلال من الشك على دعوى الأمل الساذج العريض التي يدعيها نولدكه للنبي.

كما قال تعالى مخاطبًا اليهود بشأن دعاواهم حول الآخرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وحكى عنهم ورد عليهم؛ قال: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ

(١) ويُلَخِّصُ أبرز ما جاء عنهم في المكي في: نزوعهم نحو الوثنية، وإفسادهم، واختلافِهم، وبغيهم، وتوعد الله إياهم بالعذاب والخزي، ووصفهم بما فيهم من أوصاف قبيحة، وذكر بعض أخطائهم في حق نبي الله موسى، وأن ذلك وغيره إذا كان عن سلفهم؛ فإن خَلَفَهم من الأجيال اللاحقة باعوا ما ورثوه من الكتاب لقاء عرض الدنيا الزائل. أما المدني فقد ظهر لنا هناك كيف أن سورة البقرة التي تعد أول المدني بينت للنبي عدم التزامهم بالبر الذي يدعون الناس إليه، وعدم شكرهم نعم الله عليهم في تاريخهم الطويل، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير الحق، ومخالفتهم لموسى رسول الله إليهم وتمردهم عليه، وقسوة قلوبهم، وتحريف بعضهم كلام الله وكفرهم ببعضه، واتخاذهم العجل، وتشبثهم بالدنيا وحرصهم عليها، وعدائهم لجبريل ونقضهم العهود... إلخ.

(٢) البقرة: ٧٥.

(٣) جاء في تفسير ابن كثير (ج١ ص١١٠): "قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: "ثم قال الله تعالى لنبيه، ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾. الآية. وانظر: ابن هشام ج٢ ص٣٤٥.

عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ و﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

إن كون هذه الآيات تنتمي لأوائل العهد المدني يجعلنا نصل لنتيجة، هي أن القرآن في ذلك الوقت كان قد أظهر للنبي الاختلاف في جوانب شتى (وكانت هذه الآيات متعلقة بواحد منها) بين الإسلام وما عليه اليهود؛ فكيف يزعم نولدكه أن إدراك النبي لعمق الاختلاف بينه وبين اليهود كان أقل من إدراكهم له؟

* * *

الدعوى الثالثة: ادعى نولدكه أن القرآن لسنوات بعد الهجرة كان يَعُدّ المسيحيين الحقيقيين مؤمنين؛ قال[2]: "نحن نعلم أن محمدًا كان ما يزال يعد، في سنوات نشاطه المدنية الأولى، المسيحيين الحقيقيين مؤمنين[3]".

وقال[4]: "تعبر الآية ٥٩ من سورة البقرة[5] عن أن الإيمان هو الأهم، ومن هنا فإن اليهودي لا يتميز عن النصراني و الصابئ. وفي هذه الصيغة يرتبط المضمون بالسياق. وهذه الأفكار لا تظهر في الأحاديث إلا بشكل قليل للغاية" وأقول هنا:

(١) الآيات مرتبة: ٩٤، (٨٠، ٨١)، (١١١-١١٢ البقرة).

(٢) ص ١٩١.

(٣) ويحيل إلى سنوك هورجرونيه *C. Snouck Horgronje* في كتابه بالألمانية (الأعياد المكية)، طبعة ليدن ١٨٨٠ ص٤٢ والتي تليها، كما يحيل إلى كتابه موضع دراستي ص١٤٦. وقد ذكرتها من قبل.

(٤) ١٧٥-١٧٦.

(٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أ- إن أتباع عيسى عليه السلام الذين لم يغالوا فيه، ولم يحرفوا عقيدة التوحيد التي جاء بها، وماتوا على ذلك قبل رسالة محمد ﷺ؛ أو بعدها دون أن يسمعوا عنه؛ قد اعتبرهم القرآن مؤمنين.

فقد جاء في سورة آل عمران أن عيسى عليه السلام عندما شعر بكفر اليهود: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

كما جاء فيها أيضًا قول هؤلاء الأتباع: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

كما وعد الله عيسى بأنه سيجعل للذين اتبعوه بحق منزلة سامية في ميزانه تعالى؛ فقال: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وجاء في سورة الصف[2] المدنية تأييد الله للمؤمنين بنبوة المسيح: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

ب- ولقد كان نولدكه محقًّا حين وصف المسيحيين الذين عدَّهم القرآن المدني مؤمنين بأنهم المسيحيون الحقيقيون *die wahren Christen*[3] حتى لا يختلط الأمر فيدخل فيهم من غيروا دين المسيح من بعده.

ج- وأشيرُ هنا إلى أن هؤلاء المسيحيين الحقيقيين هـم الذين يسمي باول شفارتزيناو[4]

(١) آل عمران، الآيات على الترتيب: ٥٢، ٥٣، ٥٥-٥٧.

(٢) الآية: ١٤.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية، القسم الأول ص١٩١.

(٤) *Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 123*، "دروس قرآنية للمسيحيين مدخل إلى كتاب المسلمين المقدس". وأشير هنا إلى أن هذا المؤلف يعمل أستاذًا للعقيدة المسيحية (الإنجيلية) وعلوم الأديان بجامعة دورتموند بألمانيا. وله موقف إيجابي من الإسلام.

Paul Schwarzenau مسيحيتهم: بالمسيحية الأولى، التي "لم يوصف عيسى فيها على الإطلاق بأنه الله، وهى بخلاف المسيحية اللاحقة التي تزيدت في عرض صورة عيسى ورسالته"[1].

وهو قول صحيح أيضًا، إن كان نولدكه يقصد بمن سماهم المسيحيين الحقيقيين: أولئك الذين عاصروا محمدًا ﷺ من النصارى وعرفوا الحق الذي جاء به فاتبعوه.

---

(١) المرجع السابق ص١٢٣-١٢٤ وكلامه بنصه:

"Im ältesten Urchristentum und im daraus hervorgehenden Judenchristentum wurde Jesus niemals als Gott im eigentlichen und wesenhaften Sinne bezeichnet. Ja es dürfte sicher sein, dass der historische Jesus eine Verguttung seiner Person niemals geduldet hätte. " was nennest du mich gut ", sagt Jesus im Markusevangelium (10, 18). " niemand ist gut als Gott allein... Wenn der Koran davon sprisht, dass er die Bibel bestätige und richtigstelle, und islamische Lehre von" Fälschungen " in den Büchern der Leute der Schrift spricht, dann müßte mann für diesen Zusammenhang zumindest einräumen, dass das Bild Jesu und seiner Botschaft durch das heidenchristliche Kerygma der Großevangelien " überzeichnet " worden ist... aber es stand dem historischen Jesus nicht mit Notwendigkeit das Schicksal vorgezeichnet, dass sein ursprüngliches Bild unter einer marcinischen, matthä, Luka, Johann, Christolgie verdeckt werden sollte. In gewissem Sinne treten wir mit den Jesuslegenden des Korans tiefer in die Urgemeinde zurück".

وترجمته:

"لم يشر إلى عيسى على الإطلاق في المسيحية الأصلية أو المسيحية اليهودية التي انبثقت عنها على أنه الله؛ بالمعنى الصحيح أو الجوهري! كما أنه من المؤكد أن عيسى التاريخي لم يكن ليصبر على الإطلاق على تأليه شخصه؛ يقول في إنجيل مرقس ١٠: ١٨ "لماذا تدعوني صالحًا، ليس أحد صالحًا إلا واحد هو الله". عندما يتحدث القرآن عن هذا بأنه مصدق للكتاب المقدس ومصحح له؛ وعندما تتحدث التعاليم الإسلامية عن تحريف كتب أهل الكتاب؛ فإنه لا أقل من أن نُقرّ أن صورة عيسى ورسالته قد بولغ فيها، وذلك بسبب المقتطفات المسيحية الوثنية الموجودة في الأناجيل الكبيرة؛... إلا أنه ما كان ينبغي أن تخفى بغير ضرورة الصورة الحقيقية للمسيح التاريخي بواسطة مسيحية مرقس ومتى ولوقا ويوحنا. وبمعنى مؤكد فإن قصة عيسى القرآنية تعيدنا بشكل أعمق إلى الجماعة (المسيحية) الأولى".

د- لكن الذي تجاهله نولدكه هنا هو أن اعتبار القرآن هؤلاء مؤمنين لا يقتصر على أوائل الفترة المدنية - كما ادعى - بل حصل هذا في المرحلة المكية وأواخر المدنية أيضًا:

فقد سجلت سورة البروج المكية استشهاد عدد من الذين اتبعوا عيسى بحق؛ بأن شُقت لهم الأخاديد وأضرمت فيها النيران ثم ألقوا فيها أحياء. ووصفتهم بالإيمان؛ فقال تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، و﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[١].

وقد بينت آيات مدنية متأخرة من سورة المائدة[٢] أن حواريي عيسى آمنوا وأسلموا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٣].

وجاء في القرآن المدني كذلك أن إيمان من آمن من النصارى مقبول وعملهم لن يضيع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

هـ- وأَوَدُّ أن أشير هنا إلى أن أتْباع عيسى الحقيقيين لم يكونوا استثناء من بين أتباع الأنبياء الآخرين حين وصفهم القرآن المدني بالإيمان بنفس القيود التي ذكرتُها قبل قليل:

فالقرآن المدني وَصَف بالإيمان من اتبعوا نبي الله موسى بحق: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية، و﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ الآيات، و﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي

---

(١) البروج: ٧-٨، ١٠.

(٢) هذا هو الراجح لديَّ؛ لأن معظم السورة نزل بعد الحديبية ٦هـ إلا ما ورد من الآيات أن له مناسبة نزول خاصة قبل ذلك الوقت أو بعده، ولم يرد أن هذه الآية كذلك.

(٣) المائدة: ١١١.

(٤) المائدة: ٦٩.

﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

أما القرآن المكي فإن أدنى تواصل مع قصص الأنبياء وأتباعهم فيه يبين بوضوح وصفهم بالإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ الآية، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ﴾ الآية، وقال تعالى عن أتباع هود عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، وقريب منها عن أتباع صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، ومثلها عن أتباع شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾. وعن قوم يونس قال: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ الآية، وفي الجملة قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

و- والكافرون برسالة محمد ﷺ من المسيحيين أو اليهود المعاصرين للنبي أو الذين جاءوا بعده لا يعدهم القرآن مؤمنين، حتى لو كانوا موحدين عاملين للصالحات؛ إذ إن موقف القرآن والسنة من الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ كان واضحًا وصريحًا لا يحتمل لبسًا أو مساومة:

قال تعالى[3]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[4].

---

(1) المواضع القرآنية هي: البقرة: ١٢١، والبقرة: من الآية ٢٤٩، والتحريم: ١١.

(2) المواضع المذكورة: غافر: من الآيات ٢٨، ٣٠، هود: ٥٨، ٦٦، ٩٤، يونس: ٩٨، الأنعام: ٤٨.

(3) النساء: ١٥٠-١٥٢.

(4) النساء: ١١٥.

وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**[2].
وقال عبد الله بن عباس[3] وهو أحد رواة هذا الحديث: (فجعلت أقول: أين تصديقه في كتاب الله حتى وجدت الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾)[4].

كما أن رسول الله علق على إسلام شاب يهودي عندما زاره في مرض وفاته بقوله: **«الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»**[5].

ز- ولو كان القرآن في أوائل العهد المدني أَقَرَّ أوجُهَ الانحراف في عقيدة النصارى أو اليهود أو غيرهم لما وجدناه يدعوهم في ذلك الوقت إلى الإسلام؛ لكننا نجد في سورة آل عمران وغيرها مما نزل في ذلك الوقت دعوة أهل الكتاب للدخول في الإسلام:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[6].

ح- وتأتي هنا أيضًا محاولة نولدكه وغيره استخدام الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟

(١) هود: من الآية ١٧.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: مجلد١ ج٢ ص١٨٦ ح (١٥٣). ومثله في مسند أحمد برقم (٨١٨٨) وفي صحيفة همام بن منبه برقم (٩٠).
(٣) المستدرك على الصحيحين رقم (٣٣٠٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
(٤) هود: من الآية ١٧.
(٥) البخاري بشرح ابن حجر ج٣ ص٢١٩ رقم (١٣٥٦)، وأبو داود: السنن ج٣ ص١٨١ رقم (٣٠٩٥).
(٦) آل عمران: ٦٤؛ وهذه الآية لم يتأخر نزولها كما اشتهر (راجع الفصل الثاني من هذا الجزء).

وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].. استخدمَها للتدليل على تغيُّرِ موقف القرآن من أهل الكتاب: من اعتماد إيمانهم وقبوله في العهد المكي وبدايات المدني إلى رفضهم وتكفيرهم بعد ذلك. لكن هذا الاستخدام لا يصح، وذلك للآتي:

إن ثناء القرآن على المؤمنين من أهل الكتاب هو موقف مستمر؛ فلئن كانت آية البقرة تنتمي لأوائل العهد المدني فإنه سبق بيان أن آية أخرى تحمل المضمون ذاته في سورة المائدة تنتمي لأواخره، وهي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]. وهذا يهدم دعوى نولدكه بتغير موقف القرآن من أهل الكتاب.

كما أن مناسبة نزول آية البقرة تبين لنا أنها كانت جوابًا عن إيمان طوائف قبل بعثة النبي ﷺ؛ فلقد سأله سلمان الفارسي رضى الله عنه عن أهل ديـن كان معهم، وذكر من صلاتهم وعبادتهم؛ فأنزل الله الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية[3].

ومعناها إذن – كما يقول ابن كثير[4]: (كان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة

(1) البقرة: ٦٢.

(2) المائدة: ٦٩.

(3) السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول ص١٢، والرواية أخرجها ابن أبي حاتم والعدني في مسنده من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد. كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قوله: "نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي: لباب النقول ص١٣. المناسبة ذاتها تقريبًا أشار إليها الواحدي (أسباب النزول ص٢٨) بروايات عن مجاهد والسدي؛ لكن بإضافة أن سلمان لما سأل النبي فقال له: «هم من أهل النار»؛ فأنزل الله الآية. وثمة رواية عند الواحدي (ص٢٨-٢٩) كذلك عن ابن مسعود وناس من أصحاب النبي أنها كذلك في سلمان الفارسي.

(4) التفسير ج١ ص٩٩. وقال سيد قطب (الظلال ج١ ص٧٥-٧٦): (إن الآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعًا وعمل صالحًا فإن لهم أجرهم عند ربهم، ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فالعبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبية جنس أو قوم.. وذلك طبعًا قبل البعثة المحمدية، أما بعدها فقد تحدد شكل الإيمان الأخير).

وسنة موسى حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكًا. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنًا مقبولًا منه حتى جاء محمد ﷺ. فمن لم يتبعه منهم ويَدَع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكًا). فالآية إذن بيانٌ بقبول إيمان الطوائف المذكورة، وذلك قبل بعثة النبي ﷺ، ولا يُفهم منها كما زعم نولدكه أنها إقرار من القرآن في أوائل العهد المدني لأوجه الانحراف في عقيدة النصارى أو اليهود أو غيرهم.

وسياق ورود الآيتين في سورة البقرة والمائدة يُفهِم أن الآية في كلا الموضعين تَفتح باب الأمل لمن أراد النجاة من هذه الطوائف، بعد ذِكر انحرافاتِ بعضهم في آيات من السورتين:

ففي الآيات السابقة على هذه الآية في سورة البقرة ذُكر طرف من مظاهر عصيان اليهود وتمردهم على نبي الله موسى، وقتلهم الأنبياء رغم إنعام الله عليهم بألوان شتى من نعمه، إلى أن سُبقت الآية المذكورة بقوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[1]. فالحال أنه – كما يقول الإمام محمد عبده[2]: (لم يدع منهم حاضرًا ولا غائبًا، فألزم الذل باطنهم، وكسا بالمسكنة ظاهرهم، و بوأهم منازل غضبه، وجعل أرواحهم مساقط نقمه... فلو قَرَّ الخطاب عندها؛ ولم يتلُها من رحمته ما بعدها؛ لحقَّ على كل يهودي على وجه الأرض أن ييأس؛ وألا يبقى عنده للأمل في عفو الله متنفس، بل كان ذلك القنوط لازمًا لكل عاص، قابضًا على نفس كل معتدٍ، لا فرق بين اليهود وغيرهم..؛ لهذا جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية. بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة).

وفي الآيات السابقة على الآية المشابهة في سورة المائدة بيّن الله انحرافات أهل

(١) البقرة: ٦١.

(٢) تفسير المنار ج١ ص٢٧٧.

الكتاب العقدية والسلوكية الكثيرة، وأنهم ليسوا على شيء من الحق إذا لم يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وأن محمدًا ﷺ لا ينبغي له أن يأسى على هؤلاء الكـافرين؛ فناسب بعد ذلك أن يبين الله أن من كان منهم أو من غيرهم قبل محمد ﷺ مؤمنًا؛ فلن يتحمل وزر غيره. وأن من عاصَرَه فبـاب الأمل مفتوح؛ لذا أخبر أن من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون... يقول سيد قطب[1]: (إن الآية تقرر أنه أيًا كانت النِّحْلة؛ فإن من آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا - ومفهوم ضمنًا في هذا الموضع، وتصريحًا في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير - فقد نجوا ولا عليهم مما كانوا فيه من قبل ذلك، ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات، فالمهم هو العنوان الأخير).

كما أن الآية جعلت الإيمان والعمل الصالح شرطين لنوال الأجر من الله ونفيِ الخوف والحزن؛ فلَمْ تحكم إذن لليهود والنصارى والصابئين بإطلاق: أنهم لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ وإنما حكمت به لمن آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا.

وقريب من الآية التي معنا بما تضمنته من شرط الحصول على الأجر قوله تعالى في آية مدنية مبكرة بشأن اليهود: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾[2]؛ فهي تَعِدُهُم بمثوبة الخير من عند الله إن هم آمنوا؛ بما يعني أنهم في الأصل غير مؤمنين. والآية في الحقيقة دعوة لهم إلى الإيمان بالله إيمانًا مجردًا من شوائب الوثنية والشرك.

إن الذي يريد أن تصير الآية حُكمًا مطلقًا بقبول اليهود والنصارى والصابئين فكأنه يحذف منها جملة الشرط لتصير: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وبالمناسبة فإني أكمل هذا الموضوع بعرض النقاط الآتية:

---

(١) في ظلال القرآن ج٢ ص٩٤٢.

(٢) البقرة: ١٠٣.

١- إن الإيمان بالله الذي جَعَلَتْه الآيتان اللتان معنا أحد شرطي الحصول على الأجر ليس أي إيمان يدعيه مُدَّعٍ، زاعمًا أنه يؤمن بالله؛ بل له صورة واحدة فقط هي التي أرسل الله بها رسله جميعًا، وأنزلها في كتبه، ثم جاء التعبير عنها على لسان النبي الخاتم محمد ﷺ صَريحًا صَحيحًا، لم يُصبه التحريف.

٢- إذا أردنا أن نتعرف على صورة الإيمان المقصود؛ فنحن نتلمسها أيضًا في الآيتين اللتين معنا؛ حيث وُصف المسلمون فيهما بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ في حين أن الطوائف الأخرى التي ذُكرت بعدُ جاء ذكرُها خلوًا من الوصف بالإيمان.

٣- وليس هذا فريدًا في بابه في القرآن؛ فلقد تكرر فيه جعل الوصف بالإيمان عَلَمًا على أَتْبَاع النبي محمد ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، و﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، و﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[3].

٤- وجب القول إذن: إن ما عليه المسلمون من إيمان هو صورة الإيمان المقبول؛ ولذا فهو وحده المعول عليه في النجاة، وهو وحده المقبول من الله، وهو الصورة القياسية للإيمان الذي يُطلب من باقي الطوائف المذكورة أن تصير إليه.

٥- ولقد صرح بذلك القرآن في سورة البقرة نفسها في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾[4].

***

(١) آل عمران: ٦٨.

(٢) آل عمران: ٧٢.

(٣) النساء: ٥١.

(٤) البقرة: ١٣٧-١٣٨.

الدعوى الرابعة: تُلَخّص هذه الدعوى في أن القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى؛ والدليل على هذا ثناؤه على الرهبان وحديثُه الودودُ عن المسيحيين.

ويُرجع نولدكه عدم الهجوم هذا لسببين: أولهما: بُعد النصارى عن يثرب، وثانيهما: أنه لم يكن التصادم العسكري بينهم وبين النبي قد حدث بعد.

أما في أواخر العهد المدني فقد هاجمهم القرآن، وكان الصدام العسكري هو السبب وراء ذلك؛ يقول[١]:

"كثيرًا ما كان محمد بعد الهجرة يهاجم اليهود، دون النصارى". ويقول[٢]:

"إن المشركين – الذين قاتلهم في الفترة المدنية – يُهاجَمون في القرآن (المدني)[٣] بندرة؛ والمسيحيين – الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن يثرب؛ وكان تصادم محمد معهم عدائيًا لأول مرة في السنوات الأخيرة – يتحدث عنهم فيه نادرًا، وفي الغالب بشيء من اللطف، مع التوبيخ بشأن بعض العقائد"...

ومما يجلي هدف نولدكه لدينا.. أن مستشرقًا آخر هو بلاشير *R. Plasher* قد التقط هذا الخيط، لكنه كان أكثر صراحة في التصريح بهدفه، حيث رأى[٤] أن المرحلة المدنية لم تشهد أي عداء لأنصار عيسى[٥]، بل إن القرآن المدني كان يبين أن الرهبان المسيحيين يستطيعون بإيمانهم وإحسانهم أن ينالوا ثواب الجنة، ويستشهد بالآيات: ٦٢ من البقرة، و٨٢ من المائدة، و٢٧ من الحديد"[٦].

---

(١) ص١٧٠.

(٢) ص١٧٠.

(٣) أي: المدني؛ لأن حديثه في الموضع المشار إليه يتناوله وحده.

(٤) القرآن: ص٧٦-٧٩.

(٥) سبق أن وضحت أن القرآن – سواء في المكي أو المدني – لا يقيم أي علاقة عداء على الإطلاق مع أتباع عيسى الحقيقيين.

(٦) الآيات بالترتيب هي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ الآية، و﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ الآية. و﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الآية.

وأقول:

أ- إن دعوى أن القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى لا تستقيم مطلقًا مع مجموعة مواقف مبدئية ضد النصارى، أُعلنت في القرآن المدني، سواء في بداياته أم نهاياته. ولقد كان بعض هذه المواقف صريحًا في التوجه إلى النصارى بالهجوم، وكان البعض الآخر يذكرهم مع اليهود تحت مسمى أهل الكتاب.

وتتمثل المواقف الصريحة في أن القرآن المدني:

أعلن كُفر القائلين بأن الله هو المسيح ابن مريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآية[1].

كما أعلن كفر القائلين بالثالوث، وبيّن أنهم يعبدون غير الله، وأمرهم بالتوبة وتَهَدّدهم بالعذاب إن لم ينتهوا عن هذه العقيدة الكفرية التي اتبعوا فيها أهواء الضالين، وبيّنَ الاعتقاد الإسلامي في المسيح: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤) مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[2].

وطالب القرآن المدني النصارى أن يتركوا الغلو، وألا يقولوا على الله إلا الحق، وقرر العقيدة الإسلامية في المسيح ونهاهم عن التثليث: ﴿يَا أَهْلَ

(١) المائدة: ١٧.

(٢) المائدة: ٧٣-٧٧.

ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾[1].

ونَفَى القرآن المدني كون المسيح قد صُلب؛ حيث نفى ادعاء اليهود قتله، واستنكر تصديق النصارى لما أشاعه اليهود فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

وأعلن تبرؤ عيسى من كل هذا الانحراف فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3].

ولقد ذكر أبو عبيدة القاسم بن سلام[4] عن محمد بن كثير عن زائدة عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود ما مؤداه أن قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5]

(١) النساء: ١٧٠-١٧١.
(٢) النساء: ١٥٥-١٥٨.
(٣) المائدة: ١١٦-١١٨.
(٤) الأموال ص١١٤.
(٥) المائدة: ١١٨.

الوارد في هذه الآيات قد جاء في حديث للنبي كتشبيه لموقف أبي بكر من الأسرى بموقف المسيح عليه السلام الأخروي من الذين غالوا فيه؛ وعليه تكون هذه الآيات بما تحمله من بيان لفساد عقيدة النصارى قد نزلت قبل السنة الثانية من الهجرة؛ وهذا يعني أن هجوم القرآن على عقائد النصارى الفاسدة لم يبدأ في السنوات الأخيرة، كما ادعى نولدكه وبلاشير.

كما أن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1] هو موجَّه ضد النصارى؛ ويقر نولدكه نفسه بهذا؛ حيث يقول[2]:

"V.110 kann nur auf Christen gehen".

وترجمته:

"الآية ١١٦ يمكن أن تكون موجهة ضد النصارى وحدهم".

وأضيفُ إلى ما قاله: إن هذه الآية من سورة البقرة، ولقد مضى القول عنها: إنها في جملتها أول ما نزل في المدينة. وهذا يرد على نظرية نولدكه أن أوائل القرآن المدني لم تهاجم النصارى.

كما أن القرآن المدني نهى عن اتخاذ النصارى أولياء؛ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

أما المواقف الأخرى التي يهاجم فيها القرآن المدني النصارى ضمن أهل الكتاب فتتمثل في أنه:

رَدّ زعمَهم مع اليهود انتماء إبراهيم عليه السلام إليهم فقال:

(١) البقرة: ١١٦، ١١٧.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٧.

(٣) المائدة: ٥١.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1].

كما أنه استنكرَ كفرهم وتزويرَهم وصدَّهم عن سبيل الله وفسق معظمهم فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾، وقال: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، وقال: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾، وقال عنهم: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[2].

كما واجههم – مع اليهود – بإخفائهم أو نسيانهم بعض الكتاب أو تركهم العمل به؛ فقال: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾، وقال: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3].

كما عاب عليهم غُلُوَّهم في الدين واتباعهم رؤساءهم الضالين فقال:

(١) آل عمران: ٦٥-٦٧.

(٢) الآيات مرتبة هي: آل عمران: ٧٠-٧١، البينة: ١، ٦، آل عمران: ٩٨-٩٩، من الآية ١١٠.

(٣) المائدة: ١٥، ١٤، ٦٨.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

كما وُصِفوا مع اليهود بأنهم ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2].

وفي مرحلة لاحقة قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[4].

لقد تبين لنا إذن أن القرآن المدني رماهم بالكفر والتزوير وإخفاء بعض الكتاب وكتمان الحق ولبسه بالباطل. ورماهم كذلك بالكذب في دعوى نصرانية إبراهيم؛ والغلو في الدين وقول الباطل على الله. كما استنكر اعتقادهم صلب عيسى. ووصفَ معظمهم بالفسق. وختم كُلَّ ذلك بالنهي عن اتخاذهم أولياء. فإذا كانت كل هذه الأحكام التي قررها القرآن المدني

(١) المائدة: ٧٧.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) التوبة: ٢٩-٣٢.

(٤) التوبة: ٣٤.

والمواقف التي اتخذها من النصارى حديثًا لطيفًا كما زعم نولدكه، فكيف يكون التقريع واللوم والتوبيخ إذًا؟!.

ب- والغريب أن يقر نولدكه نفسه مع ذلك بأن القرآن المدني وبَّخ النصارى بشأن بعض العقائد! إذ كيف يستقيم قوله هذا مع قوله: إنه تحدث عنهم بلطف؟ هل يمكن أن يُفصل بين المرء وعقيدته؛ فيتخذ القرآن المدني موقفًا من عقيدة النصارى، ويظل حديثه مع ذلك عن شخوصهم لطيفًا؟!! هل يمكن أن يتصور من القرآن الذي يبني مواقفه من الطوائف المختلفة على أسس عقدية، لا على اعتبارات شخصية أو شكلية... هل يتصور منه أن يثني على شخوص النصارى أو رهبانهم الذين ما زالوا يعتقدون نفس العقائد التي استنكرها ورفضها؟

ج- أما ما طرحه نولدكه من أدلة أكمَلها بلاشير؛ فلعل الفهم الخاطئ لبعض الآيات المدنية هو الذي دفعهما لطرحها في هذا السياق.

وحكمي عليه بالخطأ راجع لأنه يخالف السياق القرآني الذي وردت فيه هذه الآيات، وتفسير النبي ذاته لها. كما يتناقض مع المعطيات القرآنية بشأن الحكم على النصارى في مواضع كثيرة؛ ولا يأخذ في الاعتبار الروايات الصحيحة بإيمان كثير من النصارى في عهد النبي:

فالمعطيات القرآنية يُفهم منها - كما بيَّنَّا من قبل - الرفضُ التام لأوجه الانحراف العقدي لدى النصارى، والإنكارُ على كل من لا يؤمن بالنبي.

أما سياق ورودِ الآيات فالأمر هنا يحتاج لتفصيل:

إن هناك أربعة مواضع مدنية يثني فيها الله تعالى على المؤمنين من أهل الكتاب؛ لكن نولدكه وبلاشير وغيرهما ظنا أنه ثناء عام، يشمل حتى من لم يؤمن منهم برسالة محمد ﷺ:

الموضعان الأول والثاني آيتان؛ واحدة من سورة البقرة، والثانية من سورة

المائدة هما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]. وقد أسقطت من قبل وجه دلالتهما على دعوى نولدكه (أن القرآن عد المسيحيين لسنوات بعد الهجرة مؤمنين)؛ وبالتالي فلا وجه لدلالتها على الدعوى التي معنا؛ لقرب الدعويين.

الموضع الثالث: آية من سورة المائدة؛ هي: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2].

ولننظر أولًا في مناسبات نزولها؛ فلقد وردت عدة روايات في ذلك:

رواية تربطها بسؤال سلمان الفارسي رسول الله عن مؤمني النصارى الذين قابلهم في رحلته للبحث عن الدين الحق، وذكر مِن أوصافهم أنهم كانوا موحدين، وآمنوا بالمسيح كنبي، وليس إلهًا ولا ابنًا للإله، وأنه ولد بغير ذكر وكانوا يتشددون على أنفسهم في العبادة والتخفف من الدنيا؛ ومما قاله سلمان في هذه الرواية: (فلبثت ما شاء الله أن ألبث – أي بعد أن أسلم – فسلمت عليه – أي على النبي – وقعدت بين يديه فقلت: يا رسول الله، ما تقول في دين النصارى؟ قال: «**لا خير فيهم ولا في دينهم**». فدخلني أمر عظيم. فانصرفت وفي نفسي ما شاء الله! فأنزل الله عز وجل على النبي: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية. فقال رسول الله: «**عَلَيَّ بسلمان!**». فأتيت الرسول وأنا خائف؛ فجئت حتى قعدت بين يديه؛ فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ

(١) البقرة: ٦٢،المائدة: ٦٩.

(٢) المائدة: ٨٢.

﴿مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى آخر الآية. ثم قال: **«يا سلمان، إن أولئك الذين كنت معهم وصاحبك لم يكونوا نصارى إنما كانوا مسلمين»**. فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لهو الذي أمرني باتباعك؛ فقلت له - مازال سلمان هو الذي يحكي -: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟ قال - أي الراهب مجيبًا -: فاتركه؛ فإن الحق، وما يجب، فيما يأمرك به)[1].

ورواية ثانية تربطها بمجموعة من النَوَّاتين (الملاحين) من أهل الحبشة قدموا على سفينة مع جعفر بن أبي طالب[2]، وأخرى ثالثة تربطها بوفد أرسله النجاشي إلى النبي، فقرأ عليهم القرآن، وأسلموا ورجعوا إلى النجاشي[3].

ولا يعني تعدد الروايات هنا تعارضها وتناقضها، وبالتالي الشك في صدقيتها كما يتجه إليه بعض المستشرقين في العادة؛ لأن الذي يجمع بينها أنها بشأن أتباع المسيح الحقيقيين قبل بعثة النبي والمؤمنين من النصارى بمحمد ﷺ بعد بعثته، وقد تنزل الآية عقب عدة أسباب كما ذكر ذلك السيوطي[4].

وبناء على هذا فإن سبب نزول هذه الآية يجعلنا نقول: إن هذه الآية التي تثني على مؤمني النصارى وغيرها ممن هو مثلها، لا تخرج عن أن تكون مشيرة إلى فريقين:

أولهما: الذين اتبعوا المسيح عليه السلام بحق قبل بعثة محمد ﷺ.

---

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ج٣ ص٦٩٢، وما بعدها، رقم (٦٥٤٣)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح عال في ذكر إسلام سلمان الفارسي، ولم يخرجاه.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير ج١٢ ص٥٥ رقم (١٢٤٥٥).

(٣) مجمع الزوائد: الهيثمي ج٢ ص٩٣٩ رقم (١٠٣٥)، ومسند ابن الجعد بن عبيد ص٣٢١ رقم (٢١٨٨).

(٤) الإتقان ٤٥.

وثانيهما: المؤمنون بالنبي محمد ﷺ بعد بعثته، ولدينا منهم هؤلاء الذين سأذكر أسماءهم.

كما أن سياقها العام لا يؤيد الاستناد إليها في دعوى حديث القرآن المدني بودٍّ عن النصارى؛ لأنها إذا كانت قد وصفت هؤلاء ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ فإن الآية التي تليها ذكرت بعض أحوالهم التي لا يمكن أن تنطبق على من بقي على نصرانيته منهم؛ وهي: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

وهذه الآيات تتناول فريقًا خاصًّا من النصارى حددت ملامحه وبيَّنت صفاته؛ وهي "تصور حالةً وتقرر حكمًا لهذه الحالة... حالة فئة من الناس قالوا: إنا نصارى، أقرب ﴿مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ...﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم... وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرًا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه... وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه القول. ثم هم لا يكتفون بهذا... إنما يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفًا إيجابيًّا صريحًا؛ موقف القبول لهذا الحق... ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله، أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، ولا يأملوا

---

(١) المائدة: ٨٣-٨٦.

بهذا الإيمان أن يقبلهم ربهم ويرفع مقامهم عنده فيدخلهم مع القوم الصالحين... ولا يقف السياق القرآني عند هذا الحد... بل يتابع خطاه لتكميل الصورة ورسم المصير الذي انتهوا إليه"[1] وهو الجنة.

تقفنا هذه الآيات إذًا أمامَ فريق خاص من النصارى هذه هي أوصافه: مودة للمؤمنين (المسلمين) وعدم استكبار عن قبول الحق، وفيض العين بالدمع عند سماع القرآن وإعلان الإيمان به ورد منهم على منكري هذا الإيمان، ثم تبين الآيات في النهاية ثوابهم عند الله؛ فكيف يُفهم منها أنها تعني من بقي على نصرانيته ورَفَضَ الحق ولم يخشع بالقرآن؟

وبالإضافة إلى ما ذكر؛ فإنه مما يدل على أنه فريق خاص من النصارى وليس كلهم؛ أن السياق القرآني هنا ذَكَرَ في الآية الأخيرة في النص الذي مضى أن الفريق المقابل هو الذي كفر وكذب: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. فـ "ليس كل من قالوا إنا نصارى إذن داخلين في الحكم بـ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها؛ إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة، لم يدع السياق القرآني أمرها غامضًا ولا ملامحها مُجَهّلة ولا موقفها متلبسًا بموقف سواها في كثير، ولا قليل"[2].

والموضع الرابع هو من سورة الحديد؛ يقول الله تعالى فيه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[3].

ولا يصح فهم هذه الآية على أنها ثناء على جميع النصارى؛ فلقد بينتْ

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن مجلد٢ ص٩٦٢-٩٦٤.

(٢) نفسه ص٩٦٤.

(٣) الحديد: ٢٧.

أن الله جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوا نبي الله عيسى عليه السلام.

والتصريح بالاتّباع هنا يقصِر الحكم على الذين ساروا على نهج المسيح ولم يغالوا فيه.

وحتى لو لم يفهم التصريح بالاتباع على هذا النحو؛ فإن الآية لا تتضمن إلا إثبات صفتين قلبيتين لهم، دون إثبات الأجر الذي لم تجعله الآية إلا للمؤمنين. فإثبات الأجر والثواب هو لبعضهم لا لكلهم، وبلفظ الآية هو لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ﴾.

كما أن الآية وصفت الكثرة غير المؤمنة منهم بالفسق: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ فكيف يسوغ لصاحب نظرٍ جعلها حديثًا لطيفًا عن النصارى؟

وإذا كان الثناء هنا على المؤمنين منهم فقط؛ وكان هذا الإيمان هو المؤدي وحده إلى حصول النصارى على الأجر؛ فإن الآيتين اللاحقتين تكفلتا ببيان موضوع هذا الإيمان؛ وذلك حتى لا تذهب النفس في تفسيره كل مذهب، ولكي لا يدع النص القرآني أحدًا في جهالة من أمره؛ فقال تعالى فيهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

وتفسير النبي لهاتين الآيتين ثابت هو الآخر؛ فبشأن المقصود بالإيمان في: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ روى ابن مسعود تفسير النبي ﷺ: **«هم الذين آمنوا بي وصدقوني»**. أما الكثيرون الفاسقون فقال عنهم: **«هم الذين كفروا بي وجحدوا بي»**[2].

---

(١) الحديد: ٢٨، ٢٩.

(٢) الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٥٢٢ برقم (٣٧٩٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه. وقد ذكر ابن كثير في تفسيره (ج٤ ص٣١٦) نحوه، =

وفي الحديث أيضًا عن النبي ﷺ قوله: «**أيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد؛ فله أجران**»[1] وهو نفس ما ورد في الآية المكية من سورة القصص عن أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[2].

وهناك موضع آخر لم يشَر إليه في كلام نولدكه أو بلاشير، لكنه قد يرد هنا، وهو قوله تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

لكن لا يصح الاستشهاد به على الدعوى المذكورة؛ لأن المشار إليهم هنا هم الذين أسلموا من اليهود؛ فقد قال ابن عباس: (لما أسلم عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية... قالت أحبار يهود أهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا اتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من أخيارنا ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله الآيات[4] المذكورة).

وأقول أخيرًا:

لم لا يلجأ نولدكه وغيره إلى الاختيار الصحيح في هذا الشأن، ويربط الآيات الكريمة المذكورة بالروايات الصحيحة التي تتناول إيمان عدد من النصارى بالنبي في حياته؟ إن هذه الروايات تتحدث عن: عداس الذي

= وقال: (الحديث رواه ابن جرير الطبري بسنده وفيه داود بن المحبر أحد الوضاعين، لكنه ورد بطريق آخر فقوي لذلك)، ولعله يقصد رواية الحاكم المذكورة.

(١) والحديث صحيح ورد في: مسند أحمد ج٤ ص٤١٤ رقم (١٩٧٢٧)، وبلفظ قريب: البخاري: الجامع الصحيح المختصر ج٣ ص١٠٩٦ رقم (٢٨٤٩). ويبلغ عدد طرقه التي ورد بها الخمسين.

(٢) القصص: ٥٤.

(٣) آل عمران: ١١٣-١١٥.

(٤) البيهقي: الدلائل ج٢ ص٥٣٣-٥٣٤.

أسلم في أثناء رحلة النبي للطائف[1]، وعن ثلاثين من أصحاب النجاشي أوفدهم إلى النبي ﷺ فأسلموا[2]، وعن مَلاحِي السفينة التي حملت جعفر بن أبي طالب عند عودته من الحبشة[3]. وتشير إلى بشير بن معاوية المكنَّى بأبي علقمة النجراني، الذي كان سبب إسلامه أن دابته عثرت، وهو بنجران فذكر النبي بسوء، فزجره الأسقف الذي كان يسير معه قائلًا: لقد ذكرت نبيًّا مرسلًا؛ فلحق بالنبي وأسلم وما زال معه حتى مات شهيدًا[4]، والجارود العبدي الذي حضر مع وفد عبد القيس[5]، والأصبغ بن عمرو بن ثعلبة بن معبد الكلبي[6]، وسيمويه الذي كان (شماسًا)، وأخبر أنه أتى النبي وسمع من فمه لأذنه، وعاش مائة وعشرين سنة[7]، وتميم بن أوس الداري الذي كان – كما قال – أبو نعيم: راهب أهل فلسطين وعابدهم[8]، وفروة بن عمرو الجزامي الذي كان عاملًا لقيصر على عمان من أرض البلقاء، وكتب إلى رسول الله بإسلامه وأهدى له[9] وغيرهم.

إن المنطق وسياق كل آية من الآيات الكريمة المذكورة يقتضيان أن يربط الباحث غير المغرض تلك الآيات بهؤلاء الذين أسلموا من النصارى، وأن

---

(١) الطبري: تاريخ ج٢ ص٣٤٦.

(٢) مجمع الزوائد: الهيثمي ج٢ ص٩٣٩ رقم (١٠٣٥)، ومسند ابن الجعد بن عبيد ص٣٢١ رقم (٢١٨٨).

(٣) المعجم الكبير للطبراني ج١٢ ص٥٥ رقم (١٢٤٥٥).

(٤) ابن حجر: الإصابة ج١ ص٣١٥ رقم (٧٠٦)، وانظر البيهقي: دلائل النبوة ج٥ ص٣٨٣.

(٥) فتح الباري ج٨ ص٨٦ في شرحه للحديث (٤٣٦٩)، مكتبة الغزالي، وابن سعد: الطبقات ١/ ٣١٣ ط دار صادر.

(٦) الواقدي نقلًا عن ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ج١ ص٢٠٤ رقم (٤٧٠).

(٧) الطبراني: المعجم الكبير ٧/ ١٦٩ رقم (٦٧٢٥)، وابن حجر: الإصابة ج٣ ص٢٣٧ رقم (٣٦٣٧).

(٨) ابن حجر: الإصابة ج١ ص٣٦٧ رقم (٨٣٨).

(٩) ابن حجر: الإصابة ج٦ ص٩٩ رقم (٧٩٥٤).

يرجح بيقين كونها تشير إليهم؛ بدلًا من أن يتعسف في فهمها على أنها تشير إلى عموم النصارى. لكن نولدكه لم يفعل ذلك.

د- تصدي القرآن المدني لانحرافات النصارى قبل الصدام العسكري معهم:

قد يُفهم من كلام نولدكه أنه يُرجع قوله بالحديث الودود المدعى عن النصارى في القرآن المدني؛ إلى كون العداء بينهم وبين النبي لم يحصل إلا في السنوات الأخيرة... أعيد مرة أخرى قوله[1]:

"إن المشركين – الذين قاتلهم في الفترة المدنية – يُهاجَمون في القرآن[2] بندرة؛ والمسيحيين – الذين كانوا يعيشون بعيدًا عن يثرب؛ وكان تصادم محمد معهم عدائيًا لأول مرة في السنوات الأخيرة – يتحدث عنهم نادرًا، وفي الغالب بشيء من اللطف، مع التوبيخ بشأن بعض العقائد".

وأقول عن هدف نولدكه بادعائه هذا:

إنه لئن كان حذرًا في التصريح بما يهدف إليه هنا؛ فإنه لا يخفى أنه يريد أن يصل بقارئه في النهاية لأن يعتقد أن رفض القرآن لأوجه الانحراف في عقائد النصارى لم يكن موقفًا مبدئيًا؛ وإنما كان صدى لما يعتمل في نفس النبي كرد فعل لموقف النصارى منه.

لكن بالإضافة إلى ما ذكرتُه من قبل عن وجود مواقف مواجهة صريحة ضد النصارى في القرآن المكي والمدني أقول هنا:

إن الذي يظهر عند التدقيق في الأمر أن هجوم القرآن على عقائد النصارى الباطلة لم يرتبط بحصول ما سماه نولدكه: (التصادم بين النبي وبينهم في السنوات الأخيرة)، بل كان قد حدث قبل ذلك بكثير؛ وأستدل على هذا –بالإضافة إلى ما سبق – بالآتي:

(١) ص١٧٠.
(٢) أي: المدني؛ لأن حديثه في الموضع المشار إليه يتناوله وحده.

١- آيات كريمة من سورة آل عمران[1] فيها بيان وجه الحق في المسيح، من حيث كونه مخلوقًا لله تعالى على وجه يُظهر طلاقة قدرة الله، وأنها لا تحكمها الأسباب التي تحكم قدرة البشر؛ فكما تجلى هذا في خلق آدم تجلى في خلق المسيح.

كما تتحدى الآياتُ المنحرفين منهم بالمباهلة، وترد الجميع إلى التوحيد: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

٢- الآيات ١١٦-١١٨ المائدة التي ذكرناها قبل قليل؛ وفيها إعلان تبرؤ المسيح عليه السلام من غلو أتباعه فيه؛ قد ورد ذكر بعضها في حديث متعلق بغزوة بدر[3]، جاء فيه ما مؤداه أن قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الوارد في هذه الآيات قد جاء في حديث للنبي، كتشبيه لموقف أبي بكر من الأسرى بالموقف الأخروي للمسيح من الذين غَلَوْا فيه. وبناء عليه تكون هذه الآيات بما تحمله من بيان لفساد عقيدة النصارى قد نزلت قبل رمضان من السنة الثانية من الهجرة.

٣- قوله تعالى في سورة البقرة (التي مضى القول عنها: إنها أول ما نزل في

(١) الآيات ٥٩-٦٣؛ ولقد رجح عندي أن هذه الآيات نزلت في مجموعة من نصارى نجران جاءوا العام الثالث من الهجرة أو حوله، وليست متأخرة في النزول إلى العام التاسع من الهجرة. وبينت ذلك بالتفصيل في ملحق بهذا الشأن ألحقته بهذا الجزء.

(٢) آل عمران: ٥٩-٦٤.

(٣) أخرجه أبو عبيدة القاسم بن سلام (الأموال ص١١٤)، وقد سبق ذكره.

المدينة): ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1]؛ هو موجه ضد النصارى؛ ويقر نولدكه نفسه بهذا؛ حيث يقول (تاريخ القرآن ق١ ص١٧٧) عن الآية ١١٦: «إنها يمكن أن تكون مقصودًا بها المسيحيون فقط. وهذا يعني أن هجوم القرآن على عقائد النصارى الفاسدة لم يبدأ في السنوات المدنية الأخيرة. كما يعني أن هذا الهجوم ليس له علاقة بتصادم النبي معهم، كما ادعى نولدكه.

٤- وقد يجدر بي هنا أن أضم إلى ردي عليه - في هذه الجزئية - كلامه هو؛ فعند حديثه عن مقطع في سورة المائدة يقول نولدكه[2]:

"V.64-88 setzen voraus, daßschon mehrere Kriege mit den Juden geführt worden sind. Wenn man aus dem Abschnitt weiter folgert, daß die Schlachten von Mu,ta und Tabük noch nicht sstattgefunden haben, so ist das keineswegs außer Zweifel. Dnn die freundlich Beurteilung der Christen, besonders ihrer Priester und Mönche, in V.73. 85 ist eine rein theoretische, prinzipielle und braucht auf jene Kämpfe nicht notwendig Rücksicht zunehmen".

وترجمته:

(الآيات ٦٤-٨٨[3] من المفترض أنها [نزلت] بعد أن حصلت بالفعل عدة حروب مع اليهود. ولن يكون محل شك أبدًا إن نحن استنتجنا من المقطع أيضًا أن غزوتي مؤتة وتبوك لم تكونا قد حصلتا بعد. إن التقدير

(١) البقرة: ١١٦-١١٧.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٣١-٢٣٢.

(٣) في مصحفنا (٥٩-٨٥) من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ إلى الآية: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

اللطيف للمسيحيين، خاصة قساوستهم ورهبانهم في الآيتين ٧٣، ٨٥[١] هو تقدير نظري ومبدئي، ولا توجد ثمة ضرورة لأن نأخذ في اعتبارنا هاتين الغزوتين).

إن هذا المقطع القرآني الذي يتحدث عنه نولدكه هنا يتضمن بعض آيات تهاجم النصارى في ميداني العقيدة والسلوك، وتصل بهذا الهجوم إلى حد الوصف بالكفر والفسق والغلو في الدين والضلال، والآيات هي: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾، و﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، و﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٢].

إنه طبقًا لنظرية نولدكه، فإنه ينبغي أن تكون آيات ما سماه (الحديث اللطيف عن النصارى) و(الثناء على قساوستهم) قد نشأت - على حد تعبيره الذي لا يستخدم غيره في التعبير عن نزول القرآن - في بدايات العهد المدني وقبل الصدام معهم في مؤتة وتبوك، وأن تكون آيات الهجوم عليهم قد نشأت بعد الصدام معهم في الغزوتين ذاتهما.

لكنْ قولا نولدكه هنا: «لن يكونا محل شك أبدًا إن نحن استنتجنا من المقطع أيضًا أن غزوتي مؤتة وتبوك لم تكونا قد حصلتا بعد»، «ولا توجد ثمة ضرورة لأن نأخذ في اعتبارنا هاتين الغزوتين».... هذان القولان يدلان أنه لا يَستبعد - بل قد يكون يرجِّح - أن تكون تلك الآيات نزلت

(١) بترقيم فلوجل، و٦٩، ٨٢ بترقيم مصحفنا.

(٢) المائدة: الآيات: ٧٢، ٧٣، ٧٦، ٧٧.

قبل غزوتي مؤتة وتبوك، مما يعني أن الهجوم على النصارى لم يكن بعد حصول التصادم معهم في غزوتي مؤتة وتبوك، كما ادعى نولدكه وبلاشير؛ بل كان قبله.

وبذا يكون نولدكه قد أقر بوجود آيات تهاجم النصارى قبل الصدام المسلح معهم، وذلك يحقق إشكالًا كبيرًا لنظريته لا يسعه تجاوزه؛ لذا فإني أعد ذلك القول منه إما تراجعا عن قوله الأول، أو تناقضًا معه؛ وأميل إلى الاحتمال الثاني؛ لأن من يتراجع عن قول له يغلب أن يحركه وعيه بتراجعه لبيان سبب ذلك ودليله؛ ونولدكه لم يفعل.

كما أنه واضح من قوله الأخير أنه لا يفرق من حيث زمن النزول بين آيات الهجوم على النصارى، وآيات الثناء على بعضهم.

وبناء على هذا ينهار زعمه أن لكلٍّ مرحلة؛ ويتأكد ما اجتهد نولدكه أن يتهرب منه، وهو انفكاك جهة الحكم في الحالين؛ وذلك لأن تعلق آيات الثناء هنا كان بالذين آمنوا من أهل الكتاب قبل بعثة محمد ﷺ؛ ثم بالمؤمنين به بعد بعثته؛ في حين أن الآيات المهاجمة المنكرة عليهم في ذات المقطع كانت متعلقة بمن لم يتحقق فيهم ذلك الإيمان؛ لذا فإنه ليس ثمة إشكال لدى الذهنية المسلمة التي تعلم انفكاك جهة الحكم. أما نولدكه فليس الأمر بالنسبة له كذلك؛ بل الجهة عنده واحدة، لذا لجأ للقول بمرحلتين.

٥- وكما كان الذي باء به نولدكه من جراء دعواه ليس سوى الوقوع في الخطأ والتناقض؛ فإن بلاشير المتأخر عنه لم يكن أحسن حالًا منه[١] إن لم يكن أسوأ؛ فإلى جانب إصراره الخاطئ كما رأينا على الربط بين ما سماه (شجب القرآن المدني للمسيحية) من جانب؛ ومعركة مؤتة[٢] من جانب آخر؛ دون

(١) وقد يكون ذلك بحكم المتابعة والاحتذاء لهدف نولدكه العام.

(٢) حصلت في جمادى الأولى ٨ هـ الموافق أغسطس أو سبتمبر ٦٢٩م؛ ويسميها بلاشير (أولى مقاومات العالم البيزنطي).

أن يتيح لنفسه فرصة التراجع التي أتاحها نولدكه لنفسه؛ فإنه وقع في خطأ أكبر باستشهاده بالآيتين ١٢٠ و١٣٥ البقرة؛ قال: «الأكيد أن لهجة التبشير لم تتغير وتنته إلى شجب المسيحية إلا بعد ما شعر محمد بأولى مقاومات العالم البيزنطي، وخاصة يوم سقوط[١] مؤتة؛ حينئذ تساوى أنصار المسيح مع اليهود في لعنة واحدة فنزل عندئذ قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية[٢]، و﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

والتلفيق غير العلمي وغير المسؤول جلي هنا؛ إذ إن هاتين الآيتين تنتميان - مثل معظم سورة البقرة - إلى أوائل العهد المدني. ويحدد نولدكه[٤] وقت نزولهما بأنه في الفترة قبل تحويل القبلة، أي: قبيل مرور عام ونصف تقريبًا بعد الهجرة؛ فلم يتوان بلاشير هنا في أن يجعل نزولهما متأخرًا قرابة سبع سنوات ليسلم له تلفيقه، ولا عليه بعد ذلك من أمر المنهج!!

أما ما سماه نولدكه: (التقدير الإسلامي النظري والمبدئي للقساوسة والرهبان)، فهو ينطلق من موقف الإسلام العام من عدم المساس بالرموز الدينية لليهود والمسيحيين وسائر المقدسات لديهم. كما ينطلق من ترك أهل الكتاب وما يدينون دون إجبارهم على تغيير أفكارهم الدينية؛ وليس يعني الحكم بصوابية معتقداتهم. ولقد روي أن النبي قال لمجاهدي مؤتة: «**اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم، وستجدون فيهم رجالًا في الصوامع معتزلين من الناس فلا تعرضوا لهم...**». لكن البيهقي قال عنه[٥]: (منقطع وضعيف). وإن كان معناه صحيحًا ينسجم مع سياسة الإسلام العامة التي أشرت إليها قبل قليل.

(١) هكذا الترجمة، والأصح: هزيمة مؤتة.

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) البقرة: ١٣٥.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٦-١٧٧.

(٥) سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٩١ رقم (١٧٩٣٥).

المبحث الثالث
دعوى نولدكه المتعلقة بالمرحلتين معًا

يختار نولدكه القول إن النبي اتخذ القبلة المقدسية في أثناء وجوده بمكة؛ مستدلًّا على ذلك بأن النبي استعار اسم الصلاة ذاته من أديان الوحي القديمة؛ وبالتالي يكون غريبًا لو أنه لم يتبع اتجاه الصلاة.

ولقد وظف نولدكه هذا القول لخدمة دعواه عن تحول النبي محمد ﷺ في البحث عن مرجعية؛ قال[1]:

"Nach einer weitverbreiteten Meinung (Weil 90; Muir III,42.; H Grimme, Leone Caetani... Fr. Buhl...) ist die jerusalemische Qibla erst in Yathrib angeordent worden, um die Herzen der dort zahlreichen jüdischen Bevölkerung zu gewinnen (تأليف)*... finden wir doch in den Kommentaren zu Sur. 2, 136 ff. Und einigen Geschichtswerken (Hamis I, 367, Halabi II,297 ff., Tabari pers.II, S.477) jene Tendenz deutlich ausgesprochen. Indessen sind diese Angaben nicht zuferlässig, denn sie widersprchen unseren ältesten und besten Quellen (His. 190. 228. 294. f., Tabari I, 1280; Azraqi 273 nach Waqidi; ibn Athir II; 88), denn zufolge sich Muhammed schon vor der Higra im Gebet nach Jerusalim bzw. Nach Syrien gewandt hat. Der Qoran schweigt sich zwar darüber aus,...... Da Muhammed nicht nur den Namen für das offizielle Gebet (salat), sondern auch zahlreiche Formeln und Riten desselben den ältern Offenbarungsreligionen entlehnt hat, wäre es aufallend, wenn er nicht glichzeitig oder doch sehr früh nach ihrem Beispiele auch eine Gebetsrichtung befolgt hätte".*

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥-١٧٦ الهامش، وقد أوردت هنا ما ناسب إيراده من النص المختار، وسيرد كاملًا فيما بعد.

وترجمته:

«حسب رأي واسع الانتشار لفايل وموير وجريمه وكايتاني وبوهل، فإن اختيار القبلة الأورسالمية[1] أولًا في يثرب تم لتأليف قلوب العدد الكبير من الشعب اليهودي.... إننا نجد في تفاسير سورة البقرة آية ١٣٦ [2] وما بعدها، وفي بعض الأعمال التاريخية («تاريخ» الخميس، الحلبي، الطبري) ذلك الهدف مصرحًا به فيها. إلا أن هذه المعلومات ليست أمينة؛ لأنها تعارض مصادرنا الأفضل والأقدم (ابن هشام، الطبري، الأزرقي حسب الواقدي، ابن الأثير) التي يُروى فيها أن محمدًا توجه في صلاته قبل الهجرة إلى أورشليم أو بمعنى آخر إلى الشام. والقرآن يصمت عن هذا الأمر تمامًا.. إن محمدًا لم يستعر فقط اسم الصلاة الرسمية: (الصلاة)، وإنما أيضًا عديدًا من الصيغ والطقوس لديني الوحي القديمين؛ وسيكون مستغربًا لو أنه لم يتَّبع بالتزامن مع ما ذُكر اتجاه الصلاة متابعة لهما..».

ثم قال[3]:

"Der Grund zur Veränderung der jerusalemischen Gebetsrichtung liegt in der neuen Stellung zu den älteren Offenbarungsreligionen, die Muhammed almählich in Medina gewonnen hatte. Während er sich früher den Juden und Christen nächstverwandt fühlte, bewog ihn die Erfolglosigkeit seiner Propaganda unter diesen, sich nach einer anderen Anknüpfung umzusehen, und er fand sie schließlich in der Reliegion des Ibrahim , den eine Offenbarung eng mit der Ka.ba verflocht ,vgl. Oben S. 146 f. So wurde der heidnische Kultusort zu einem Heiligtum des Islam und als solches zum Ort der Gebetsrichtung ebenso geeignet, wie es Jerusalim für die Juden war".

وترجمته:

---

(١) نسبة إلى (أورسالم) الاسم العربي، وهو الاسم الحقيقي لها، وليس ترجمته العبرية: أورشليم.

(٢) ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٥ هامش١ رقمK.

«إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورسالمية يندرج في إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة، ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة، كما كانت أورسالم بالنسبة لليهود».

وأقول هنا:

إن نولدكه هنا يختار أن قبـلة النبي في مكة كانت بيت المقدس. واعتمد اختياره - كما قال - على سببين:

أولهما: أنـه ورد في ابن هشام والأزرقي والطـبري وابن الأثير؛ وهي المصـادر التي وصفها بأنها: المصادر الأقدم والأفضل *ältesten und besten Queellen*؛

ثانيهما: أنه هو القول الذي ينسجم مع استعارة النبي في مكة من أهل الكتاب اسم الصلاة وبعض الصيغ والطقوس الأخرى؛ فكما اتبعهم في هذه الأخيرة فلا بد أن يكون قد اتبعهم في قبلتهم.

وفيما يتعلق بما جعله نولدكه السبب الأول؛ فإني -رغم ميلي لأن يكون ما ورد في هذه المصادر بهذا الشأن هو الصواب - أشك أن يكون مجرد ذكره فيها سببًا حقيقيًّا وراء قوله؛ لأنه رغم وصفه هنا لهذه المصادر بما ذكر؛ فإنه قد اطرح صراحة أو ضمنًا في مواطن عدة كثيرًا من مروياتها. وما كان تعامله الانتقائي هكذا مع رواياتها إلا ليحقق بالأخذ أو الاطراح رأيًا مسبقًا شكله في وعيه، ثم راح يتلمس له شواهده من تلك المصادر وغيرها.

ولنقرأ الآن ما ذكر في بعض هذه المصادر:

جاء في السيرة النبوية لابن هشام قوله[1]: (وكان رسول الله بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام)،

(١) ج١ ص١٧٩، وج٢ ص٢١٣.

و(وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليماني).

وجاء فيه كذلك[1] تصريح كعب بن مالك - وكان ممن شهد العقبة الثانية - يصف قبلته، ومن معه أثناء سفرهم لموسم حج عام بيعة العقبة الثانية بقوله: (فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام). وتصريحه[2] أن قبلة رسول الله وقتئذ هي الشام.

أما تاريخ الطبري، ففيه[3] قول كعب بن مالك بعد بيعة العقبة الأولى للبراء بن معرور، وقد أراد أن يتخذ الكعبة قبلة: (والله ما بلغنا عن نبينا أنه يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه). ولما عاد البراء إلى مكة في العام التالي؛ ونتيجة لسؤال النبي ﷺ قُبيل البيعة الثانية؛ رجع إلى استقبال الشام.

وأضيفُ إلى مصدري نولدكه ما جاء في بعض كتب السنة عن مجاهد عن ابن عباس: (كان رسول الله يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه)[4].

وفي اعتقادي أن النبي - كما رجح نولدكه - استقبل بيتَ المقدس، وهو في مكة.

أما قول البعض بتوجه النبي في مكة إلى الكعبة في صلاته فيُفَسَّرُ بقول شمس الدين السيوطي[5]:

«والصحيح الذي أطبق عليه الأكثرون أنه لم يُصلِّ بمكة إلا إلى بيت المقدس؛ ولكنه كان يصلي بين الركن اليماني والحجر الأسود فتكون الكعبة أمامه فيظن من يراه أنه يصلي إليها».

---

(١) ج٢ ص٢٧٧-٢٧٨.

(٢) نفسه.

(٣) ج٢ ص٣٦٠-٣٦١.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج١ ص٣٢٥، والبيهقي في سننه الكبرى: كتاب الصلاة، باب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، والطبراني في المعجم الكبير ج١١ ص٦٧ حديث (١١٦٦).

(٥) إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، القسم الأول ص١٨٣.

لكن هذا الاستقبال لا يُفَسَّر على النحو الذي فسره به نولدكه، كما سأبين بعد قليل.

وبشأن ما جعله نولدكه سببًا ثانيًا لاختياره؛ فإنه متعلق بما زعمه من تأثير يهودي أو نصراني على النبي؛ وسأتناول هذا الزعم بإذن الله في دراسة لاحقة. كما أن نولدكه في نصوصه التي ترجمتها أعلاه يوظف توجه النبي إلى بيت المقدس في الفترة المكية كلها، وكذلك في بدايات الفترة المدنية، لادعاء أنه كان يتخذ في ذلك الوقت أهل الكتاب مرجعية له، فقد مر قوله:

«إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورسالمية يندرج في إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم».

وأقول:

إن هذا التفسير مرفوض؛ لأنه لا يعدو كونه ادعاء بلا دليل، لأن أيدينا لم تقع على رواية تقول لنا: إن ذلك كان هو هدف النبي[1]، وبالتالي فإن القول به والبناء عليه لا يعدو كونه ضربًا من التخمين المغرض الذي يُضَحَّى من أجل إقراره بالحكمة الحقيقية، التي أخبر بها من شرع للنبي[2] هذه القبلة أصلًا.

تلك الحكمة أشار إليها القرآن ذاته؛ فلقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الآية[3]؛ حيث أراد القرآن، وهو بصدد تربية أوائل المسلمين أن يصرفهم لبعض الوقت، بأمر منه سبحانه، عن شيء مألوف موروث لديهم؛ بأن يختبرهم باتباع الرسول في اتخاذ بيت

---

(١) هذا إن جازت نسبة اختيارها إليه أصلًا، وهي لا تجوز؛ فقد نسب الله الأمر لذاته العلية فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الآية.

(٢) طيلة إقامته في مكة؛ وسنة وبضعة أشهر في المدينة.

(٣) البقرة: ١٤٣.

المقدس - لا الكعبة - قبلة؛ ليبلو إيمانهم بالله ورسوله، وليقفهم على مدى صدقهم فيه. ولقد بينت الآية أن النفوس - إلا من شرح الله صدورها بهداه - تجد صعوبة كبرى في الالتزام بهذا.

ونستطيع أن نفهم من الآية أن اتخاذ المسلمين الكعبة فيما بعد على الدوام قبلة، كان هو الأصل المقدر في علم الله؛ وأن التوجه لبيت المقدس هو استثناء تم من أجل الحكمة التي بينتها الآية.

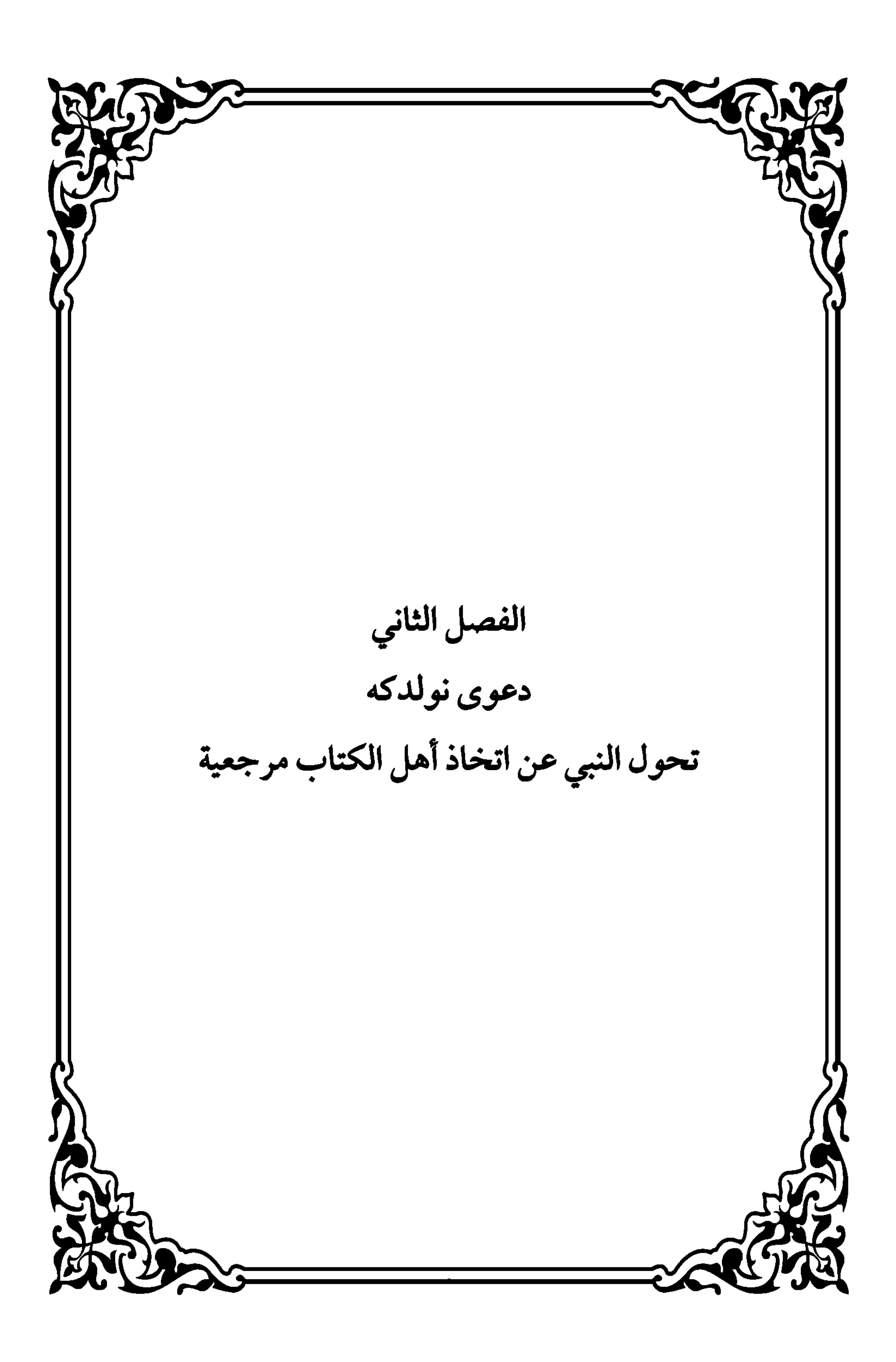
يقول القرطبي[1]: (وكانت قريش تألف الكعبة، فأراد الله عز وجل أن يمتحنهم بغير ما ألفوه ليظهر من يتبع الرسول ممن لا يتبعه).

ويقول سيد قطب[2]: (لقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي؛ ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة... فقد نزعهم نزعًا من الاتجاه إلى البيت الحرام؛ واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى... ليظهر من يتبع الرسول اتباعًا مجردًا من كل إيحاء آخر.. اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ممن ينقلب على عقبيه، اعتزازًا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ).

فبأي منطق يترك نولدكه التفسير الذي قدمه القرآن ذاته لجعل بيت المقدس لفترة قبلة، ليلجأ إلى تفسيره التآمري الذي يُدخِل فيه رسالة النبي في القوالب الاستشراقية سابقة التجهيز؟



(١) الجامع لأحكام القرآن ج٢ ص١٥٧.
(٢) في ظلال القرآن مجلد١ ص١٢٦، وراجع أيضًا ص١٣٢.



الفصل الثاني

دعوى نولدكه

تحول النبي عن اتخاذ أهل الكتاب مرجعية

تمهيد

أتناول في هذا الفصل دعاوى نولدكه التي يقدمها، ويظن أنها تفيده في زعمه أن النبي لما خاب أمله بعد الهجرة أن يترك اليهود دينهم ويتبعوه؛ هاجمهم بعد غـزوة أحد. وكان أول مظهر للهجوم عليهم صلتهم بإبراهيم. ثم انتهت العلاقة بطردهم وإذلالهم. كما زعم أن الحكم القرآني على غير المسلم بالخسران في الآخرة كان على صلة بهذا التحول المدعى.

وسيناقش هذا الفصل دعاوى نولدكه في مبحثين:

المبحث الأول: دعاواه بشأن هجوم القرآن على اليهود: أسبابه، أول مظاهره، نهايته.

المبحث الثاني: دعواه أن تكفير غير المسلم جاء في النهاية.

***

المبحث الأول
دعاوى نولدكه بشأن الهجوم على اليهود

أناقش نولدكه هنا في دعاواه بشأن الهجوم على اليهود: أسبابه، أول مظاهره، نهايته.

فعند حديث نولدكه[1] عن الآية ٣١ المدثر[2] قرر أن النبي بعد أن كان في»بداية العهد المدني لديه فكرة طيبة عن اليهود، وكان يضعهم والمؤمنين في جبهة واحدة؛ فإنه عدهم فيما بعد أعدى أعدائه». وقال[3]:

«لقد تملك محمدًا في بادئ الأمر أمل كبير فيهم؛ بوصفهم أناسًا يعرفون الوحي بالفعل، ولأنهم لم يتركوا في التو رأيهم القديم مراعاة لخاطر النبي الجديد[4]؛ إذ إن إدراك الاختلاف الكبير بين عقيدتهم والإسلام كان أسهل عليهم أكثر منه؛ فقد أخذ الانقسام في التعاظم؛ ولم ينته حتى قُتل كل اليهود وطردوا واستذلوا. إن عداوة اليهود كانت أكثر خطورة؛ إذ إنها لم تكن بوسائل حربية أو سياسية فقط؛ وإنما كانت أيضًا بالاستهزاء اللاذع، والأسئلة المفحمة بشأن أمور تنال من الدين. ولو لم تكن قبائلهم منقسمة إلى قسمين متخاصمين، بسبب حرب الأوس والخزرج؛ لما أمكن لمحمد أن يسحقها واحدة بعد الأخرى».

---

(١) ص٨٨-٨٩.

(٢) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ الآية.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٦٩-١٧٠، وقد أوردت من قبل النص بالألمانية.

(٤) ليست مراعاة خاطر النبي: أيِّ نبي؛ هي الهدف من إيمان المؤمن؛ وبالتالي فلم يكن المطلوب من اليهود أن يتحولوا إلى الإسلام لتحقيق هذا الهدف؛ هذا فضلًا عما في هذا التعبير من إضفاء ظلال شخصية على نبوة محمد ﷺ.

وعن الآيات ٥٨، وما بعدها من سورة آل عمران[1] يقول[2]:

«إلى ذلك الزمن تقريبًا [زمن الخلاف مع بني قينقاع كما يبين سياق نصه] تشير الآيات [المذكورة] التي تضع أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق؛ لأن هذه الفكرة كانت مقدمة متفهمة لتضعضع العلاقة بين النبي واليهود، ولانهيار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم[3]».

وأقول هنا: إن كلام نولدكه هنا يضعنا إزاء دعاوى أربع:

الدعوى الأولى: غزوات النبي ضد اليهود كانت بسبب أنهم لم يتركوا دينهم ويتبعوه. ولقد رتَّب نولدكه ما سماه: قتل كل اليهود وطردهم واستذلالهم؛ على امتناعهم عن ترك رأيهم القديم.

إن هذا الطرح فضلًا عما فيه من تبسيط ساذج للأمر، وتجاوز لحقائق التاريخ، بل وتزوير فاضح له، وحسن ظن مفرط بيهود عصر النبوة؛ فقد دفعت إليه أحكام مسبقة من قبيل اعتماد الإسلام على القسر والإكراه في جلب أتباعه؛ وهي القضية التي عالجها كثيرون، وأشرت إليها من قبل.

والذي يعنينا هنا أن نجيب عن سؤال هو: هل كانت تلك الغزوات الخيار الأول للنبي

---

(١) ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١.

(٣) يُفهم من دعوى نولدكه هنا أن إظهار أهل الكتاب على أنهم كانوا مضادين لدين إبراهيم الحق، إنما تم لتحقيق هدف هو (إجبارهم على الدخول في الإسلام)؛ إذ كأنه يقول: إن النبي عندما انهار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم، جعلهم مضادين لدين إبراهيم الحق. لكن نولدكه لم يقل لنا كيف يمكن أن يتحقق هدف إجبارهم على الدخول في الإسلام؟ (وهو يتطلب إجراءات مادية على الأرض) من خلال تعريفهم أنهم مختلفون عن دين إبراهيم الحق (وهو لا يتعدى كونه مفهومًا عقديًّا مجردًا عن أية إجراءات مادية)، وهذا يطرح من جديد إشكالية منهج نولدكه الدوجماطيقي، وقضاياه التسليمية غير المستندة إلى برهان.

في علاقته مع اليهود، أم أنها سُبقت برغبة حقيقية مـن النبي في التعايش السلمي معهم، لـم تَلق تجاوبًا من جانبهم؟

وأجيب هنا معتمدا نفس المصادر الإسلامية التي اعتمدها نولدكه فأقول:

أ - لقد شهدت بدايات العهد المدني معاملة حسنة من النبي لليهود. واعترف بها نولدكه فقال عنه ﷺ: إنه كان «في أوائل الفترة المدنية يعامل اليهود بشكل لطيف»[1]. وهذه المعاملة الحسنة تحسب للنبي ولا تؤخذ عليه؛ إذ إنها حصلت برغم نقاط الاختلاف الواضحة بين الإسلام واليهودية؛ وبرغم المآخذ التي أخذها القرآن على اليهود وبني إسرائيل.

وإلى جانب هذا تأتي إشارات في بعض النصوص إلى أن النبي وبعض أصحابه ذهبوا إلى مدارس اليهود لمناقشتهم[2].

كما أننا نعلم أن النبي اعتمد وثيقة، سبقت الإشارة إليها، تنظم العلاقة بين مواطني المدينة، ومن بينهم اليهود[3]، تلك الوثيقة ارتضتها معظم القبائل اليهودية.

وإذا كان قد ظهر لنا أن الحرب لم تكن خيار الرسول الأول مع اليهود، فما هو السبب وراءها؟ إن نولدكه يزعم أن سببها كان هو بقاء اليهود على دينهم؛ لكن هذا ليس صحيحا للآتي:

إن ما سبق أن ذكرته من معاملة حسنة من جانب النبي والمسلمين لليهود والوثيقة التي عقدوها معهم وذهابهم إلى مدارسهم؛ يُحبط دعوى نولدكه هذه من أساسها؛ إذ إن ذلك يعني أنه لـم يكن لدى نبي الإسلام، وبالتالي

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق ١ ص ٨٩.

(٢) عن ذهاب النبي انظر: أبو داود: السنن ج٤ ص ١٥٥ رقم (٤٤٤٩) والبيهقي: السنن الكبرى ج٨ ص ٢٤٦ رقم (١٦٨٩٦) وابن هشام ج ٢ ص٣٥٩، ٣٦٩ وعن ذهاب أبي بكر المرجع ص٣٦٤.

(٣) قد مرت الإشارة لهذه الوثيقة.

لدى المسلمين أية روح عدائية مسبقة تجاه اليهودية كدين، أو اليهود كجنس.

ب- كما أن غزوات النبي ضد يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وخيبر لم تأت كلها في وقت واحد، حتى يقال: إن بقاءهم على دينهم كان السبب وراءها؛ وإنما جاءت بالترتيب في شوال ٢ هـ، ثم ربيع الآخر ٤ هـ، ثم ذي القعدة ٥ هـ، ثم المحرم ٧ هـ.. فلو كان بقاؤهم على دينهم هو السبب وراء مصيرهم؛ لعجَّل النبي القضاء عليهم جميعهم عند أول فرصة سنحت له، منتهزًا انتصاره في بدر؛ فلا بد أنه كان لكل مواجهة أسبابها الخاصة التي ليس من بينها كونهم يهودًا؛ وإلا لمَـا كان لهذا التباعد الزمني تفسير.

ج - كما أنه ثبت أن النبي كتب كتابًا وسلمه لعمرو بن حزم، عندما أرسله إلى بني الحارث بن كعب في نجران بعد أن أسلم بعضهم، يقول فيه: «... **ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فلا يُرَدُّ عنها...**»[1]؛ وهذا يدحض تمامًا أي ادعاء من نولدكه أن بقاء اليهود على دينهم كان سببًا في قتال الرسول لهم.

د - ولقد بقي في المدينة بعـد المواجهات مع تلك القبائل اليهودية قبائل وأفراد يهود؛ منهم: يهود بني ساعدة وبني جشم وبني جفنة وبني الشطبة وبني الأوس[2] وبني ثعلبة وبني زريق وبني حارثة وبني عمرو بن عوف وبني النجار وبني هدل[3].

وقد روى سعيد بن المسيب: (أن رسول الله تصدق صدقة على أهالي بيت من اليهود فهي تجري عليهم - أي بعد وفاته -)[4]. و(تصدقت صفية بنت

---

(١) ابن هشام ج٤ ص٤٤١، الطبري: تاريخ ج٣ ص١٢٩ وفيه (يفتن) بدلًا من (يُرد)، ابن سعد ٢/ ١/ ١٢٢.

(٢) ابن هشام ج٢ ص٣١٩-٣٢٠، وأبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال ١٩٦.

(٣) راجع: ابن هشام ج٢ ص٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ج٣ ص١٧٤، والبيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١١٤ رقم (١٨٠٤٢)، وابن حزم: جوامع السيرة ١٥٣.

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال ص٥٤٣.

حيي بن أخطب على ذوي قرابة لها فهما يهوديان فبيع ذلك بثلاثين ألفًا)[1]، وصفية رضي الله عنها لم تصر زوجة للنبي إلا بعد غزوة بني قريظة.

كما أن (رسول الله مات ودرعه مرهونة عند واحد منهم[2] في دين عليه)[3].

كما أن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي كان عليه دين لأحد اليهود في المدينة قبيل غزوة خيبر بأيام معدودة هو أبو الشحم[4]؛ والمعروف أن غزوة خيبر كانت بعد غزوات بني قينقاع والنضير وقريظة.

فلو كان ما ادعاه نولدكه من استهداف النبي إياهم بسبب بقائهم علي دينهم صحيحًا؛ فكيف يفسر بقاء هؤلاء جميعًا في المدينة حتى وفاة رسول الله وبعدها؟.

كما أن بعض أبناء الأوس والخزرج الذين تهودوا لم يكرهوا على التخلي عن اليهودية عند إجلاء يهود بني النضير[5]؛ فلو كان قتال النبي لليهود

---

(١) نفسه.

(٢) أورد الإمام الشافعي (في مسنده ١٤٨) اسمه، فقال هو أبو الشحم اليهودي.

(٣) والحديث صحيح ورد في البخاري: بشرح ابن حجر ج٨ ص ١٥١ رقم ٤٤٦٧، أحمد: المسند ج٦ ص٢٣٧ رقم ٢٦٠٤٠، وسنن الدارمي ج٢ ص٣٣٧ رقم ٢٥٨٢. والبيهقي: السنن الكبرى ج٦ ص ٣٦ رقم ١٠٩٧٤.

(٤) الواقدي: المغازي نقلًا عن التاريخ الإسلامي محمود شاكر الجزء ٢ الخاص بالسيرة ص٣٠٢- ٣٠٣.

(٥) أخرج أبو داود وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال: "كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلات (لا يعيش لها ولد: أبو داود نفس الموضع، وغريب الحديث للخطابي ٣ / ٨١)، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ سنن أبي داود، كتاب الجهاد ج٣ص٥٨، حديث (٢٦٨٢) والواحدي: أسباب النزول ص٧٣ حديث (١٥٥) والبيهقي: السنن الكبرى ٩ / ١٨٦. وقال سعيد بن جبير: فمن شاء لحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام (الواحدي المرجع نفسه ص ٧٤).

لإجبارهم على التخلي عن يهوديتهم؛ لكان هؤلاء أوْلى أن يمارس عليهم هذا الإكراه.

هـ- وإذا لم يكن بقاؤهم على دينهم سببًا في قتالهم.. فهل كان السبب في ذلك هو عدم وفائهم بالتزاماتهم المالية والعسكرية التي تفرضها الوثيقة على كافة الأطراف، أو حتى حملة التشكيك التي قاموا بها ضد النبي والمسلمين؟

إن اليهود لم ينفذوا التزاماتهم المالية والعسكرية التي تفرضها الوثيقة؛ فلم يساندوا المسلمين ماليًّا أو عسكريًّا في غزوة بدر. لكن النبي تجاوز عن ذلك؛ بل كان أحيانًا يرفض عروضًا من بعض المسلمين للاستعانة بالحلفاء من اليهود[1].

كذلك شككوا في نبوته ﷺ بشبهات ساقطة؛ فقالوا عندما مات أسعد بن زرارة في بداية العهد المدني، وقبل أن يفرغ الرسول من بناية المسجد: "لو كان محمد نبيًّا لم يمت صاحبه"[2].

ودعاهم حقدهم على النبي لأن يتنكروا للتوحيد كما جاء به أنبياؤهم العظام؛ فيخدعوا الوثنيين أن أصنامهم خير من دين محمد[3] ليحققوا هدفهم في القضاء على النبي.

كما استغل بنو النضير هزيمة أحد قائلين: (ما محمد إلا طالب ملك؛

---

(١) خرج رسول الله ﷺ حتى إذا خلف ثنية الوداع إذا كتيبة، قال: «من هؤلاء؟» قالوا: بنو قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام. قال: «وأسلموا؟» قالوا: لا؛ بل هم على دينهم. قال: «قل لهم فليرجعوا؛ فإنا لا نستعين بالمشركين». المستدرك على الصحيحين ج٢ ص١٣٣ رقم (٢٥٦٤) والآحاد والمثاني ج٤ ص٩٧ رقم (٢٠٦٨).

(٢) ابن هشام ج٢ ص٣٢٢ الطبري: تاريخ ج٢ ص٣٩٧.

(٣) الطبري: تاريخ ج٢ ص٥٦٥، وفيه أن اليهود قالوا لقريش: دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه "وفيهم قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ النساء: الآيات: ٥١-٥٥.

ما أصيب هكذا نبي قط؛ أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه)[1].

وطرح علماؤهم الأسئلة المتعنتة عليه مستغلين علمهم بالكتاب الأول قاصدين إحراجه لولا أن الوحي كان يؤيده[2]؛ تلك الأسئلة التي يصفها نولدكه نفسه[3] بأنها كانت: «استهزاء لاذعًا، وأسئلة مفحمة بشأن أمور تنال من الدين؛ وهكذا هاجموا النبي قائلين: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيًّا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء[4]. كما سألوا قائلين: خلق الله العالم فمن خلق الله[5]. ولقد كانوا بالفعل مستعدين للإجابة المراوغة عن هذا السؤال، لكنهم أرادوا أن يمتحنوا محمدًا: إن كان يجد شيئًا من هذا القبيل أيضًا. وبطبيعة الحال يرى المسلمون في مثل هذه الأسئلة كفرَ وخبث اليهود»[6].

كما أنهم حاولوا إبعاد النبي عن المدينة من خلال عرضِهم عليه أن يرحل طواعية عنها، مقترحين له الشام (بيت المقدس)؛ حيث سَكَنُ الأنبياء قبله[7]؛ وكذلك محاولتهم ضرب الوحدة الإسلامية بالوقيعة بين الأوس والخزرج[8]. ودورهم في نجوم النفاق؛ إذ كانوا يحرضون فريقًا من ضعاف النفوس عليه؛ يقول تعالى عن المنـافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

(١) الواقدي: ج١ ص ٣١٧ – ٣١٨ المقريزي: إمتاع الأسماع ص ١٤١.

(٢) سؤالهم عن الساعة (ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣)، وعن وصف الله (نفس المرجع ٣٧٥) ومَن خلقه؟ (المرجع نفسه ص ٣٧٤).

(٣) تاريخ القرآن بالألمانيةالقسم الأول ص١٧٠، وهامش ١ بذات الصحيفة.

(٤) أورده الواحدي عن الكلبي في مناسبة نزول الآية ٣٨: الرعد في أسباب النزول ص٢٣٠.

(٥) هذا السؤال الذي يشير إليه نولدكه ورد في ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٥.

(٦) هذا ما يراه المسلمون؛ فهل يرى نولدكه فيه شيئًا آخر؟

(٧) ابن حجر: فتح الباري ج٨ ص١١١–١١٢، وقال ابن حجر: إسناده حسن مع كونه مرسلًا. ولقد ضعَّف الطبري، وابن كثير كون الآية ٧٦ الإسراء: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نزلت في الحادثة المذكورة.

(٨) الواحدي: أسباب النزول ص ٩٩، ١٠٠.

وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[1]؛ حيث رأى ابن عباس وغيره أن المراد بـ ﴿شَيَٰطِينِهِمْ﴾ هنا اليهود[2].

ولقد قللوا من أهمية انتصار بدر مغترين بقوتهم، فقالوا بعده: (لم يلق محمد من يحسن القتال، ولو لقِيَنَا لاقَى عندنا قتالًا لا يشبهه قتال أحد)[3]... صحيح أنهم فعلوا كل ذلك؛ إلا أن النبي ظل محافظًا على عهده معهم؛ لأن تحدِّيَهم حتى مع بروز طابعه العدائي؛ إلا أنه لم يكن قد حمل الطابع الحربي بعد.

ولم يكن استهزاؤهم اللاذع، وأسئلتهم المفحمة سببًا مباشرًا لقتال الرسول إياهم - كما حاول نولدكه أن يفهمنا- بدليل أن النبي قال لعمر عندما اقترح عليه قتل رؤوس الفتنة في بني النضير، إثر شماتتهم المذكورة آنفًا في النبي بعد هزيمة أحد: «**إن الله مظهر دينه، ومعز نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم**»[4]، وكان ذلك في العام الثالث من الهجرة، وبدليل أن كثيرًا من أفعالهم المذكورة هذه بدأت بعد الهجرة مباشرة، في حين كانت المواجهات العسكرية معهم في الأعوام ٢، ٤، ٥، ٧ هـ.

و- لقد نقلت لنا المصادر الإسلامية أن كل مواجهة من المواجهات المذكورة كان لها من قِبل اليهود سبب عدائي واضح يحمل الطابع الحربي المذكور:

---

(١) البقرة: ١٤.

(٢) ابن كثير التفسير ج١ ص٤٩.

(٣) الطبري: تاريخ ج٢ ص٤٧٩ البلاذري: أنساب ج ١ ص٣٠٨، وسنن أبي داود بسنده عن ابن عباس من طريق ابن إسحاق (ج٣ ص ١٥٤). وفي البيهقي بنفس الطريق: (دلائل، باب غزوة بني قينقاع ج٣ / ١٧٣) و ابن هشام (ج ٢ ص ٣٥٩) بلفظ: (يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال! إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا). وبلفظ قريب (ابن هشام أيضًا ج٣ ص ٣٣). فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران ١٢، ١٣].

(٤) الواقدي ج١ ص٣١٧-٣١٨، والمقريزي: إمتاع الأسماع ج١ ص١٤١.

فحادثة بني قينقاع كانت بسبب تحرش بعضهم بمسلمة في السوق، وكشف جسدها بقصد إضحاك جلسائه[1]؛ ويقول الواقدي[2]: «إنهم نبذوا العهد إلى النبي، وحاربوا وتحصنوا في حصنهم»، فحاصرهم النبي، وأمرهم بالجلاء عن المدينة إلى أي مكان يختارونه[3].

أما بنو النضير؛ فقد ثبت في السيرة أن أبا سفيان عزم بعد هزيمة المشركين التي لم يشهدها في بدر أن يثأر؛ فسار في مائتي راكب من مشركي مكة، حتى وصلوا المدينة في ذي الحجة، ودخل أبو سفيان وحده ليلًا على زعيم بني النضير: سلام بن مشكم، فاستقبله و«قراه وسقاه وبَطَن له من خبر الناس»[4] - كما في رواية عبد الله بن كعب بن مالك، من طريق ابن إسحاق، ولم يتوان المشركون المكيون فذهبوا إلى الأماكن التي كشف لهم سترَها زعيمُ يهود بني النضير؛ فحرقوا نخيل المسلمين، وقتلوا أنصاريًّا وحليفه[5].

ونتساءل: تحت أي نوع من الجرائم يمكن أن يندرج ما فعله زعيم بني النضير؟ ندع الجواب للقارئ المنصف.

وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يثبت أن رسول الله اتخذ إجراء ضد بني النضير عقب تلك الخيانة.. لكنهم بعد ذلك دبروا محاولتي اغتيال للنبي:

الأولى: كانت بعد بدر؛ حيث استجاب بنو النضير لطلب قريش منهم قتال النبي، فأرسلوا إليه أنهم يريدون الاستماع إليه، وعرضوا عليه أن يخرج

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ج٩ ص٢٠٠.

(٢) في المغازي ح ص١٧٧.

(٣) ابن هشام ج٣ ص٣٣-٣٥، الواقدي ج١ ص١٧٦-١٨٠ البلاذري: أنساب الأشراف ج١ ص٣٠٩ جوامع السيرة... ابن كثير البداية والنهاية ج٤ ص٣-٤.

(٤) أي: استضافه، وقدم له سر المسلمين وأماكن تواجدهم.

(٥) ولما عرف المسلمون طاردوهم، فتخفف المشركون من أحمالهم، فطرحوها بحرًا ليسهل هربهم، فغنمها المسلمون، وسميت: غزوة السويق. راجع ابن هشام السيرة النبوية ج٣ ص٣١، ٣٢.

إليهم في ثلاثين رجلًا من أصحابه على أن يقابلوه بمثلهم من أحبارهم، فإن أقنعهم بدينه آمنوا. وكان ثلاثة منهم قد أعدوا خناجرهم لاغتيال النبي، لولا أن امرأة منهم فضحت أمرهم لأخ لها مسلم، فأخبر بدوره النبي فرجع ولم يقابلهم[1].

الثانية: كانت لما ذهب إليهم النبي - طبقًا لما بين الطرفين من مواثيق سابقة- مستعينًا بهم في دية قتيلين من بني عامر قتلهما أحد المسلمين خطأ، فتآمروا لقتله قائلين: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه.. فمَن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه.. وكادوا ينفذون المؤامرة، لولا أن جبريل[2] أخبر النبي بها[3]. فأنذرهم أن يغادروا المدينة

---

(١) عبد الرزاق: المصنف ٥/ ٣٥٩ -٣٦٠، وفتح الباري ج٧ ص٣٣١ وبعضه في سنن أبي داود ج٣ ص ١٥٥.

(٢) إخبار جبريل للنبي بالمؤامرة هو الوارد في كتب السنة والسيرة الصحيحة. لكن د. عبد الرحمن بدوي رد إدراك النبي بالمؤامرة إلى مجرد شكه ﷺ فقال (دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره، ص١٠٦): "لما تأخروا في الرجوع شك النبي في أنهم ربما يدبرون مؤامرة لقتله". وليس ثمة ما يدعوه للعدول عن الأحاديث؛ لأن جبريل كما كان يأتي رسول الله بوحي القرآن، كان يأتيه كذلك بوحي غيره. راجع الجزء الثاني من هذه الدراسة. ثم إننا لاحظنا أن النبي لم يتخذ إجراء ضدهم في محاولة الاغتيال الأولى؛ ولعل ذلك راجع لأن الإبلاغ بها تم عن طريق خبر بَشري يحتمل الصدق والكذب؛ فكيف لا يعاقب فيها، ثم نراه هنا يؤسس العقوبة على جريمة لم تثبت إلا بشكه هو؟. وبالمناسبة فإن جهدًا كبيرًا بذله الدكتور/ عبد الرحمن بدوي في كتابيه الأخيرين (دفاع عن القرآن ضد منتقديه)، والكتاب المذكور معنا هنا، وفيهما الكثير من النقاط الإيجابية والمعالجة القوية لبعض الأخطاء البحثية للمستشرقين، نسأل الله أن يتقبلها منه. لكن بهما سلبية ينبغي أن ينتبه إليها الباحثون، وهي موقفه السلبي من بعض الأحاديث، راجع صفحات٦٢، ٦٤ من كتابه (دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره) وقد رجا أن يطول عمره حتى يخصص عملًا للسنة (المرجع نفسه ص٢٠٧) لكنه توفي، رحمه الله، وجعل نيته في مقام العمل.

(٣) ونزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ [المائدة: الآية: ١١]. ابن هشام ج٢ ص٣٦٨.

خلال عشرة أيام؛ لكنهم تحصنوا في حصونهم فحاصرهم حتى استسلموا، وطلبوا أن يرحلوا عن المدينة ويحقنوا دماءهم ويحملوا ما تقدر إبلهم على حمله عدا السلاح. واستقروا في خيبر، وذهب بعضهم للشام[1].

ثم تآمر زعماء بني النضير الذين سكنوا خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق، فألبوا القبائل العربية الوثنية؛ وقالوا لقريش: إنا سنكون معكم حتى نستأصله[2]، وذهبوا إلى بني قريظة الذين كانوا مازالوا محافظين على عهدهم مع المسلمين، فحرضوهم على الانضمام للأحزاب، ففعلوا ونقضوا العهد مع المسلمين. ولما علم النبي بذلك أرسل إلى يهود بني قريظة الزبير بن العوام ثم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير يستوثقون من موقفهم؛ فلما سألوهم عن عهد رسول الله قالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، وشتموا سعد بن معاذ فعادوا إلى الرسول بما رأوا فزاد ذلك من حراجة موقف المسلمين. وزاد الأمر سوءًا أن قام بنو قريظة بمهاجمة بعض مساكن المدينة؛ مستغلين أن المسلمين لم يؤمِّنوا حدود المدينة بالخندق من جهتهم جنوب المدينة؛ لأنهم لم يكونوا ينتظرون غدرًا منهم للعهد القائم بين الجانبين.

يقول أبو بكر الصديق: (لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة أشد من خوفنا من قريش وغطفان)[3].

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ج٧ ص٣٣١، والرواية لابن إسحاق عن يزيد بن رومان وابن هشام ج٢ ص٣٦٧ وج٣ ص١٤٠، الطبري ج٢ ص٥٥٠-٥٥٥، وابن سعد ٢/ ١ ص٤٠-٤٢، والواقدي ج١ ص٣٦٣-٣٨٠، وأنساب الأشراف ج١ ص٣٣٩، وابن حزم: جوامع سيرة الرسول ص١٤٤-١٤٥.

(٢) ابن هشام ج٣ ص١٣٨ – ١٤٠، البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص٢٣٢ رقم (١٨٦٣٦)، والواقدي ج ٢ ص٤٤١ – ٤٤٢ والطبري: تاريخ ج٢ ص ٥٦٥.

(٣) ابن هشام ج٣ ص١٧١ – ١٧٥، والواقدي جـ٢ ص٤٤١ – ٤٩٩ وابن سعد ٢/ ١ ص٤٨-٥٥، والطبري: تاريخ جـ٢ ص٥٧١ – ٥٨٨، البيهقي: السنن الكبرى ج ٩ ص ٢٣٢ رقم ١٨٦٣٦، وابن حزم: جوامع السيرة... وابن حجر: فتح الباري جـ٧ صـ٤١٣ – ٤١٤.

ونلاحظ هنا أن النبي حافظ من البداية على عهده مع اليهود إلى أن خانوا وغدروا؛ قبيلة في إثر قبيلة. وأنه لم يؤاخذ منهم إلا القبيلة التي غدرت؛ فلم يُجْلِ أولًا إلَّا بني قينقاع الذين تحرشوا بالمسلمة وقتلوا المسلم. ولم يطرد إلا بني النضير الذين تآمروا على قتله، ولو بقيت بنو قريظة على عهدها معه ما مسها سوء. كما أن من لم ينقض العهد من بني قريظة (مثل عمرو بن سعد القرظي)[1] لم يمسسه سوء.

وبعد ... فإذا كان نولدكه قادرًا في دعواه التي لم تتجاوز بضعة أسطر أن يتجاهل كل تلك الحقائق المتاحة في المصادر الإسلامية بين يديه؛ فهل يمكننا أن نصدق دعوى موضوعيته التي تزعم له؟

***

الدعوى الثانية: ويبرر نولدكه عدم ترك اليهود رأيهم القديم بأنهم كانوا يدركون بسهولة -أكثر من النبي- الاختلاف الكبير الحاصل بين عقيدتهم والإسلام.

ويؤسفني القول: إن هذا التبرير لا يوجد له أي أساس، ولا يمكن تفسيره إلا في سياق كونه محاولة فاشلة من جانب نولدكه، لخلق مُبَرّر لامتناع معظم اليهود المعاصرين للنبي عن الإيمان به.

أ- لقد سبق[2] إثبات أن إدراك النبي للاختلاف الكبير الحاصل بين عقيدتهم والإسلام كان -على عكس ما يدعي نولدكه- أكبر من إدراكهم هم.

ب- إن أسباب امتناعهم عن الإيمان لا يعود واحد منها للنبي ﷺ؛ إذ إنهم كانوا يعرفون أن عصرهم ذلك كان عصر مبعث نبي، وكانوا يتوقعونه منهم؛ ولذا هددوا به من خالفهم من الأوس والخزرج. لكن خاب ظنهم وخرج من العرب، وهاجر إلى منطقة نفوذهم؛ وحقق نجاحًا سريعًا فاق توقعاتهم؛ فجعلهم يشعرون بعزلة

(١) أورد البيهقي:(السنن الكبرى ج٩ ص٢٣٢ رقم (١٨٦٣٦) أنه قال: لا أغدر بمحمد أبدًا.

(٢) في المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا الجزء.

وتهميش، بعد أن كانوا المحرك الرئيس للأحداث والمواقف قبل قدومه؛ فوقفوا بكل قوتهم في مواجهته للدفاع عن المصالح الدنيوية قصيرة المدى.

قال ابن إسحاق[1]: (حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة؛ كنا قد علوناهم ظهرًا في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون لنا: إن نبيًّا يُبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش فاتبعناه، كفروا به).

وعن ابن عباس[2] أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه؛ فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه؛ فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر يهود! اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم (أحد بني النضير): ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم؛ فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

لكن هذا لم يمنع القليل منهم من أن يَصْدُقوا مع أنفسهم، فيعترفوا أن محمدًا هو النبي الذي كانوا ينتظرون. وقد سبق أن ذكرت أسماء بعضهم. وأضيف هنا أن سبب إسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد من يهود هدل أو بني قريظة، هو أن رجلًا يقال له ابن الهيبان كان يتوقع خروج نبي قد أظل زمانه تكون يثرب مهاجره، وكان ينصح اليهود ألا يسبقهم إليه أحد[4] .

(١) برواية ابن هشام: السيرة.. ج٢ ص ٣٤٩ - ٣٥٠، ونقلها عنه كذلك ابن حجر في الفتح ج٨ ص١٦٢.

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص٣٥٥.

(٣) البقرة: ٨٩.

(٤) البيهقي: السنن الكبرى ج٩ ص١١٤ رقم (١٨٠٤٢).

وتروي لنا السيدة صفية بنت حيي بن أخطب[1] أنه عندما نزل رسول الله قباء في بداية الهجرة، ذهب إليه أبوها وعمها أبو ياسر بن أخطب مُبكّرين، فلم يرجعا حتى غربت الشمس، وبهما غم وهم شديدان. قالت: فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال أبي: نعم والله؛ قال: أتعرفُه وتُثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.

ولقد كان من المفترض أن يساعد النجاح غير العادي الذي حققه رسول الله ﷺ في المدينة اليهود على أن يفكروا بجد في صدقية رسالته ﷺ؛ إلا أن معظمهم تولد لديه حقد وحسد على النبي والعرب: قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2] وقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ الآية[3].

ولقد اعترف بذلك أحد أحبارهم وهو: عبد الله بن صوريا، إذ قال عن إخوانه اليهود: (أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل، ولكنهم يحسدونك)[4]. ولقد شَكّلَ هذا الحسد مانعًا آخر من إسلامهم.

كما أن التعصب لما كان عليه الآباء يأتي أيضًا من بين هذه الأسباب: جاء في ابن هشام[5] عن ابن إسحاق أنه قال: دعا رسول الله اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورَغَّبَهم فيه... فقالوا له: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا؛ فهم كانوا أعلم وأخير منا؛ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ الآية[6].

---

(١) ابن هشام ج٢ ص٣٢٩ – ٣٣٠.

(٢) النساء: ٥٤.

(٣) البقرة: ١٠٩.

(٤) ابن هشام ج٢ ص٣٦٩ وأبو داود: السنن ج٤ ص١٥٥ رقم (٤٤٤٩) والبيهقي: السنن الكبرى ج٨ ص٢٤٦ رقم (١٦٨٩٦).

(٥) ج٢ ص٣٥٩.

(٦) البقرة: ١٧٠.

وكان بعض رؤسائهم يريد أن يميل الرسول عن الحق لصالحهم، إذ كانوا طرفًا في قضاء بين يديه، وكان المقابل هو أن يؤمنوا به قائلين: "إن اتبعناك اتبعتك يهود"؛ فكان رسول الله يأبى ذلك؛ وأنزل الله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]

ج- وفي إسلام بعضهم - (أحصيت في الفصل السابق أسماء خمسة عشر فردًا منهم) - حجةٌ تلزم من لم يسلم منهم؛ إذ إن مصادر تشكيل الوعي الديني لديهم واحدة.

إن إسلام كل هؤلاء اليهود يدحض تبرير نولدكه لعدم اتبـاع اليهود النبي. كما أنه يؤكد ما قلناه من أن امتناع كثير من اليهود المعاصرين للنبي عن الإيمان به يعود لأسبابهم الخاصة، بدليل أن هؤلاء الذين أسلموا -وبعضهم من علمائهم- لما تخلصوا من هذه الأسباب الخاصة لم يسعهم إلا الإيمان بالنبي. وحتى الذين لم يسلموا منهم؛ لم يستطع بعضهم إلا أن يعترف بنبوة محمد ﷺ، لكنهم يقولون: (إنه للعرب فقط، أما نحن فلسنا مطالبين بالإيمان به)؛ وفي هذا يقول الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[2].

---

(١) المائدة: ٤٩-٥٠، والرواية ذكرها ابن هشام ج٢ ص٣٧١، وجاءت في البيهقي: دلائل ج٢ ص٥٣٦.

(٢) البقرة: ٧٦-٧٨، والرواية في تفسير ابن كثير ج١ ص١١٠ قال: " قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا" أي: أن صاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا؛ فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ..." وانظر: ابن هشام، لكن بدون سند ج٢ ص٣٤٦.

د - كما أنهم تحاكموا إلى نبي الله محمد ﷺ في رجل وامرأة منهم زنيا، وهما متزوجان فنفذ فيهما رسول الله حكم التوراة برجمهما؛ وكان اليهود قد عطلوا هذا الحكم فكان النبي أول من أحياه[1]. وتحاكم إليه بنو النضير وبنو قريظة في قضية قتل[2].

إن تحاكمهم للنبي ينطوي على اعتراف ضمني برسالته.

ولقد أدرك واحد من بني النضير هو كنانة بن صوريا أن تحول النبي عن المكان الذي كان يأوي إليه يوم قرروا اغتياله رغم سرية المؤامرة؛ ما كان ليتم لولا أن خبر المؤامرة جاءه من السماء[3].

نخلص إذن إلى بطلان التبرير[4] الذي ساقه نولدكه لبقاء معظم يهود عصر النبوة على رأيهم القديم، وإلى الجزم بأن أسبابهم الخاصة التي ذكرنا بعضها هي التي كانت وراء ذلك.

***

الدعوى الثالثة: يحدد نولدكه هنا بداية تحدي اليهود للنبي فيجعلها بعد غزوة أحد؛ يقول[5]: "ربما بدأ [هذا التحدي] بعد غزوة أحد التي ذاق فيها المسلمون هزيمة قاسية. إلى هذا تشير الآية ١٠٧ [6] التي تتحدث عن أذى اليهود الذين لم يتورعوا عنه -على ما يظهر- حتى قبل النزاع العلني، وهذا يتناسب مع الوقت الذي انحدر فيه المؤمنون إلى حظ سيئ أوقعهم فيه خبث أعدائهم؛ ولهذا فإن هذه الآيات يمكن أن تكون قد نشأت قبل الحرب مع بني النضير بفترة قصيرة.... إلى نفس الوقت تقريبًا تنتمي الآيات ١١٤[7]

(١) ابن هشام جـ ٢ ص٣٦٨ - ٣٧١ وورد تحاكمهم إليه ﷺ في سنن أبي داود ج ٤ ص ١٥٣-١٥٤ رقم (٤٤٤٩)، (٤٤٥٠)، وسنن البيهقي الكبرى ج ٨ ص ٢٤٦ رقم (١٦٨٩٦).

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧١.

(٣) الطبري: تاريخ ج٢ ص ٥٥٢.

(٤) وهو: إدراكهم الاختلاف الكبير الحاصل بين عقيدتهم والإسلام.

(٥) ص١٩٢.

(٦) ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ الآية.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية.

وما بعدها التي يقال فيها: إن اليهود لا يخفون عداوتهم ضد المسلمين الذين أصيبوا بسوء حظ: الآية ١١٦[1]، لذا فإننا نستطيع أن نربط هذه الآيات بالمقطع الذي يعالج الغزوة التي مضت قبل فترة ليست بطويلة على جبل أحد (شوال من العام ٣ هـ)".

لكن هذا التحديد غير مسلم؛ إذ لم تتأخر بداية تحدي اليهود للنبي إلى هذا الوقت. فقد مر تشكيكهم في نبوته في بداية العهد المدني، ولقد كانت فعلة يهود بني قينقاع قبل عزوة أحد.

***

الدعوى الرابعة: أن صلة اليهود بإبراهيم كانت أول مظاهر الهجوم القرآني عليهم. عن الآيات ٥٨ و ما بعدها من سورة آل عمران[2] يقول نولدكه[3]: "إلى ذلك الزمن تقريبًا [زمن الخلاف مع بني قينقاع كما يبين سياق نصه] تشير الآيات [المذكورة] التي تضع أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق؛ لأن هذه الفكرة كانت مقدمة متفهمة لتضعضع العلاقة بين النبي واليهود، ولانهيار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم".

وأقول هنا: إن نولدكه يضعنا قسرًا مرة أخرى إزاء رؤيته التركيبية الملفقة للأحداث التي يفهمها بطريقته الخاصة؛ فكما لفق من قبل حكمه بأن النبي طرد واستذل وقتل كل اليهود، بسبب أنهم لم يتركوا رأيهم القديم ويتبعوه؛ يلفق الآن حكمه بأن النبي بسبب فقدانه الأمل أن يدخل أهل الكتاب الإسلام باختيارهم؛ هاجمهم بأن جعلهم مضادين لدين إبراهيم الحق.

وكعادة نولدكه دائما أنه لا يطرح آراءه على أنها فرضيات تقبل النقاش وتحتمل الخطأ؛

---

(١) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ الآية.

(٢) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١.

وإنما يطرحها على أنها أحكام؛ موهمًا قارئه أن الأحداث المتعلقة لا تفسر إلا من خلال السياق التركيبي الذي يضعها نولدكه فيه.

لكننا بتحليل هذا السياق إلى قضاياه المركَّبة له يتبين لنا حجم التدليس الذي ارتكبه نولدكه في دعواه هنا؛ إذ يزعم أن النبي انهار أمله في هداية اليهود، وأن ذلك تسبب في إظهار القرآن أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق، كما ادعى أن الحكم بأن الخلاف مع اليهود حول إبراهيم عليه السلام، كان مقدمة لتضعضع العلاقة بين النبي وبينهم، وأنه تزامن مع الخلاف مع بني قينقاع؛ ثم يظهر لنا أن بعض هذه المقدمات بلا دليل، وبعضها خاطئ:

أ - فبشأن زعمه انهيار أمل النبي في هداية اليهود؛ فليس لدى نولدكه على الإطلاق أي دليل على أن النبي قد حدث له ذلك مع أي من البشر، حتى لو كانوا يهودًا؛ فالمنهج القرآني الذي تربى عليه النبي يعصمه من اليأس ويربيه على الصبر[1].

ولو كان انهيار الأمل في هداية أحد قد عرف طريقه إلى النبي ﷺ لما توقف عند اليهود وحدهم؛ بل كان يتعداهم كذلك إلى مشركي العرب؛ فقد دخلوا معه في صراعات طويلة، وبرغم ذلك ظل رسول الله مستمسكًا بالأمل في هدايتهم جميعًا طيلة حياته.

وقد يقال هنا: إن نولدكه انطلق في زعمه انهيار أمل النبي في هداية اليهود من قول الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]؛ لكن هذا المنطلق غير صحيح؛ لأن هذه الآية تبين للنبي أن كون اليهود يعلمون الوحي القديم ليس مؤشرًا على أنهم

(١) وذلك في مثل: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس ١٠٩]، و﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل﴾ [من الآية ٣٥ الأحقاف]، و﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور ٤٨]، و﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام ٣٤، ٣٥].

(٢) البقرة: ٧٥.

سيسارعون للإيمان الجماعي بالوحي الجديد؛ فقد كان لهم موقف سلبي من الوحي القديم، وكذلك سيكونون مع الوحي الجديد، وهذا لا يمنع من أن يبقى لدى النبي الأمل في إيمان بعضهم؛ هذا الإيمان الذي حدث بالفعل كما مر.

هذا بالإضافة إلى أن الزمن الذي حدده نولدكه للانهيار المزعوم لأمل النبي هو زمن الخلاف مع بني قينقاع؛ لكن الآية المذكورة تنتمي إلى زمن نزول سابق، هو بداية العهد المدني كما مر.

ب- وبشأن زعمه أن الانهيار المزعوم لأمل النبي فيهم هو الذي تسبب في أن يُظهر القرآن أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق أقول: إن هذا الزعم ينشئ علاقة ارتباطية بين أمل النبي في طائفةٍ، وجودًا وعدمًا، وبين السكوت عن أخطائهم وكشفها، بحيث نصل إلى هذه الصيغة التي يفرضها كلام نولدكه حتمًا:

أمل النبي في إيمان طائفة يؤدي إلى سكوت القرآن عن انحرافاتهم.

انهيار أمل النبي في هذه الطائفة يؤدي إلى كشف القرآن لانحرافاتهم.

فهل هذه الصيغة صحيحة؟

إن أدنى تواصل مع القرآن الكريم يبين أنه في الوقت الذي كان يملأ فيه نفس النبي بالأمل في هداية المشركين، فإنه لم يتوقف إطلاقًا عن كشف زيف عقائدهم الباطلة[1]. فإذا كان الأمر كذلك بشأن المشركين فلمَ لا يكون أيضًا كذلك بشأن اليهود؟

إن نولدكه لم يبين وجهًا يُفضي لأن يكون اليهود متميزين في هذا الجانب. ومن ثم يبقى الأمر على إطلاقه. ومادام قد ثبت أنه ليس ثمة ترابط في الشق الأول من الصيغة المذكورة؛ بطل بالتالي الترابط في شقها الثاني ونصل إلى نتيجة هي: أن كشف القرآن لانحرافات اليهود لم يكن يستدعي على الإطلاق أن ينهار أمل النبي فيهم أولًا.

(١) وإذا وضعنا أيدينا على أي موضع قرآني مكي؛ سنرى ذلك في غاية الجلاء.

ج- وبشأن زعمه التزامن بين إظهار القرآن أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم الحق، وبين الخلاف مع بني قينقاع؛ فقد أخطأ في ذلك لسببين:

أولهما: أنه بشأن الآيات: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.. نقول: إن نولدكه قد حدد زمن نزول هذه الآيات بوقت الخلاف مع بني قينقاع، دون أن يعتمد على أيةِ رواية أو حتى اجتهاد واضح المعالم.

ثانيهما: أن آيات آل عمران التي معنا ليست أول ما نزل لبيان أن أهل الكتاب كانوا "مضادين لدين إبراهيم الحق"؛ فقد سُبقت بما نزل في سورة البقرة –التي تُعد، وباعتراف نولدكه نفسه أول ما نزل في المدينة– كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، و﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[1]؛ وبالتالي فلا يصح الربط الزماني لهذا البيان القرآني بوقت الخلاف مع بني قينقاع.

د- أما بشأن حكمه أن الخلاف مع اليهود حول إبراهيم عليه السلام كان مقدمة لتضعضع العلاقة بين النبي وبينهم فهو حكم باطل؛ إذ إن الخلاف المذكور كان قد سُبق بمواضع كثيرة في القرآن المكي[2] ذُكر فيها بعض أوجه الخلاف معهم.

(١) البقرة: ١٣٥، ١٤٠.

(٢) جرى تفصيلها من قبل، ويلخص أبرز ما جاء عنهم فيه في: نزوعهم نحو الوثنية، وإفسادهم، واختلافِهم، وبغيهم، وتَوَعد الله إياهم بالعذاب والخزي، ووصفِهم بما فيهم من أوصاف قبيحة، وذكرِ بعض أخطائهم في حق نبي الله موسى، وأن ذلك وغيره إذا كان عن سلفهم؛ فإن خَلَفَهم من الأجيال اللاحقة باعوا ما ورثوه من الكتاب لقاء عرض الدنيا الزائل. راجع ذلك مفصلا صفحات: ٢٥-٢٨.

كما أن سورة البقرة -التي تُعد وباعتراف نولدكه نفسه أول ما نزل في المدينة- حفلت بعدد كثير من الآيات التي تفضح بعض صفات وفعال معظمهم وترد عليهم[1]. فليس صحيحًا إذن أن الخلاف مع اليهود حول إبراهيم عليه السلام، كان مقدمة لتضعضع العلاقة بين النبي وبينهم.

نخلص إذن إلى بطلان السياق التركيبي الملفق، الذي وضع فيه نولدكه إظهار القرآن أهل الكتاب مخالفين لدين إبراهيم.

* * *

(1) فتذكر عدم التزامهم بالبر الذي يدعون الناس إليه، وعدم شكرهم نعم الله عليهم في تاريخهم الطويل، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير الحق، ومخالفتهم لموسى رسول الله إليهم وتمردهم عليه، وقسوة قلوبهم، وتحريف بعضهم كلام الله وكفرهم ببعضه، واتخاذهم العجل، وتشبثهم بالدنيا وحرصهم عليها، وعدائهم لجبريل ونقضهم العهود... إلخ.

المبحث الثاني
دعواه أن تكفير غير المسلم جاء في النهاية

لقد نظر نولدكه إلى (حكم القرآن على غير المسلم بأنه خاسر في الآخرة) على أنه تطور في فكر محمد ﷺ، مرتبط بتحوله المدعى في البحث عن مرجعية[1].

قال[2]: "ينبغي بالتأكيد أن تكون آية ٧٩ [3] من سورة آل عمران متأخرة؛ حيث فيها يُفتح العذاب الأبدي على كل الكافرين. لكن هذه الحجة *Beweisgrund* ليست صالحة، لأنه لم يكن ثمة داع مطلقًا لأن يُفهم كل غير المسلمين على أنهم كافرون. نحن نعلم أن محمدًا كان ما يزال يَعُدُّ في سنوات نشاطه المدني الأولى المسيحيين الحقيقيين مؤمنين[4]".

وأقول هنا: إن نولدكه ادعى اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية فترة من الزمن، ثم تحول عنهم لما لم يؤمنوا به، وكفَّرهم وتحول عنهم إلى إبراهيم ليتخذه مرجعية جديدة.

ونولدكه بحاجة -حتى تكتمل نظريته- لأن يدعي أن (حكم القرآن على غير المسلم بالخسران الأخروي) هو حكم متأخر. ولأن نظريته على هذا القدر من العوز والاحتياج؛ فإنه يستخدم تعبير: (ينبغي بالتأكيد أن تكون متأخرة *(soll sicher spät sein)*.

---

(١) هذا الرأي، وإن لم يكن مستمدًا من تصريح واضح لنولدكه، إلا أنه مفهوم من السياق العام لدعواه.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص ١٩١.

(٣) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وهي في مصحفنا الآية رقم (٨٥) وليست (٧٩)، كما في مصحف فلوجل الذي استخدمه نولدكه[المؤلف]..

(٤) ويحيل إلى سنوك هورجرونيه *C. Snouck Horgronje* في كتابه بالألمانية (الأعياد المكية)، طبعة ليدن ١٨٨٠ ص٤٢، والتي تليها، كما يحيل إلى كتابه موضع دراستي ص ١٤٦.

ومن يستخدم هذا القدر من الجزم لا تشك بالضرورة أنه يعتمد على المراجع الأصلية؛ لكننا هنا نفاجأ أن نولدكه اعتمد على المستشرق البريطاني *Weil* [1] دون أن يرجع إلى مصدر إسلامي واحد، بل لم يكلف نفسه الرجوع إلى القرآن الكريم ذاته.

إن دعوى نولدكه هنا باطلة بالنظر إلى الآية ذاتها من حيث وقت نزولها، وكذلك بالنظر إلى ما تحمله من حكم يتعلق بغير المسلم:

فأما بطلانها بالنظر إلى الآية ذاتها؛ فإن نولدكه لو رجع إلى المصادر الإسلامية لظهر له أنه رغم ما قيل عن تأخر نزول الآيات من ١ – ٨٣ من سورة آل عمران[٢]؛ إلا أن الآية التي معنا، وهي رقم ٨٥ لا تدخل في هذا الخلاف، وهي تنتمي إلى القسم الأعظم من آل عمران الذي نزل في الربع الأول من العهد المدني. وبالتالي فإن حكم القرآن بالخسران الأخروي لغير المسلم، أو ما يسميه نولدكه: "فتْحَ العذاب الأبدي على كل الكافرين" ليس متأخرًا كما زعم.

وأما بطلانها بالنظر إلى ما تحمله من حكم يتعلق بغير المسلم، ويرى نولدكه أنه حكم متأخر؛ فإنه غفل أو تغافل عن أن هذه الآية ليست وحدها في القرآن التي قررت هذا الحكم، ولو كان نولدكه قد رجع إليه لوجد أن التصريح بأن الإسلام هو الدين الوحيد المقبول؛ وأن الخسران ينتظر كل الكافرين.. لم يكن شعار نهاية المرحلة المدنية؛ بل كان موجودًا بهذا الحسم، أو بما يقترب منه أو يزيد عليه في القرآن المكي والمدني على حد سواء:

ففي القرآن المكي: جعلت سورة الأنعام الإسلام والهدى في قِرن، بما يعني أن الكفر ضلال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]. كما أوجبت اتباع صراط الله المستقيم ونهت عن اتباع السبل ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤].

(1) das Leben Mohammads K.1. S. 73 f. K. 2 S. 83.

(٢) راجع ردي على هذا في الملحق في نهاية هذا الجزء.

(٣) الأنعام: ٧١.

(٤) الأنعام: ١٥٣.

وقُسِّمَ الجن في السورة المسماة بهذا الاسم إلى قسمين: المسلمين الذين وصفوا بأنهم تحروا الرشد[1]؛ والقاسطين أي: (الجائرين عن الحق الناكبين عنه)[2] الذين وصفوا بأنهم كانوا لجهنم حطبًا؛ قال تعالى حكاية لقول الجن المؤمنين: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

ووَضعت سورة الروم المكية[3] المسلمين الذين يؤمنون بآيات الله في مقابل الكافرين الموصوفين بالموت والصمم والعمى والإدبار عن الحق: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[4].

كما وُضع الإسلام في سورة الأنعام المكية كذلك -بما يحققه لصاحبه من رحمة في الآخرة- في مقابل الشرك بما يجلبه لصاحبه من عذاب أخروي: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

كما وَصَفت نفسُ السورة شرح الصدر للإسلام بأنه هداية من الله؛ ووصفت غيره بالضلال وعدم الإيمان واستحقاق الرجس: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

ووُضِعَ الإسلام في سورة الزمَر المكية - بشكل صريح - مناقضًا للكفر الذي يجلب الخسران المبين: خسران النفس والأهل وعذاب النار في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ

(١) ومفهوم المخالفة هنا أن من لم يسلم فهو في الضلال.

(٢) ابن كثير: التفسير ج٤ ص٤٣١.

(٣) في "مَثل ضربه الله للكافرين والمسلمين" ابن كثير: التفسير ج٣ ص٤٢٢.

(٤) الروم: ٥٢، ٥٣ و بدون فاء "إنك.": النمل: ٨٠، ٨١.

(٥) الموضعان هما: الأنعام: ١٤-١٦، ١٢٥.

أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

وكذلك وَضعت سورة القلم المكية المسلمين مقابل المجرمين في المصير الأخروي: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ولذلك كله بينت سورة الحجر تمني الكافرين يوم القيامة أن لـو كانوا مسلمين: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾؛ وما ذلك إلا لما وجدوه في الآخرة من خسران.

كما وصفت سورة الجاثية ما يغاير شريعة الله بأنه: "أهواء الذين لا يعلمون" ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

وفي أوائل القرآن المدني نزولًا: نجد في سورة الصف -التي يعدها نولدكه نفسه من أول ما نزل بالمدينة[2]- آيةً تصف ما أُرسل به رسول الله بأنه الهدى ودين الحق، وأنه سيظهر على كل دين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[3].

ونجد في سورة آل عمـران -التي نزلت في الفترة من ٢ إلى ٣ هجرية[4]- إعلانًا مماثلًا للذي رجح نولدكه تأخره. هذا الإعلان هو أن دين الله الوحيد المقبول عنده هو الإسلام، وهو الذي أرسل الله به كل رسله وأنبيائه[5]؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

---

(١) أرقام الآيات في الفقرتين الأخيرتين هي بالترتيب ١١- ١٦ الزمر، ٣٤- ٣٥ القلم، ٢ الحجر، ١٨ الجاثية.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص IX, X

(٣) ٩ الصف، وقريب منها ٢٨ الفتح في العام السادس من الهجرة.

(٤) راجع الملحق بهذا الجزء.

(٥) وجاء الاختلاف فيما بعد من الذين أوتوا الكتاب.

وفيها كذلك إنكار على من يدينون بغير دين الله أو حتى الذين لا يلتزمون ببعض شرائعه: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

كما وَسَمَتْ السورة ذاتُها بالكفر من يتحولُ من الإسلام إلى اتخاذ الأرباب: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

كما نجد فيها إعلانًا أن هداية الجميع: أهلِ الكتاب والأميين لن تتحقق إلا بالإسلام؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ وَالْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ﴾[1].

وفي سورة البقرة يوضع الدخول في الإسلام بكافة شرائعه مقابل اتباع خطوات الشيطان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ﴾[2].

فهل بعد كل هذه الآيات يمكن أن نصدق نولدكه في دعواه أن الحكم على غير المسلم بالخسران تأخر في النزول، وجاء في نهاية المرحلة المدنية؟

أما رفض نولدكه لهذا الحكم القرآني بدعوى أنه «لم يكن ثمة داع مطلقًا لأن يُفهم كل غير المسلمين على أنهم كافرون»؛ فإن الأمر على العكس من ذلك تمامًا؛ إذ إن دواعي هذا الحكم قائمة؛ فقد بين القرآن أن الإسلام بمعناه العام -بغض النظر عن الفروق في بعض تفاصيل الشرائع- هو دين الله الواحد الذي أرسل به جميع الأنبياء والرسل من لدن آدم إلى خاتمهم محمد، وأنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وأن جميع الأنبياء قد أُرسلوا به، وأنهم يصدق بعضهم بعضًا، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم جميعًا، وأن خاتمهم محمد ﷺ الذي يجب على أهل الكتب السابقة - الذين شهدوا مبعثه أو سمعوا عنه - أن يؤمنوا به. وبالتالي فمن لم يؤمن به فقد كفر بدين الله ودين جميع الأنبياء؛ وبالتالي فالحكم القرآني هنا له دواعيه[3].

(١) آل عمران: ١٩، ٨٣، ٢٠.

(٢) البقرة: ٢٠٩. التي هي أول ما نزل في المدينة السيوطي: الإتقان ص ١٤.

(٣) راجع الملحق في نهاية هذا الجزء.

ورغم ذلك فهو حكم عقدي، لا يترتب عليه أي مساس بالحقوق القانونية لأي من أهل الكتاب الذين بقوا على دينهم ولم يصيروا محاربين.

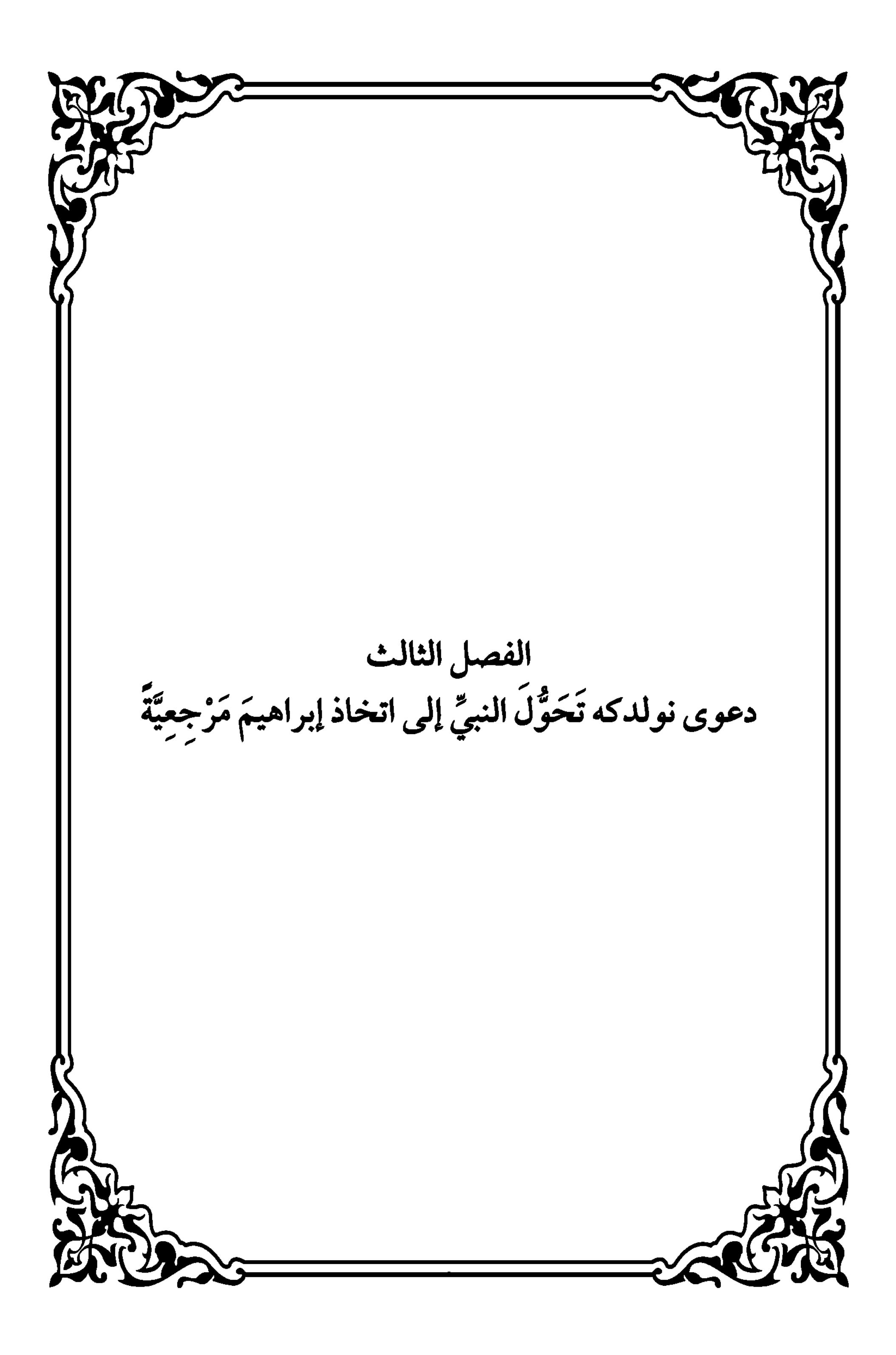
والآيات والأحاديث الدالة على هذا معروفة، يستنبط منها أن الإسلام فرَّق في هذه المسألة بين مستويين:

المستوى العقدي، وقد حكم فيه بشكل لا يقبل المساومة على النحو الذي رأيناه.

والمستوى القانوني، حيث عَدَّ هؤلاء مواطنين يتمتعون بحقوقهم دون مساس بها، وحكم أن «**لهم ما لنا وعليهم ما علينا**» وأن «**من ظلم ذميًّا أو معاهدًا فأنا خصمه يوم القيامة**».. إلخ تلك النصوص التي يحتاج تناولها بتفصيل لبحث مستقل.

أما ما يستدل به من أن محمدًا كان ما يزال يَعُدُّ في سنوات نشاطه المدني الأولى المسيحيين الحقيقيين مؤمنين؛ فقد سبق أن تناولته بالمناقشة. والله أعلم.





الفصل الثالث
دعوى نولدكه تَحَوُّلَ النبيِّ إلى اتخاذ إبراهيمَ مَرْجِعِيَّةً

تمهيد

سأناقش نولدكه هنا في عدة دعاوى مكملة للفصلين الماضيين. تنطلق هذه الدعاوى من نظرية نولدكه: أن النبي طيلة وجوده بمكة، وبدايات وجوده في المدينة كان يتخذ اليهود والنصارى مرجعية؛ لكنهم لما كذبوه في المدينة ورفضوا الإيمان به كان ردُّ فعله في المدينة أن كوَّن تصورًا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام.

عناصر هذا التصور الجديد كما يفهم نولدكه:

أن إبراهيم أسس الكعبة هو وإسماعيل، ولذا أقحم النبي في القرآن المدني اسم إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي، وأعلن النبي أن له صلة بإبراهيم عليه السلام، وأنه يتبع ملته؛ ولذا اتجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخلها ومكة في شعائر الحج.

وبعض نصوص نولدكه بهذا الشأن تناولت دعاوى متداخلة؛ لكن بعضها الآخر كان محددًا - تقريبًا - في طرح دعوى واحدة. وسأذكر هنا في البداية عدة نصوص له تناولت عدة دعاوى، وأؤجل النصوص التي تعرض دعوى واحدة لحين ورودها في موضعها من الفصل؛ يقول[1]:

"قد أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآية ٤٥ النحل و٧ الحج[2]. وتأتي خيبة الأمل

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦ - ١٤٧، وسبق أن أوردت قوله هذا في مطلع هذا الجزء، لكني أعيده هنا لمركزيته في عرض نظرية نولدكه (المؤلف).

(٢) خُتمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى يتخذها مرجعية[1] لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط: ١٣٥ البقرة[2]".

ويقول[3]: "لا يجوز لنا أن نستغرب أن يشعر محمد في النهاية[4] بصلة مع إبراهيم، فإن هذا البطريرك[5] الذي ينظر إليه لدى كل من اليهود والنصارى - على حد سواء - على أنه النموذج الأكمل للإخلاص والانقياد للدين، ويعامل[6] كأب لكل الأتقياء وأولياء الله. إن اصطفاء محمد لإبراهيم يتعلق بما يستمد من سورة البقرة، الآيتان ١١٩ و ١٢١ من أن إبراهيم هو مؤسس الحرم المكي".

ويقول[7]: "إن الفترة إثر هذه الغزوة [بدر] هي زمن نزول الآيات ٨٧-١١٣ من سورة آل عمران[8].

وفي هذه الآيات [كما يقول] تقدير لملة إبراهيم: آية ٨٩ [9]، وإدخال للحج إلى مكة في عبادة الإسلام: آية ٩٠ ،وما بعدها[10].

---

(١) عبارته الألمانية هي:
So muß er sich eine über ihre kontrolle erhabene Instanz suchen

(٢) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية.

(٣) ص١٤٧.

(٤) لاحظ قوله: (في النهاية).

(٥) *Patriarch*: وتعني الأب الأكبر [المؤلف]..

(٦) الرأي بأن إبراهيم هو أب للشعب العربي لا يستحق أن يتخذ موضوعًا [للنقاش] (نولدكه).

(٧) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١ - ١٩٢.

(٨) من ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية إلى ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفيها مواجهة مع اليهود، وأمر باتباع ملة إبراهيم، وإشارة إلى البيت الحرام بمكة، وفرض الحج إليه على المستطيع ... الخ. [المؤلف].

(٩) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(١٠) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآية، والتي تليها.

وعن الآية ١٢٤ من سورة النساء[1]؛ وفيها ذكر ملة إبراهيم يقول[2]: "إنها لم تنزل قبل غزوة بدر".

ثم يُدخل نولدكه أيضًا تحويل القبلة إلى مكة في سياق دعواه، لكني سأجمع بين نصه في هذا ونقدي له.

وهذا الفصل عن دعوى نولدكه (اتخاذ محمد ﷺ في النهاية إبراهيم مرجعية) سأناقش نولدكه فيه في النقاط الآتية:

منهج طرحه هذه الدعوى، وأصلها، وحديثه عن دافعين مزعومين شجعا النبي على تشكيل تصوره الجديد عن إبراهيم، ودليل نولدكه على كونه تصورًا جديدًا.

ثم أتناول الدعاوى الآتية:

- أن قول القرآن بتأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة إنما كان تصورًا جديدًا عنهما، كَوّنَه النبي في المدينة ردًّا منه على عداء اليهود له.
- أن الآيات التي تربط بين إبراهيم والكعبة هي مدنية.
- أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي.
- أن النبي أوجد في القرآن المدني علاقة بينه وبين إبراهيم عليه السلام، حيث شعر النبي أنه موصول بإبراهيم، وجاء الأمر بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخلت ومكة في شعائر الحج، وقدَّر القرآن ملة إبراهيم.

وسيأتي هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول**: ملاحظات تمهيدية وتحليل.
- **المبحث الثاني**: دعاواه بشأن ما نسبه القرآن إلى إبراهيم وإسماعيل.

---

(١) ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٢٠٣ – ٢٠٤.

- **المبحث الثالث:** دعاواه بشأن علاقة النبي بإبراهيم.

***

المبحث الأول
ملاحظات تمهيدية وتحليل

يتناول هذا المبحث أربع ملاحظات تمهيدية بشأن هذه الدعوى، كما يتناول كذلك تحليلًا لكلام نولدكه هنا:

المطلب الأول: الملاحظات التمهيدية:

الأولى منهجية، **والثانية** بشأن أصل دعواه، **والثالثة** بشأن حديثه المزعوم عن دافِعَيِ النبي لتكوين تصوره الجديد عن إبراهيم، **والرابعة** بشأن دليل نولدكه على ذلك التصور:

الملاحظة الأولى: إن تحكم الهوى والآراء المسبقة في مناهج البحث الاستشراقية جعل القضية الواحدة موردًا لآراء استشراقية متناقضة غاية التناقض؛ ففي حين ينظر نولدكه هنا لعلاقة النبي بإبراهيم على أنها رد فعل لتكذيب اليهود به ﷺ وتباعدهم عنه؛ فإن مستشرقًا آخر هو ريجي بلاشير رأى أن هذه العلاقة كانت تمهيدًا لرغبته ﷺ في التقارب معهم!!! قال[1]:

"لقد رأينا منذ ما قبل سنة ٦٢٠-٦٢٢م أي ما قبل الهجرة إلى المدينة (بسنتين أو أكثر) أن موقف القرآن من إبراهيم قد آذن بتقارب ممكن بين الإسلام الفَتِيِّ واليهودية. ولم يكن من شأن إقامة النبي في المدينة المنافسة لمكة إلا أن يقوي هذا الميل ... ".

وأرى أنه لا يمكن لهذا التناقض أن يُفَسَّـر إلا بأن كلًّا منهما قد تملكته آراء مسبقة؛ فراح ينظر إلى المعطيات التاريخية بشأن: (موقف القرآن من إبراهيم) من زاوية ما لديه من هذه

---

(١) ريجي بلاشير: القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره ص٧٤.

الآراء؛ فوظَّف نولدكه تلك المعطيات لتخدم رأيه: (تحول النبي عن اتخاذ اليهود مرجعية إلى اتخاذ إبراهيم)؛ ووظفها بلاشير لتخدم رأيه أنها: (تمهيد للتقارب مع اليهود).

إننا نلاحظ أن كلًّا منهما لم يُغفل استخدام اللهجة الحاسمة الجازمة التي لم تترك أية فرصة للاحتمال. فهل هكذا يكون المنهج العلمي؟

لكن أيًّا ما كان الأمر، فسأتناول بعد قليل بالمناقشة والنقد هذه الشبه التي تُوهِم لِذِي النظرة العجلى أن نولدكه وصل بسببها إلى النتيجة النهائية.

الملاحظة الثانية: إن نولدكه اعتمد في أصل دعواه هذه على ادعاء شبرنجر *Sprenger*[١]: (تطور نظرة النبي إلى إبراهيم)؛ ومن ثم توسع فيه سنوك هورجرونيه[٢] *Snouck Hurgronje*[٣]؛ ثم نقله عنهما فنسنك[٤] *Wensenk* في مقالته في دائرة المعارف الإسلامية[٥]، ووجدنا كذلك أصداءها عند ج. فون جروينباوم[٦].

---

(١) في كتابه *die Lehre des Mohammed, Berlin 1869*.

(٢) كريستيان سنوك هورجرونى هولندي (١٨٥٧-١٩٣٦) يُعد بالنسبة لوطنه (هولندا) كنولدكه لألمانيا. عمل أستاذًا في لايدن من ١٩٠٦-١٩٢٧ عمل لخدمة الاستعمار متخفيًا في مكة عام ١٨٨٥، كما يقول رودي بارت، وأصدر من ثم كتابه (مكة) في جزأين عامي: ١٨٨٨، ١٨٨٩م. كما عمل في مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية. راجع رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية.. المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة د. مصطفى ماهر ص٣٠-٣١، ومحمد علي حثيثو: في تعليقاته على كتاب: المستشرقون الألمان لصلاح الدين المنجد ١٢٣ ود. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٢٤٥، وما بعدها.

(٣) في كتابه: *Het mekaansche Feest, Leiden 1880* واعترف نولدكه بهذا فقال (تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٦ هامش٢): "أَستمِدُّ أدلة الحجج الآتية من: سنوك هورجروني: الأعياد المكية، طبعة ليدن ١٨٨٠ ص٢٨-٤٠. وهذا المؤلف يبرز أيضًا، وبحق في الرسائل المتأخرة أهمية إبراهيم لتطور موقف الوحي المحمدي المبكر".

(٤) فنسنك كان عضوًا بالمجمع اللغوي في القاهرة، لكنه لما نشر رأيه في الرسول مدعيًا أنه ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته طرد منه، انظر د. حسين الهواري: (المستشرقون والإسلام) ص٧١٠ ود. محمد البهي: (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) ص٤٥٠.

(٥) مجلد ١، مادة (إبراهيم).

(٦) في كتابه: حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز جاويد ١٠٥ - ١٠٦.

الملاحظة الثالثة: في زعم نولدكه أن دَافِعَي النبي لتكوين هذا التصور الجديد المزعوم عن إبراهيم، هو ما ادعاه من خيبة أمل النبي في اليهود؛ وكون إبراهيم ليس له أتباع ليعارضوه في تصوره الجديد.

١- فبشأن الدافع الأول المزعوم؛ فقد سبق أن ناقشت بالتفصيل دعوى خيبة أمل النبي في اليهود.

٢- وبشأن الدافع الثاني المزعوم؛ وهو زعمُ عدمِ وجود أتباع لإبراهيم، يعارضون النبي ﷺ في جميع عناصر ما زُعم من تصور جديد عند النبي عن إبراهيم أقول:

إن نولدكه يدعي أن النبي لما عارضه اليهود في المدينة؛ بحث عن جهة أعلى مرجعية له؛ أو بعبارته[1]: "وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى، باعتبارها مرجعية لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته".

كما نلاحظ هنا أن نولدكه تكلم عن الأنبياء الذين ليس لهم طوائف؛ وهؤلاء حددهم الرازي[2] بأنهم: إسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط.

وسأتناول ذكر القرآن لإسماعيل في مكان آخر؛ والباقون لم يكن ذكرهم مقتصرًا على الفترة المدنية، بل ذكروا أكثر في المرحلة المكية؛ وهو الأمر الذي يناقض نظرية نولدكه.

فقد ذُكر لوط في القرآن سبعًا وعشرين مرة؛ منها خمس وعشرون في القرآن المكي وحده، وذُكر يونس أربع مرات؛ منها ثلاثة في المكي وحده، وذُكر اليسع مرتين؛ كلاهما في المكي.

من الآيات المكية التي ذكَرَتْهُم: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى

(١) ق ١ ص ١٤٦- ١٤٧.

(٢) التفسير الكبير ج ١٢ ص ٤١٤.

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾، ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

إن هؤلاء الأنبياء قدامى، وليس لهم طوائف معاصرون للنبي؛ ورغم ذلك ذُكروا في القرآن المكي، وكان ذكرهم في المكي أكثر منه في المدني، وهذا يناقض نظرية نولدكه.

هذا من جانب؛ ومن جانب آخر فإنه لو كان المعيار في تحديد ما سماه نولدكه: المرجعية العليا للنبي عدمَ وجود أتباعٍ للجهة المختارة مرجعية؛ لكان مما يتفق مع هذا ألا يستمر القرآن المدني فيما كان القرآن المكي قد فعله؛ من وصل النبي بأنبياء بني إسرائيل الذين زعم نولدكه أنهم كانوا مرجعية النبي في مكة؛ فيختفي منه ما يُشعر بالصلة بين النبي وكلٍّ من موسى وعيسى؛ لوجود من يزعمون أنهم أتباع لهما، ويعارضون النبي بالفعل؛ ولاكتُفِيَ فيه بوصل النبي بالأنبياء الذين قال نولدكه عنهم: إنهم ليس لهم طوائف يعارضونه.

لكن الواقع خلاف ذلك؛ ففي القرآن المدني استمرار للتأكيد على أن دين محمد ﷺ هو دين موسى وعيسى والأنبياء جميعًا[2].

إن دعوى نولدكه هنا تفترض أمرين، كلاهما باطل:

أولهما: أن أتباع إبراهيم لم يكونوا موجودين.

ثانيهما: أنهم إن وجدوا كانوا سيعارضون النبي.

وأجيبُ عن الأول بأنه قد ثبت فعلًا وجود بعض أتباع إبراهيم الذين سُموا: الحنفاء "كان معظمهم نُسّاكًا تشككوا في عبادة الأصنام، وساحوا في الأرض بحثًا عن الدين الصحيح دين إبراهيم.. واعتقدوا بوحدانية لله خالصة، كالوحدانية التي نادى بها إبراهيم دون أن يشركوا فيها أحدًا"[3].

---

(١) والآيات بالترتيب هي: الأنعام: ٨٦، وص: ٤٨، والأنبياء: ٧٤، والصافات: ١٣٣، ١٣٩.

(٢) راجع الملحق.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام ص٤٣٥.

صحيح أنه لم يصلنا من أسمائهم كثير، لكن ذاكرة التاريخ قد وعت منهم:

سويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميري، وكعب بن لؤي بن غالب[١]، وعثمان بن الحارث[٢]، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وقس بن ساعدة الإيادي، وعلاف بن شهاب التيمي، وأمية بن أبي الصلت، والقلمس بن أمية الكناني[٣]، وورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد، وأبا عامر الراهب الذي كان ممن يذكر النبي ويؤمن به، ويعد الناس بخروجه، وكان قد تأله في الجاهلية، ولبس المسوح، وترهب؛ فلما بعث الله رسوله حسد وبغى، وأقام على كفره، وشهد مع المشركين قتال رسول الله ببدر؛ فسماه رسول الله الفاسق[٤]،وحنظلة بن صفوان[٥]، وخالد بن سنان العبسي[٦]، وأبا قيس صيفي بن الأسلت من الأوس، وكان يقال له الحنيف[٧].

ويُضم إليهم بعض من حرموا الخمر في الجاهلية؛ لغلبة الظن أنهم فعلوا ذلك تأثرًا بالحنيفية[٨]؛ ومنهم: قيس بن عاصم التميمي، وصفوان بن أمية بن محرس الكناني، وعفيف بن معدي كرب الكندي[٩].

---

(١) وهو أحد أجداد رسول الله، وكان يأمر قريشًا بالتفكير في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويحثهم على صلة الأرحام وحفظ العهد، ويذكرهم بالموت وأهواله د. السيد عبد العزيز سالم: (تاريخ العرب قبل الإسلام). وراجع د. محمود شكري الألوسي: (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) ج٢ ص٢٨٢.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: (تاريخ العرب قبل الإسلام) ص٤٣٥.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢٣٨-٢٤٠، ٢٤٢.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت ج٣ ص٥٤٠.

(٥) الذي يذكر ابن حبيب عنه أنه نبي أصحاب الرس.

(٦) ويُروى عن ابن عباس أنه كان نبيًّا. راجع د. عبد الله الشاذلي: الحكمة العربية في أصالتها الفطرية ص٢٩٥.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت ج٤ ص٤٨٣.

(٨) أحصى أستاذنا د. عبد الله الشاذلي من حرموا الخمر تحت تأثير الحنيفية في كتابه: الحكمة العربية ص٢٩٣.

(٩) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢٣٩، وراجع ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٣٨-١٣٩ =

وكذلك يضم إليهم من كان يؤمن بالله الخالق في الجاهلية، لغلبة الظن أنهم فعلوا ذلك تأثرًا بالحنيفية؛ وهم: النابغة الذبياني، وعامر بن الظرب العدواني، وزهير بن أبي سلمى المزني وعبد الطابخة بن ثعلب بن وبرة من قضاعة[1] وعمرو بن عبسة السلمي[2] وأبو ذر الذي كان مؤمنًا بالله عازفًا عن الأصنام قال: "وقد صليت لله.. قبل أن ألقى رسول الله بثلاث سنين.. أتوجه حيث يوجهني ربي"[3]. ومن أجل وضوح دعوة التوحيد عنده، قال له أخوه أنيس: "لقيت رجلًا بمكة (يقصد رسول الله) على دينك، يزعم أن الله أرسله"[4].

فهؤلاء كانوا بشكل أو آخر أتباعًا لإبراهيم عليه السلام، وقد عاصر بعضهم في الفترة المكية، وعاصر بعضهم الآخر في العهد المدني. فلا تسلم لنولدكه دعواه عدم وجود أتباع لإبراهيم عليه السلام.

وأجيب عن الثاني (وهو دعواه أن أتباع إبراهيم - إن وجدوا - كانوا سيكذبون محمدًا

= ولقد ذكر محمد بن حبيب (المُحَبَّر ٢٣٧- ٢٤١) تحت عنوان: (من حرم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام) منهم: "عبد المطلب بن هاشم، وشيبة بن ربيعة، وعثمان بن عفان، وورقة ابن نوفل، والوليد بن المغيرة، والعباس بن مرداس، وقيس بن عاصم السعدي، وعبد الله بن جدعان، ومِقيَس بن قيس بن عدي السهمي، وعامر بن الظرب العدواني، وصفوان بن أمية بن محرث الكناني، وعفيف بن معدي كرب الكندي، والأسلوم اليامي الكندي، وأبو أمية بن المغيرة، والحارث بن عبيد، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي، وعامر بن حِذْيَم الجمحي، وأبو ذر الغفاري، ويزيد بن جعونة الليثي، وأبو واقد الحارث بن عوف الكناني، وعمرو بن عبسة السلمي، وقس بن ساعدة الإيادي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وزهير بن أبي سلمى المزني، والنابغتان: الذبياني والجعدي، وحنظلة الراهب بن أبي عامر، وقبيصة بن إياس بن أبي غفر بن النعمان بن حية".

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ص٢٣٩، وراجع ابن حبيب: المحبر ص٢٣٧-٢٣٨. ويكتبه د. السيد عبد العزيز سالم (تاريخ العرب قبل الإسلام ص٤٣٧): عبد الطابخة.

(٢) قال عن نفسه: إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة، ولا أرى الأوثان شيئًا" مسند أحمد ٤/ ١١٢، رقم (١٧٠٦٠).

(٣) مسلم بشرح النووي المجلد ٦ ج١٦ ص٢٧-٣١ رقم (٢٤٧٣)، وابن حجر: الإصابة ج٧ ص١٢٥ رقم (٩٨٦٨).

(٤) نفسه.

في استناده إلى إبراهيم) بأن أقول: إن هذا الافتراض الذي جعله نولدكه يقينيًّا لم يؤسس على أية حجة. فهو إذن افتراض موهوم.

كما أن هذه الدعوى تفترض وهمًا آخر، هو أن النبي كان سيضع أمر تكذيب أتباع إبراهيم في اعتباره، وهو الذي لم يُلْقِ بالًا لتكذيب اليهود والنصارى، رغم قوة بأسهم وكثرة عددهم ووجود كتب مقدسة لهم؟

فَلِمَ لا يتوقع نولدكه أن محمدًا ﷺ كان سيسلك نفس المسلك مع أتباع إبراهيم؟

وأعود ثانيًا إلى افتراضه التكذيب، فأتساءل كذلك: لِمَ يفترض نولدكه هذا التكذيب؟ إن افتراضه هذا خادع؛ لأنه يوحي لقارئه بحتمية مخالفة النبي لإبراهيم عليه السلام. كما أنه يتجاهل الحنفاء الذين أسلموا واتبعوا محمدًا ﷺ؛ فلقد تعرف ورقة بن نوفل على نبوة محمد في بدايات الوحي؛ وأسلم عمرو بن عبسة السلمي[1]. وإسلام أبي ذر الغفاري أشهر من أن يوثق.

أما زيد بن عمرو بن نفيل؛ فقد شاعت عنه حكاياتُ بحثِه عن الحنيفية حتى قتل؛ لكن ولده سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كان من أوائل الداخلين في الإسلام، ويُفترض أنه أعلم الناس بأبيه وموقفه الديني؛ فلو كان قد لاحظ تناقضًا بين أصول ما جاء به النبي والحنيفية؛ لما سارع للدخول في الإسلام. وهذا نفسه ينطبق على زوجة أبي عامر الراهب عصيمة بنت أبي الأفلح التي أسلمت وبايعت النبي[2]، وكذلك أولاده: حنظلة شهيد أحد وغسيل الملائكة، وحبيبة، والشموس؛ الذين رغم جحود أبيهم وحسده للنبي؛ إلا أنهم أسلموا وبايعوا النبي[3].

إذن فالواقع التاريخي كذّب توقع نولدكه أن أتباع إبراهيم إن وجدوا سوف يكذبون محمدًا.

---

(١) مسند أحمد ٤/ ١١٢ رقم (١٧٠٦٠).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى دار صادر بيروت ج٨ ص٣٤٦

(٣) راجع: ابن سعد: الطبقات الكبرى دار صادر بيروت ج٣ ص ٥٤٠، وما بعدها وج ٥ ص٨١، وما بعدها وج٨ ص ٢٢٩، وما بعدها و٣٤٥، وما بعدها.

الملاحظة الرابعة: بشأن الدليل الذي يطرحه نولدكه على دعواه:

يذكر نولدكه أن القرآن المكي يبين أن الله لم يرسل قبل محمد ﷺ نذيرًا إلى العرب؛ لكن الرؤية تتغير في القرآن المدني؛ حيث يتم تشكيل تصور جديد عن إبراهيم أنه باني الكعبة؛ يقول[1]:

"Die Bevorzugung Abraham's durch Muhammed hängt weiter aufs engste zusammen mit der Ansicht von "Sur. 2. 119, 121, daß jener der Gründer des mekkanischen Heiligtums sei. Auch diese Ansicht mag sich der Prophet erst in Medina gebildet haben. Denn noch in den späteren mekkanischen Suren steht es für ihn fest, daß Allah vor ihm keinen «Warner» zu seinen Landsleuten gesandt habe (Sur. 32, 2; 34, 13; 36,5). Da außer V. 124 noch V. 111 und 119, 120 sicher. V. 113-118 mglicherweise medinisch sind, liegt es nahe, das ganze Stück V.111-125 in diese Zeit zu versetzen".

وترجمته:

إن "تفضيل محمد [ﷺ] لإبراهيم يتصل بشكل وثيق بوجهة النظر الواردة في سورة البقرة الآية ١١٩، والآية ١٢١[2] بأنه مؤسس الكعبة في مكة. ولعل النبي كون وجهة النظر هذه أول مرة في المدينة؛ لأنه يوجد في السور المكية المتأخرة بشكل مؤكد أن الله لم يرسل إلى قوم محمد قبله نذيرًا: ٢ السجدة، و٤٣ سبأ، و٥ يس[3]. لذا فظاهر الآيات ١١١ و١١٩ و١٢٠ و١٢٤ من سورة النحل[4] بشكل يقيني - مدني. والآيات ١١٣-١١٨ من

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٧.

(٢) هذا وفق ترقيم فلوجل، وهما عندنا الآيتان: ١٢٥، ١٢٧: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، و﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

(٣) الترقيم حسب فلوجل، لكن الآيات هي: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾، المؤلف.

(٤) الترقيم أيضًا حسب فلوجل؛ لكن الآيات هي: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ=

نفس السورة[1] مدنية هي الأخرى، لكن بشكل محتمل. وقريب من هذا أن النصوص الكاملة من الآيات ١١١-١٢٥ من سورة النحل[2] قد نشأت في هذا الوقت[3]".

واستدلال نولدكه على دعواه هنا بما ورد في القرآن المكي من نفي إرسال نذير إلى قوم النبي ﷺ قبله؛ لي معه وقفة.

إنه يشير إلى الآيات ٤٦ القصص، و٣ السجدة، و٦ يس، و٤٤ سبأ. والآيات مرتبة هي: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾. ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾. التي فيها أن الله لم يرسل قبل محمد ﷺ نذيرًا إلى أهل مكة.

ويتضح بشيء من القراءة المتأنية أن المنفي هنا ليس مطلق نذير للعرب قبل النبي ﷺ؛ بل (نذير لهم معه كتاب سماوي)، و(نذير من العرب إليهم)، و(نذير قريب العهد بمن عاصر النبي منهم):

أ- أما أن العرب لم يُرسل لهم نذير معه كتاب سماوي، فإننا نفهم ذلك من وضع الآيات في سياقها الذي وردت فيه؛ ولتطبيق هذا هنا فإننا نلاحظ في الموضع من سورة القصص أن نَفْيَ مجيءِ نذيرٍ قبل النبي ﷺ إلى قومه؛ قد سُبق بذِكر

= رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾، ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المؤلف.

(١) من: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ الآية إلى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المؤلف.

(٢) من: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ الآية، إلى ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية، وهنا آيات: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المؤلف.

(٣) وهكذا هوبرت جريمة *Hubert Grimme* في كتابه محمد - الجزء الثاني، لكن بدون تعليل (نولدكه).

وحي الله إلى موسى بعضَ التوراة: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾؛ كما سُبق بنداء الله له بجانب الطور[1]: ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾؛ قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

كما نلاحظ في آيات السجدة ويس وسبأ أن نفي إنذار القوم أو آبائهم، أو نفي إرسال رسول إليهم قبل النبي محمد ﷺ سُبق في آيتين بذكر الكتاب وأنه الحق من الله (السجدة)؛ وذِكرِ القرآن وأنه تنزيل العزيز الرحيم (يس)؛ كما سُبق في الثالثة بنفي إنزال الله على قوم محمد كتبًا يدرسونها (سبأ)... فيُفهم النفي إذن - بعد أخذ سياق الورود في الاعتبار - أن قوم النبي لم يأتهم نذير بكتاب قبل محمد ﷺ؛ ولو فهمناه على إطلاقه لكنا قد عزلنا النص عن سياقه الذي ورد فيه.

ب- كما أن آية سبأ تبين على وجه صريح أن قوم النبي لم يؤتَوْا قبل محمد ﷺ كتابًا سماويًّا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾.

فيمكننا إذن أن نفسر بهذه الآية الإطلاقَ من باب حمل المطلق على المقيد، فيكون نفي النذير إنما يعني نفي إرسال نذير بكتاب خاص للعرب.

وهذه الآية ليست وحدها في تقرير أن قوم النبي لم يؤتوا كتابًا قبل محمد ﷺ؛ فمثلها في هذا الآيات: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾، ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾، والاستفهام في الثلاثة بمعنى النفي، ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

---

(١) والآية التي تتناول نفس الحادثة هي: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾: [٥٢ مريم]؛ عن ابن عباس قال: "أُدنِيَ حتى سمع صريف القلم" قال مجاهد وأبو العالية: "صريف القلم بكتابة التوراة".

(٢) الآيات بالترتيب هي: الزخرف: ٢١، القلم: ٣٧، فاطر: ٤٠، الصافات: ١٥٧.

ج- كما يمكننا أن نصل لبعض الدلالات من كثير من الآيات التي فيها ذِكرٌ لأداء النبي لواجب الإنذار؛ حيث ربطت ذلك بتنزيل القرآن[1] على النبي محمد ﷺ. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾، و﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ﴾، و﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، و﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية، و﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[2].

فهذا الارتباط يبين بنحوٍ ما أن ثمة خصوصية معينة لوضعية محمد ﷺ مع قومه؛ إذ إن إنذاره لهم مقترن بكتابٍ هو أداةُ الإنذار ووسيلتُه، بخلاف من أنذروهم من قَبله فلم يحصل معهم هذا الاقتران.

وكونُ العرب لم يُرسَل إليهم نذير بكتابٍ أمرٌ ثابت قرآنًا، ثابتٌ تاريخًا:

فمن جهة القرآن؛ نلاحظ أن إبراهيم قد أُرسل بصُحُفِه[3] إلى قومه؛ وهم أبناءُ أورِ الكلدانيين في العراق الذين عناهم القرآن في كل موضع تناول فيه قيام إبراهيم بتبليغ دعوة الله؛ مجليًا في الوقت نفسه ردهم عليه ومجادلتهم له[4].

ولم يَرد في القرآن ما يشير إلى أن العرب قُصدوا في أيٍّ من تلك المواضع.

(١) أو الكتاب أو الذكر.

(٢) الآيات مرتبة هي: الأنعام: ١٩، الأعراف: ٢، مريم: ٩٧، الشورى: ٧، والكهف: ١-٢، الأحقاف: ١٢، والأنعام: ٥١.

(٣) قال تعالى (الأعلى: ١٨-١٩): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾

(٤) في الآيات: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الآية، و﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، و﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ الآية، و﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، و﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية، و﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ وهي بالترتيب: الأنعام: ٨٣، والأنبياء: ٥٢، والعنكبوت: ١٦، والزخرف: ٢٦، والتوبة: ٧٠، والحج: ٤٣.

ولقد استمرت رسالة إبراهيم بصحفه تلك إلى أن لقي ربه بين أبنائه وذريته في فلسطين. ودورُه الذي حدثنا القرآن عنه في مكة هو رفع قواعد البيت الحرام فقط.

ومن جهة التاريخ؛ نرى أنه لو كان لإبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- كتاب أنزل للعرب؛ لما كان في تخصيص إطلاق القرآن وصفَ أهل الكتاب على اليهود والنصارى وحدهم وجهٌ؛ ولَمَاَ ذاعت في العرب من قديم تلك القسمة الثنائية: (أهل الكتاب والأميون) قاصدين بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، وبالأميين: العرب.

كما أنه لو كان لإبراهيم وإسماعيل كتابٌ للعرب؛ لما تفرق بقايَا الحنفاء الباحثين عن حقيقة دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في البلدان يلتمسونها. لكنهم تفرقوا؛ فقد ورَد[1] أن أربعة منهم «تفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم»، «وكان زيد بن عمرو بن نفيل قد أجمع الخروج من مكة ليضرب في الأرض؛ يطلب الحنيفية دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها. ثم أقبل فجال الشام كله ... حتى إذا توسط بلاد لخم [في أثناء العودة إلى مكة] عَدَوا عليه فقتلوه»[2].

د- وأمّا أن العرب لم يُرسَل إليهم نذير منهم قبل محمد ﷺ فتُوَصِّلنا إليه الآياتُ التي فيها ابتهالُ إبراهيم عليه السلام إلى الله تعالى، واستجابة الله له أن يُرسل إلى العرب رسولًا منهم؛ فلقد ذكر الله دعاء إبراهيم[3]: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حيث يدعو إبراهيم أن يبعث الله في العرب رسولا منهم. واستجاب الله له؛ قال تعالى[4]: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ

(١) في سيرة ابن هشام جـ١ مجلد ١، ص١٣٨- ١٣٩.
(٢) المرجع نفسه ص ١٤٣.
(٣) البقرة: ١٢٩.
(٤) البقرة: ١٥١.

وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾، وقال[1]: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

فالإشارة في الآية التي ذكرت دعاء إبراهيم؛ وفي الآية التي ذكرت استجابة الله تعالى له بإرسال رسول من العرب؛ يمكن أن تجعلنا نفهم الآيات المذكورة فيما سبق وتنفي مجيء نذير لقوم النبي على أنه نفي لمجيء نذير لهم يكون منهم؛ فقوم النبي ﷺ إذن لم يأتهم قبل محمد نذير منهم وهذا أمر ثابت تاريخًا أيضًا[3].

وأمّا أن العرب المعاصرين للنبي لم يُرسَل إليهم نذير؛ فمن المعلوم أن المدة بين إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ تزيد عن الألفي عام[4]. ولم يأت في هذه المدة نذير إلى قوم محمد ﷺ.

«وقد حكى الرازي[5] قول بعض العلماء: «إن حجة الأنبياء كانت قائمة عليهم، (أي على العرب المعاصرين للنبي)، ولكن لم يُبعث إليهم من يجدد تلك الحجة. وقال سيد قطب[6]: «قد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل منذ أبيهم إسماعيل».

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) وصْف الضلال بـ(مبين) يحمل في طياته الشدة في مظاهره. والطول في مدته. ومعلوم تاريخيًا مدى تجذر الشرك في الجزيرة العربية، وطول مدته فيها قبل رسالة محمد ﷺ.

(٣) أما صالح وشعيب وهود الذين ورد في الحديث عنهم أنهم من العرب (رواه ابن حبان في صحيحه، وورد في البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص ١٢٠) فهم من العرب البائدة غير المتنسبين لإسماعيل عليه السلام، وكانوا قد اندثروا كما يقول عمر فروخ (ص ٤٥ تاريخ الجاهلية ج١ بيروت ط ١٩٦٤) بحكم عاملين: "الرملِ الزاحفِ الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة وفي الأحقاف وهياجِ البراكين، وما ترتب عليه من تدمير المدن". ولا يخفى ما ذكره القرآن عن العقوبات الدنيوية التي ألحقها الله بقرى المكذبين لهؤلاء الأنبياء الثلاثة، وهي من قبيل ما ذُكر.

(٤) وفقًا لتحديد جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام ص٢٧٦.

(٥) التفسير مجلد ١٢ ج ٢٣ ص٢٩٣، في تفسير الآية ٤٦ القصص.

(٦) الظلال ج٥ ص ٢٦٩٨.

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار[1]: «إن المفسرين يقولون: إن الموجودين من هؤلاء القوم لم يباشرهم رسول يبلغهم دين الله ويهديهم إلى الدين الحق».

ويدعم هذا أن الإنذار الفعلي الذي هو علة بعثة محمد كما توضح الآيات لم يقع فعلًا منه ﷺ؛ ولا يمكن أن يقع عقلًا؛ إلا لقوم محمد المعاصرين له دون الأجيال الموغلة في القدم منهم. وقد أشارت الآيات إلى أولئك المنذَرين بلفظ (قوم)، وكذلك ضمير الجمع الغائب (هم) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

وما دام إنذار محمد ﷺ لم يقع، ولا يمكن أن يقع إلا لقومه المعاصرين له دون غيرهم من الأجيال التي سبقتهم؛ فإن نَفْيَ إرسال نذير قبله إلى قومه يُفهم منه نفي نذير لقومه المعاصرين له.

وأخيرًا فلا يمتنع أن يكون القرآن نافيًا مجيء نذير من قوم النبي إليهم قبله في أي عصر؛ بكتاب سماوي أو بدونه؛ ونافيًا كذلك مجيء نذير من غيرهم إليهم بكتاب سماوي في أي عصر؛ ويكون نافيًا لإرسال نذير لقوم النبي المعاصرين له. وهذا كله واقع تاريخي.

وبالتالي فلا يمكن أن تكون الآيات المذكورة تحمل تناقضًا مع ما جاء من علاقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالكعبة.

المطلب الثاني: تحليل الدعاوى الواردة هنا:

بعد أن تبين لنا خطأ نولدكه فيما زعمه من دافعين شجعا النبي على تشكيل تصور جديد عن إبراهيم، وخطؤه كذلك في دليله الذي زعمه لهذا التصور؛ نبدأ الآن في تحليل ما ادعاه بهدف حصر الدعاوى المتضمنة فيه وتحديد كل دعوى حتى لا تتداخل الدعاوى ومن ثم تتداخل الردود.

---

(١) قصص الأنبياء ٩٩.

إن نصوص نولدكه التي معنا تطرح علينا دعاوى خمسًا تنطلق كلها من فكرته أن النبي كَوَّن في المدينة تصورًا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام.

عناصر التصور الجديد هي:

أن النبي ﷺ أصبح له في المدينة صلة بإبراهيم، فقال إنه على ملته التي هي الإسلام، وأنه أسَّسَ الكعبة؛ ولذا اتجه إليها النبي في الصلاة؛ وأدخلها ومكة في شعائر الحج.

هذه الدعاوى إجمالًا بنيت على كون القرآن من عند النبي؛ وهذا غير صحيح؛ فهو كلام الله الذي لا تأتي مواقفه المبدئية كردود أفعال.

إن سائر الأمور المذكورة، وهي: الأمرُ القرآنيُّ باتباع ملة إبراهيم التي كانت الإسلام، ورفعُ إبراهيم قواعد الكعبة، وأمرُ الله للنبي ﷺ بالتوجه إليها في الصلاة، وإدخالُها ومكة في شعائر الحج... هذه الأمور المذكورة لا تنسب بحال للنبي؛ لأن القرآن هو كلام الله وليس للنبي فيه تدخل خاص؛ وبالتالي فإن القرآن: مكيَّه ومدنيَّه حين كان يذكر أية حقيقة: تاريخية أو شرعية؛ لم يكن يراعي غضب المعاصرين له وقت تنزله أو رضاهم؛ أيا كان انتماء أولئك المعاصرين؛ بل كان يذكرها مجردة من أي اعتبار من هذا القبيل. من هنا وجدنا القرآن يهاجم من يقولون إنهم أتباع موسى وعيسى ويصحح لهم أخطاءهم الكثيرة[1]؛ من غير أن يأبه لتكذيبهم الذي حصل بالفعل.

هذا الرد إجمالًا.. أما التفصيل فيكون فيما يأتي:

***

(١) فعل ذلك في المكي والمدني على حد سواء. وقد سبق بيان ذلك.

المبحث الثاني
دعاواه بشأن ما نسبه القرآن إلى إبراهيم وإسماعيل

أناقش نولدكه هنا فيما ذهب إليه من أن التصور الجديد المزعوم الذي كونه النبي في القرآن المدني عن إبراهيم وإسماعيل يتمثل في أنهما أسسا الكعبة، وأن القرآن المدني أعطى دورًا جديدًا لإسماعيل لم يكن قد أُعطي له في القرآن المكي، أو بتعبير نولدكه: أقحم النبي في القرآن المدني إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. كما أناقش دعواه مدنية الآيات التي تربط بين إبراهيم والكعبة.

الدعوى الأولى: أن القول بتأسيس إبراهيم للكعبة هو وجهة نظر جديدة كونها النبي في المدينة:

مرة أخرى أعيد قول نولدكه[١]:

"إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورساليمية يندرج في إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة، الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة، ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة، كما كانت أورشليم بالنسبة لليهود".

وأقول:

- إن نولدكه، وإن لم يكن قد صرح بنفي بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة؛ إلا أن

(١) ص١٧٥ الهامش.

تعبيراته تشي بالتشكيك فيه؛ فهو قد أرجع كل ما ذكر في القرآن المدني عن إبراهيم -ومنه أنه أسس الكعبة، وأن لمكة صلة به- إلى ما زعمه من تصور جديد لدى النبي عنه، وقال عن مشاركة إسماعيل في رفع قواعد البيت: «وفي مرحلة لاحقة يترقى إسماعيل ليصير مؤسسًا مشاركًا للبيت»[1].

كما عمد إلى الآيات المكية التي جعلت لإبراهيم صلة بمكة أو أنها حرم آمن؛ فشكك في مكيتها؛ فادعى مدنية الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾. وادعى عن الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ الآية. أن أصلها المكي محل شك. وادعى أن قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ الآيات؛ مضاف لاحق للسورة.

- وهو وإن كان قد اكتفى بالتشكيك دون التصريح؛ فإن غـيره قد صرح؛ فهذا وليم موير «الذي نفى قصة ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز أصلًا بدعوى أنها إسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال؛ ليربطوا بينهم وبين العرب بالاشتراك في أبوة إبراهيم لهم جميعًا أن كان إسحاق أبا لليهود. فإذا كان أخُوه إسماعيلُ أبا العرب؛ فهم إذًا أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود، وتيسير تجارة اليهود في شبه الجزيرة"[2].

والحق أن تأسيس إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام ثابت؛ لأن القرآن الذي هو كلام الله المنزل على محمد نطق بهذا وأخبر به؛ فلم يعد ذلك بالنسبة للمسلم محل نقاش. ولا ينبغي أن يكون محـل نقاش لغير المسـلم؛ وذلك نظرًا لأمور أربعة:

الأول: الثبوت العقلي لنبوة محمد ﷺ؛ ومادامت نبوته ثابتة فسائر ما يخبر به هو ثابت كذلك.

---

(١) سبق ذكر ذلك.

(٢) محمد حسين هيكل: حياة محمد ص١٦.

الثاني: كون هذا التأسيس غير ممتنع عقلًا؛ لأن العقل لا يستبعد إمكان أن يؤسس إبراهيم الكعبة؛ وذلك لـما ثبت أنه ذهب بزوجته هاجر ورضيعهما إلى برية فاران التي هي - كما يقول ابن منظور[١] - "الإطلاق العبري على جبال مكة". وأن إبراهيم كان يزورهما، ولا يُتوقع منه - وهو الحريص على إيمان ولده - إلا أن يؤسس في إحدى زوراته بيتًا لعبادة الله:

١- وزياراته ثابتة للآتي:

أ- لا يمكن أن يتصور انقطاع زياراته لهما؛ لأنه يعلم أن وضعهما في هذا المكان لم يكن عقوبة أو طردًا؛ إنما تم بأمر إلهي ولحكمة - طبقًا لنصوص سفر التكوين[٢].

ب- كما أن الله وعد إبراهيم أن ابنه إسماعيل سيكون أمة كبيرة[٣]، ووعده كذلك أن نسله كله له مع الله عهد[٤] - وإسماعيل من نسبه - و هو كذلك يرثه[٥]؛ فلا يمكن مع هذا أن يقاطعه فلا يزوره.

---

(١) لسان العرب.

(٢) ٢١: ١٢.

(٣) تكوين: ٢١: ١٣، وورد فيه كذلك: "وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه هاأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًّا اثنى عشر رئيسًا يلد، وأجعله أمة كبيرة" تك ١٧: ٢٠- ٢١. وكذلك وُعدت هاجر الوعد ذاته؛ ورد في سفر التكوين ١٦: ٧ ـ ١٤ "فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية... قال لها... تكثيرًا أكثر نسلك فلا يُعد من الكثرة... ها أنت حبلى تلدين ابنًا، وتدعين اسمه إسماعيل"

(٤) "وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًّا ... وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم، هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر ". تك ١٧: ٧-١٠. ولا يصح أن يستثنى إسماعيل من هذا العهد؛ فالنصوص واضحة في شمولها نسل إبراهيم كله. كما أن إسماعيل قد اختتن (تك ١٧: ٢٣)، والاختتان علامة على العهد: " فتختنون في لحم غرلتكم، فيكون علامة عهد بيني وبينكم" تك ١٧: ١١.

(٥) "الذي يخرج من أحشائك هو يرثك" تك ١٥: ١- ٦.

وقد قالت التوراة عن إسماعيل وهو غلام: "وكان الله مع الغلام"[1]؛ فكيف يقاطعه أبوه؟.

ج- كما أن إسماعيل هو بكر إبراهيم. وللبكورية -طبقًا لمعتقدات العهد القديم - حق لا يتصور معه قطيعة من نبي لابنه البكر.

د- ومما يشهد لإمكانية زيارة إبراهيم لإسماعيل كذلك أن الأخير قد عاصر تسعًا وثمانين سنة في حياة أبيه[2] ،وهي فترة طويلة جدًّا تستحيل معها القطيعة.

هـ- وإذا أضفنا إلى هذا أن إبراهيم عليه السلام هو النبي الكبير الذي وعده الله أن يكون أبًا لجمهور من الأمم وأنه سيجعله أممًا[3]، فإنه لا يتصور مع هذا أن يقاطع أحدَ فرعيه الذي سيحقق شطر مراد الله فيه: أنه سيجعله أممًا.

و- وإذا كان العقل يوجب استحالة القطيعة بين إبراهيم وإسماعيل؛ فإن العهد القديم يثبت اتصالين على الأقل بينهما؛ أولهما: عندما اختتنا[4]، وكان عمر

(١) تك ٢١: ٢٠.

(٢) وذلك لأن سن إبراهيم عند ولادة إسماعيل كان ستًّا وثمانين سنة (تك ١٦: ١٦)، وتوفي إبراهيم عن عمر ناهز خمسًا وسبعين ومائة؛ وكان إسماعيل عندئذ حيًّا (تك ٢٥: ٧، ٩).

(٣) تك ١٧: ٤ - ٦ "وتكون أبا لجمهور من الأمم ... وأُثَمِّرُكَ كثيرة جدًّا وأجعلك أمما، وملوكٌ منك يخرجون".

(٤) ولا يتصور مطلقًا أن يكون ذلك الختان سابقًا لإسكان إبراهيم زوجته هاجر ورضيعه إسماعيل برية فاران؛ بل يجب أن يكون لاحقًا لذلك؛ لأن نصوص سفر التكوين يُفهم منها أن إسماعيل كان رضيعًا عندما هُجِّر وأمه إلى تلك البرية. وأشير هنا على وجه الخصوص إلى الفقرات: ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨ من الإصحاح ٢١: تكوين، وفيها: "فَبَكَّرَ إبراهيمُ صباحًا، وأخذا خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعًا إياهما على كتفها والولد وصرفها... ولمّا فَرَغَ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيدًا نحو رمية قوس؛ لأنها قالت: لا أنظر موت الولد؛ فجلست مقابله... ونادى ملاك الله: قومي احملي الغلام وشدي يدك به [وفي الترجمة الألمانية المشار إليها من قبل لنفس النص: قومي خذي الغلام وامسكيه جيدًا في يدك..."]. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام...". فإبراهيم وضع الولد على كتفهـا =

إسماعيل ثلاث عشرة سنة[1]. وثانيهما: عندما شارك إسماعيل في دفن والده إبراهيم[2]. كما أن الهاجادا اليهودية [3] تقرر -كما يقول المستشرق الألماني باول شفارتزيناو *Paul Schwarzenau*[4] أن إبراهيم زار ابنه إسماعيل في الصحراء".

ز- ولا يستبعد إمكانية حصول لقاءات أكثر من هذين المذكورين لم يُشِر إليها العهد القديم؛ لأن هذا الأخير لا يهتم إلا بذكر الحوادث التي لها علاقة بتاريخ شعب إسرائيل، فضلًا عن تعمد إغفاله ما يشير إلى اهتمام إبراهيم بإسماعيل.

ح- وكذلك إذا أضفنا إلى هذا أن إبراهيم عليه السلام الذي أَلِف الترحل؛ فهاجر من أور الكلدانيين بالعراق إلى حاران، ثم إلى أرض كنعان: فلسطين[5]، ورحلات أخرى[6]، ثم ارتحل إلى مصر[7] ثم عاد إلى فلسطين ...أقول: إذا أضيف هذا إلى ما معنا؛ فإنه لا يستبعد أن يزور إبراهيم ولده إسماعيل مرات كثيرة؛ لأن الداعي إلى السفر لمثل هذا الهدف أكيد، والحاجة إليه أقوى.

= وصرفها، وهي طرحت الولد تحت إحدى الأشجار، وانتظرت موته بعيدًا؛ لأنه وهو رضيع لا يتحمل العطش. وأمرها ملاك الله أن تحمل الغلام؛ ولا يتصور حَمْلٌ إلا لصغير. ولأنه صغير سقته الماء بنفسها، ولم يسق نفسه. ولقد صرح النبي في حديث صحيح أن إسماعيل كان رضيعًا حين هُجِّر إلى مكة: البخاري.

(١) تك ٢٥ : ٩.

(٢) إذ لا يتصور أن يبلَّغ إسماعيل، وهو في مكة بوفاة أبيه فيهرع سريعًا، لتجهيزه والمشاركة في دفنه، فيتمكن من ذلك كله رغم بعد المسافة؛ فلا بد إذن أن يكون قد التقى به في مرض موته.

(٣) وهي قصص وضعها أحبار اليهود بغرض التعليم لها من القداسة مثلما للتلمود.

(٤) في كتابه:
Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 88.

(٥) تك ١١ : ٣٢.

(٦) بنص الفقرة: تك ١٢ : ٩: "ثم ارتحل إبراهيم ارتحالًا متواليًا نحو الجنوب" أي جنوب أرض كنعان.

(٧) تك ١٢ : ١٠.

ط- هذا، وقد جاء في البخاري عن ابن عباس وبعضه مرفوع إلى النبي[1] أن إبراهيم زار إسماعيل ثلاث مرات: مرتين ذُكر فيهما أمر زوجتيه، ومرة بشأن بناء الكعبة؛ حيث ورد أن إبراهيم قال لإسماعيل في إحدى هذه المرات:

"يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر! قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك! قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت؛ فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جدًّا، جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾".

وقد علق ابن كثير على ذلك مستبعدًا كون زيارات إبراهيم قد اقتصرت على تلك الثلاث؛ فقال[2]: "وكيف يتركهم من حين صِغر الولد إلى حين تزويجه لا ينظر في حالهم، فكيف يتخلف عن مطالعة حالهم، وهم في غاية الضرورة الشديدة والحاجة الأكيدة".

٢- وبعد؛

فقد ثبت لدينا أن إبراهيم عليه السلام كان يزور إسماعيل وأمه؛ وعليه فإنه ليس أمرًا مستبعدًا أن يرفع إبراهيم وإسماعيل في إحدى تلك الزَّوْرات قواعد بيت لعبادة الله تعالى؛ لأنه إذا كان بعض شعوب الأرض في عهد إبراهيم يرفعون البيوت لعبادة الأصنام، ولتكون محلًا لديانات وضعية؛ فما الغريب في أن يرفع إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت يُعبد الله فيه؟

وهل كان من الممكن أن يترك النبي الكبير إبراهيم ابنه إسماعيل دون أن يطمئن على أنه باق على صلته بالله؟

---

(١) البخاري ج٦ ص٣٩٦-٣٩٧ رقم (٣٣٤٦).

(٢) ص١٥٨ قصص الأنبياء.

إن رفع إبراهيم قواعد بيت لعبادة الله هو الافتراض المنطقي الوحيد، الذي لا بد أن نتوقعه من نبي صاحب عهد مع الله؛ يترك زوجه وابنه -الذي هو أحد وارثَي عهد الله معه - في بيئة بعيدة عن الإيمان والتوحيد.

كما أنه لم يثبت عن اليهود والنصارى المعاصرين للنبي ﷺ التشكيك في هذه النسبة، بل إن نولدكه نفسه يرى أن اليهود والنصارى العرب كان لديهم فكرة عن نسبة تأسيس الكعبة إلى إبراهيم عليه السلام (وإن كان قد سمى ذلك أسطورة، وقصر القول بها على المسيحيين العرب الذين عز عليهم ترك الطواف حول الكعبة) يقول[1]:

"Diese Legende ist vielleicht keine Erfindung Muhammeds, sondern im Kopfe arabischer Juden oder Christen entstanden, die auf die religiöşen Begehungen bei der Ka'ba nicht verzichten wollten. Snouck Hurgronje (Het Mekkaansche Feest S. 28) hält es nicht für unwahrsheinlich, daß der Hagg von Christen mitgemacht wurde und verweist auf eine Tradition, nach der das schnelle Reiten durch den Wadi Mohassir damit erklärt wird, daß dort früher die Christen das Wuquf verrichteten (vgl. Muhammad 'Abid, Hidayat al nasik ala taudih al-manasik. ed. Cair. 1302, p. 112) ".

وترجمته:

"من المحتمل أن هذه الأسطورة ليست من اختراع محمد، بل سبق أن كونها اليهود والمسيحيون العرب الذين لم يشاءوا أن يتخلوا عن الطواف الديني حول الكعبة. ولا يستبعد سنوك هورجروني في كتابه (الأعياد المكية) ص٢٨ أن يكون المسيحيون قد شاركوا في الحج، ويشير إلى رواية تقول: إن العبور السريع لوادي مُحَسّر يُفَسّر بأن النصارى كانوا يتممون في الماضي الوقوف هناك. قارن محمد عابد "هداية الناسك على توضيح المناسك" طبعة القاهرة ١٣٠٢ ص١١٢".

واللاهوتي المستشرق باول شفارتزيناو *Paul Schwarzenau* يقول[2]: "يمكن

---

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٤٧ هامش ٣

(2) Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 55.

ألا يستبعد افتراض و. رودلف[1]، وهو أن النصارى العرب كانوا يقبلون أن يربطوا بين إبراهيم والكعبة. إن السِّفر الموسوي الأول [التكوين] يقدم تصورًا أن إبراهيم كان يؤسس معبدًا *Altäre* في كل أماكن تجواله[2]، وهذا يمكن أن يقوي هذا الظن".

الثالث: ما الذي يضطر القرآن أن يزور في التاريخ -كما يدعي نولدكه- فينسب إلى هذين النبيين الكريمين رفع قواعد البيت؟

إن إرادة التقرب إلى العرب لا يمكن أن تكون هي المقصودة من هذا؛ فقد تنكروا لإبراهيم عليه السلام وتوحيده؛ ولم يكن يعنيهم من قريب أو بعيد إعلان القرآن هذه النسبة. ولو كان هذا هو الهدف لكان أولى وقت لإعلان ذلك صراحة هو بدايات الفترة المكية؛ فقد كان من شأنه -لو تم وكان المشركون أوفياء لإبراهيم- أن يخفف من غلوائهم في عداوتهم للدعوة الفتيَّة.

لكن الواقع يقول: إن الإعلان الصريح لرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل تم في بداية العهد المدني.

الرابع: لو افترضنا أن القرآن تجاوز الحقيقة في نسبة رفع قواعد البيت الحرام لإبراهيم وإسماعيل؛ وأنه لم يفعل ذلك إلا في سياق تصور النبي الجديد عن إبراهيم؛ فإننا نسأل نولدكه وسائر المنكرين: من الذي رفع قواعد الكعبة إذن؟

إن واحدًا من العرب الأقدمين لم يدَّع أو يُدَّع له أنه هو الذي فعل ذلك؛ رغم حرص العرب جميعًا على الارتباط بالبيت الحرام، وتقديرهم له لدرجة أن القريبين منه كانوا يتنازعون أعباء خدمته! ولو كان ثمة أخبار عن ادعاء من هذا القبيل لتصدى كثيرون للقرآن حين نسب ذلك لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ بل إن الأخبار المنقولة لدى العرب في عصر النبوة تضافرت على نسبة بنائها لهذين النبيين الكريمين.

***

(1) *sehe: Speyer, Die biblischen Erzählungen im Qoran, S. 162.*

(٢) لم يشر المستشرق المذكور إلى المواضع التي تفيد هذا؛ لكنها على أية حال هي: التكوين: صح١٢ فقرة ٨، وصح١٣ فقرة ١٨.

الدعوى الثانية: إنه لكي لا يقف الأصل المكي لبعض الآيات التي تتحدث عن إبراهيم والحرم المكي؛ مانعًا من قبول نظرية نولدكه الملفقة؛ فإن نولدكه يعمد إلى تلك الآيات المكية فيدعي أنها مدنية.

إنه يجعل حديث القرآن عن ضيف إبراهيم إضافة لاحقة إلى سورة الذاريات التي يعدها من سور الطور المكي الأول، التي نزلت في المدة من سنة ١-٥ للبعثة(١)؛ يقول(٢):

„In Sura 51 sind V. 24ff. vermutlich erst später hinzugefügt“.

وترجمته:

"ربما تكون الآيات ٢٤، وما بعدها من سورة الذاريات(٣) قد أضيفت لاحقًا إلى هذه السورة".

وجعل تناولَ آيةٍ ما للقواعد المتعلقة بمنطقة مكة المكرمة كلها دليلًا يقينيًّا على مدنيتها؛ فقال(٤) عن الآيات ١٨٥-١٩٩ من سورة البقرة(٥) (وأذكر بالألمانية الجزء المهم من عبارته فقط):

„...bilden ein Konglomerat von Bistimmungen, die alle des heilige Gebiet von Mekke betreffen. Dadurch ist zwar ihre medinische Herkunft außer Zweifel gestellt..“

"تُقدم هذه الآيات -باستثناء الجزء من (فمن الناس) في الآية ١٩٦ إلى نهاية الآية ١٩٨ (٦) المحتمل كونه مكيًّا - مجموعة من القواعد التي تتعلق بمنطقة مكة المكرمة كلها؛ وبهذا يظهر بلا شك أصلها المدني. لكن لا يُجزم بشيء بشأن ترتيبها الزمني. على

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٧.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٠٥.

(٣) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ الآيات.

(٤) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٨٠.

(٥) من ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ إلى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٦) يشير إلى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أنه يمكن أن يصلح مؤقتًا أنها تأتي من ناحية بعد آيات مثل ١٢٤ النحل[١]، و١١٩، و١٢١ البقرة[٢]؛ التي فيها التصورات الرئيسة عن الكعبة؛ ومن ناحية أخرى ترجع إلى السنوات ٦، ٧، ١٠ التي قام فيها محمد بالحج، وما ينتمي إليه من زيارة (عمرة)".

وقال[٣]:

„In V. 38ff. bittet Ibrahim seinen Herrn, das heilige Gebiet von Mekka zu schützen und seine Nachkommen vor Abgötterei zu bewahren, alsdann dankt er für die Gnade, noch im hohen Alter Vater zweier Söhne des Jakob und Ismael, geworden zu sein. Nach den oben zu Sur. 16,124 dargelegten Gründen sind auch diese Verse mit C. Snouck Hurgronje für medinisch zu halten".

وترجمته:

"يدعو إبراهيم في الآية ٣٨، وما بعدها من سورة إبراهيم[٤] أن يحمي الله منطقة مكة، وأن يحفظ ذريته من الوثنية، ومن ثم يشكر النعمة أن صار أبًا في سن متقدمة جدًّا لابنين هما: يعقوب وإسماعيل. وحسب الأسباب التي ذكرت سابقًا بشأن الآية ١٢٤ النحل[٥]: أَعُدُّ هذه الآيات مع سنوك هورجروني *C. Snouck Hurgronje* مدنية"..

وأقول هنا:

١- فيما يتعلق بآيات الذاريات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨)

---

(١) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولقد سبق أن بينت أن هذه الآية ليست مدنية.

(٢) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ الآية، و ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٢.

(٤) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ الآيات.

(٥) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وسأتناول هذه الأسباب فيما بعد.

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

أقول: إن نولدكه ليس لديه رواية أو اجتهاد صحيحان يبني عليهما هذا الحكم.

كما أن القصة ذاتها وردت في سورة الحجر، آيات: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

ولقد حدد نولدكه بشكل مجمل أن سورة الحجر تنتمي إلى الطور المكي الثاني ويحدد له أعوام ٥-٦ بعد البعثة[1]. وعند تناوله المفصل لسورة الحجر[2] لم يستثن الآيات الكريمة المذكورة من انتمائها للطور المكي الثاني. فما الفارق بين محتوى آيات الذاريات، ومحتوى آيات الحجر؛ ليختار نولدكه مدنية الأولى ومكية الثانية؟.

٢- وفيما يتعلق بآية النحل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ فلقد سبق أن بينت أنها مكية، وليست مدنية.

٣- أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ الآيات؛ فليس ثمة رواية إسلامية، ولو ضعيفة يستند إليها

(١) تاريخ القرآن "بالألمانية" ق١ ص IX، ٧٠.

(٢) تاريخ القرآن "بالألمانية" ق١ ص ١١٥.

نولدكه في دعواه مدنية هذه الآيات، وليس لديه – كما قال هو نفسه – سوى ما سماه: "الأسباب التي ذُكرت سابقًا في ١٢٤ النحل"؛ فيعيدنا من جديد هنا إلى دور واضح سبقت الإشارة إليه؛ حيث تتوقف دعواه (بحث النبي عن مرجعية ،وتحوله في ذلك) على (كون الآية التي معنا مدنية)؛ ويتوقف كونها مدنية على الحكم بأن النبي تحول في مرجعيته.

ولعل الذي أوقعه في خطأ الحكم بمدنية هذه الآية هنا، هو ما صرح به من متابعته للمستشرق الهولندي سنوك هورجروني[1]؛ لدرجة أن هذه المتابعة أوقعته في خطأ فاحش آخر؛ فقد جعل نولدكه هنا النبيَّ يعقوب ابنًا مباشرًا لإبراهيم، مخالفًا بذلك الواقعَ ونصَّ الآية التي لم يكلف نفسه عناء قراءتها؛ رغم أنها ضمن ما يعالجه من آيات.

هذه الآية هي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾.

لكني وقفت على نص يدعي فيه "سنوك هورجروني[2] أن محمدًا ﷺ كان يَعد في أول الأمر يعقوب ابنًا لإبراهيم؛ مستدلًا بقوله تعالى: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾[3]. فقد يكون هذا الزعم قد أثر في نولدكه ... لكن الآية الأخيرة لا يَفهم منها أحد ممن يفهمون العربية أن يعقوب ابن لإبراهيم. وهورجروني قد فهمها" كما يفهم الغريب عن لغة نصوص هذه اللغة. والمفسرون فهموها على وجهها؛ لأن (من وراء إسحاق) خبر مقدم و(يعقوب) مبتدأ مؤخر. وجيء بهذه الجملة في هذا الموضع ليبين أن إبراهيم سيبقى عقِبُه؛ فهو سيولد له ويولد لولده. وعن

(١) تصريحه بالمتابعة واضح هنا، وفي مواضع أخرى.

(٢) *Het Mekkansche Feest 32*. عن دائرة المعارف الإسلامية الإصدار الأول، المجلد ٢ ص١١٢.

(٣) هود: ٧١.

الشعبي أنه قيل له: أهذا ابنك؟ فقال: نعم، من الوراء. وكان ولد ولده"[1].

وحتى لو تم التصريح بأبوة إبراهيم ليعقوب؛ فإن من له أدنى معرفة بالعربية يعلم أن الجَدَّ يُسمى أبًا باعتبار أنه أصل؛ ولقد ورد هذا في قوله تعالى على لسان يعقوب لابنه يوسف: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ حيث سماهما أبوين ليوسف، وهما جَدَّاه للاعتبار الذي ذكرته. فيبدو أن تأثير المستشرق الهولندي المذكور كان قويًّا على نولدكه لدرجة لم تتح لنولدكه أن يدقق في آرائه أو يراجع أحكامه. لكن لحسن الحظ فإن مستشرقًا آخر هو ريجي بلاشير؛ الذي رغم اطلاعه على حكم نولدكه هذا إلا أنه[2] لا يتابعه في دعواه مدنية الآيات المذكورة من سورة إبراهيم؛ وجعلَها بدلًا من ذلك في الفترة المكية الثالثة.

أخيرًا أقول: إن أسوأ ما في الأمر هنا أن يصبح الحكم بمدنية آية أو مكيتها رهنًا بفكرة استشراقية مسبقة عن رسول الله ﷺ؛ فيفقد العالم موضوعيته وتجرده للحقيقة، وتصبح آليات البحث سلاحًا يدعم به الباحث نظريته المسبقة، وهو ما فعله نولدكه هنا، كما فعله مع آيات لا يدعم (كونُها مكية) نظريتَه.

* * *

الدعوى الثالثة: ادعى نولدكه أن النبي أَقحم في القرآن المدني إسماعيل مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب (الذين يسميهم نولدكه: الآباء)، وهو الأمر الذي لم يكن يحدث في القرآن المكي، ثم جعل النبيّ إسماعيل يترقى ليصير مؤسسًا مشاركًا في تأسيس الكعبة؛ فعندما يتحدث نولدكه عن آيات سورة إبراهيم: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ الآيات.. يقول[3]:

(1) من رد الأستاذ محمد عرفة على دعوى هورجروني: دائرة المعارف الإسلامية الإصدار الأول، المجلد ٢ بقية هامش ١ ص١١٢.

(2) في كتابه: القرآن نزوله تدوينه، ترجمته، تأثيره ص٦٤.

(3) ص١٥٢.

«Fortan werden die Erzväter nicht mehr genannt, ohne daß Ismael zwischen Abraham und Isaak eingeschoben ist. Auf einer späteren Stufe avanciert Ismael zum Mitgründer der Ka'ba» (Sur.2,121)".

وترجمته:

"وابتداءً من هنا لن يحدَّد الآباء الأُوَل بدون إقحام إسماعيل بين إبراهيم وإسحاق. وفي مرحلةٍ لاحقة يترقى إسماعيل ليكون مؤسسًا مشاركًا للكعبة، ١٢١ والبقرة[(١)]".

وأقول هنا:

١- إن تعبيره عن (ذكر القرآن المدني لإسماعيل مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام)؛ بأنه إقحام *Einschoben*؛ تعبير لا يليق بشأن القرآن؛ لكنه على أية حال صياغة مختلفة لدعوى سنوك هورجروني[(٢)] (أن القرآن المكي لم يذكر أية صلة بين إبراهيم وإسماعيل)؛ في حين أن القرآن المدني ذكر هذه الصلة.

فكأن القرآن الكريم عند هذين المستشرِقَين ارتكب مخالفة تاريخية، حين أدخل اسم إسماعيل بين هؤلاء الأنبياء.

٢- وإذا كان نولدكه -أو غيره- يريد إنكار الصلة بين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ فإنه بذلك لا يعارض القرآن الكريم وحده؛ إنما يعارض العهد القديم أيضًا، فقد ورد في عدة مواضع فيه ما يؤكد أن إسماعيل كان ابنًا لإبراهيم (تك: ١٦)، وفيه قصة عقم ساراي امرأة إبراهيم، التي وهبته جاريتها هاجر زوجة له فولدت له إسماعيل[(٣)].

---

(١) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ الآية.

(2) Het Mekkaansche Feest, leiden 1880. S. 28. 40.

وراجع دائرة المعارف الإسلامية القديمة (الترجمة العربية)، المجلد الأول ص٢٧، مقالة فنسنك عن (إبراهيم).

(٣) تدعي الترجمة العربية للعهد القديم (الصادرة عن دار الكتاب المقدس بمصر طبعة العيد =

٣- كما أن القرآن المكي بيَّن هذه الصلة بوضوح؛ ففي سورة إبراهيم المكية يدعو عليه السلام أن يجعل الله البلد الحرام آمنًا، وأن يُسكِن من ذريته هذا الوادي؛ الذي لا أثر فيه لزرع عند بيت الله المحرم؛ وأن يرزقهم من الثمرات، وأن يجعل موطنهم موئلًا لقلوب الناس. كما يَحمَدُه أن وهبه؛ رغم كبر سنه - إسماعيل وإسحاق[1].

بل إن في القرآن المكي ثبوت البنوة بين إسماعيل وإبراهيم[2]، وفيه كذلك ثبوت نبوة الأول[3].

كما أن سورة الأنعام المكية ذكرت إسماعيل فيما بعد على أنه من ذرية إبراهيم. وكان ذِكره في آخر مجموعة أنبياء فيها[4]؛ لأن كل مجموعة من

= المئوي ١٩٨٣ م)، أن بشرى إلهية جاءت هاجر؛ أنها ستلد ابنًا يدعى اسمه إسماعيل، ووصفته بأنه: "سيكون إنسانًا وحشيًّا" تك ١٦: ١٢. وفي الترجمة الألمانية للعهد القديم -التي ستأتي المعلومات عنها في قائمة المراجع- وردت نفس البشرى؛ لكنها وصفت إسماعيل بأنه: "يكون إنسانًا مثل الحمار الوحشي:

Er wird ein Mensch sein, wie ein Wildesel," Genesis 16: 12

في حين أن العلامة عبد الوهاب النجار: (قصص الأنبياء ص١٢٥ هامش ١) يرى أن الترجمة الصحيحة للوصف المذكور في النسخ العبرية الأصلية هي: (قوي)، فانظر: كيف تحول وصف (قوي) من إنسان وحشي إلى حمار وحشي؟

(١) الآيات الكريمة التي ورد فيها هذا الدعاء هي ٣٥ - ٤١؛ وفيها على وجه الخصوص الآية ٣٧: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾.

(٢) إبراهيم: ٣٩: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، والصافات: ١٠١: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(٣) مريم: ٥٤: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾، والأنعام: ٨٦: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والأنبياء: ٨٥: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وص: ٤٨: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾.

(٤) الأنعام: ٨٦.

الأنبياء من ذرية إبراهيم ذُكرت هنا؛ جَمعت بينها -كما يري الإمام محمد عبده[1] - صفاتٌ مشتركة:

فالمجموعة الأولى: ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[2] مجتمعون في أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة، والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة.

والمجموعة الثانية وهم: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾[3] امتازوا في الأنبياء بشدة الزهد في الدنيا، والإعراض عن لذاتها.

والمجموعة الثالثة وهم: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾[4] قد أُخِّروا كما يقول محمد عبده[5] "لعدم الخصوصية؛ إذ لم يكن لهم من مُلك الدنيا وسلطانها ما كان للقسم الأول؛ ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما للقسم الثاني". أولأنهم كما يقول الرازى[6]: "لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع".

إذن فليس في القرآن المكي ما يناقض الذي أثبته القرآن المدني من علاقة بين إبراهيم وإسماعيل.

٤- وحتى يجعل نولدكه لدعواه هذه أساسًا ولو زائفًا؛ فإنه عمَـد إلى الموضع من سورة إبراهيم الذي فيه الآيـة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾؛ التي تثبت أن القرآن المكي هو الذي أخبرنا ببنوة إسماعيل لإبراهيم عليهما السلام؛ فجعله مدنيًّا؛ قاصدًا - من ثم - تمريرَ

---

(١) تفسير المنار ج٧ ص٤٨٩-٤٩٠، ولدى الرازي محاولة توجيه قريبة الشبه مما ذكره محمد عبده: راجع التفسير الكبير مجلد ٦ ج١٢.

(٢) الأنعام: ٨٤.

(٣) الأنعام: ٨٥.

(٤) الأنعام: ٨٦.

(٥) تفسير المنار ج٧ ص٤٩٠.

(٦) التفسير الكبير مجلد ٦ ج١٢ ص٤١٢.

دعواه المذكورة إلى العقلية الغربية. لكنها محاولة ساقطة الاعتبار تمامًا.

إن أحد معالم منهج نولدكه في التعرف على المكي والمدني الاعتمادُ على التحليل اللفظي الداخلي للآيات، وجعلُ تشابهها مع ألفاظ مكية أو مدنية دليلًا للحكم عليها بأي منهما[1].

ولو اعتمدنا نفس المنهج؛ لوجدنا أن في آيات سورة إبراهيم ألفاظًا وردت في الفترة المكية لوصف مكة، مثل لفظ: (البلد) الوارد في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، و﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ وهما مكيان؛ ومثل لفظ (رب) الوارد في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ وهو مكي.

كما أن آيات إبراهيم فيها استغفار لوالديه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ (إبراهيم: ٤١)، وقريب منه ورد في سورة الشعراء ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ (الشعراء: ٨٦)، وهو مكي. فلماذا استبعد نولدكه هذه الآية من تطبيق منهجه؟

إن دعوى نولدكه هذه خطأ علمي فادح، أوقعه فيه متابعته العمياء لسنوك هورجرونيه، ورغبته في دعم نظريته المذكورة.

٥- كما أن هذه الآية ليست وحدها في القرآن المكي التي تخبر ببنوة إسماعيل لإبراهيم عليهما السلام؛ ففي سورة الصافات المكية - باعتراف نولدكه[2] - يُشار إلى إسماعيل[3]. صحيح أن اسمه لم يُذكر صراحة؛ إلا أن الآيات تحمل شاهدًا يجعل الحديث منصرفًا إليه؛ ففي الآيات بشريان:

الأولى: بشارة إبراهيم بأن الله سيرزقه بغلام حليم في قوله تعالى في أولها:

---

(١) راجع مثلًا: تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٥٩، حين قال بمدنية الآية ١٥٧ الأعراف، (١٥٦ حسب فلوجل) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ استنادًا لوجود كلمة (أمي) فيها.

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص*IX*.

(٣) والآيات هي من: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ إلى ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾. [الصافات: ١٠١-١١١].

﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾؛ وهو الذي قالت الآيات عنه بعد ذلك مباشرة: إنه رُئِيَ في المنام أنه يُذبح. ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾.

الثانية: بشارته بأن الله سيرزقه بإسحاق ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

لقد تعين إذن أن تكون البشرى الأولى غير البشرى الثانية التي ذُكر فيها اسم إسحاق. ولقد كانت البشرى الأولى هي ولادة إسماعيل من هاجر بعد عقم سارة الطويل. والبشرى الثانية هي ولادة إسحاق من سارة العقيم وإبراهيم العجوز. فلا يمكن مع هذا أيضًا لنولدكه أن يدعي أن إسماعيل لم يُذكر مع إبراهيم في القرآن المكي.

٦- **بحث مقارن بين المكي والمدني بشأن ذكر إسماعيل مع الآباء:**

لقد فرض علينا نولدكه أن نجري هذا البحث، حين ادعى أنه ابتداء من آيات سورة إبراهيم لن يُحدد الآباء الأُوَل دون إقحام إسماعيل؛ إذ لعله يود المقارنة بين الآيات المكية (التي يُذكر فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ دون أن يُذكر بينهم إسماعيل بلا فاصل)؛ والأخرى المدنية (التي يُذكر فيها إسماعيل - بلا فاصل - مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم جميعًا السلام:

أ- **والآيات المكية هي:**

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

و﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

و﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾.

و﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾ الآية[1].

ب- أما الآيات المدنية التي يرى نولدكه أن إسماعيل أُقحم فيها بين من سماهم: الآباء الأُوَل؛ فهي:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

و﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ الآية.

و﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ الآية.

و﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

و﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ الآيات[2].

٧- الرد:

إن نولدكه يزعم أن النبي أقحم في القرآن المدني إسماعيل بين الآباء الإسرائيليين، وهو الأمر الذي لم يحصل في القرآن المكي.

---

(١) الآيات مرتبة هي: يوسف: ٣٨، الأنعام: ٨٤-٨٧، مريم: ٤٩، ٥٨.

(٢) الآيات مرتبة هي: البقرة: ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠، آل عمران: ٨٤، النساء: ١٦٣.

ويهدف نولدكه بهذا إلى تدعيم نظريته القائلة: إن النبي كون تصورًا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام. كما يهدف من طرف خفي إلى ترويج العقيدة اليهودية في حصرها النبوة في فرع إسحاق دون إسماعيل.

وسأتناول هنا:

أولًا: توجيه عدم ذكر الآيات المكية المذكورة لإسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين؛ فأقول:

إنه لا يمكن – مع شيء من الفهم والتجرد – أن تصل القراءة النزيهة للآيات المذكورة، وسياقاتها داخل سورها إلى شيء مما وصل إليه نولدكه بقراءته المغرضة لها.

أ- فبشأن الموضع في سورة يوسف؛ أقول: إن الآية جاءت إعلانًا على لسان يوسف عليه السلام الذي لم يذكر إسماعيل، ومن ثم نقل القرآن هذا الإعلان إلينا كما ورد على لسانه عليه السلام؛ ولو أضاف اسم إسماعيل كما كان يتوقع نولدكه لكان مخالفًا لما نطق به يوسف، وليس هكذا قصص القرآن.

هذا هو الواقع.. ويمكن الاكتفاء به هنا.

ويمكن كذلك أن نضيف إليه جوابًا عن تساؤل: لماذا لم يذكر يوسفُ إسماعيل مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب هنا؟ والجواب هو أن استخدام يوسف لفظ (آبائي) لا يوجب عليه أن يذكر إسماعيل، الذي يُعَدُّ عم أبيه، فلا يدخل وجوبًا بين الآباء، لكنه قد يدخل تجوزًا. وعَدَل يوسف عن هذا التجوز لأمر أظنه يتعلق بالمخاطَبين من المصريين الذين كانوا، بحكم الجوار الجغرافي والاتصال مع فلسطين يعلمون بإبراهيم وإسحاق ويعقوب أكثر من علمهم بإسماعيل، الذي عاش ومات في مكة البعيدة عنهم؛ لذا

اكتفى يوسف بما يحقق غرضه من كونه متبعًا ملة التوحيد التي جاء بها الرسل؛ فاقتصر على ذكر مقام الأبوة المباشرة المتمثلة في أبيه وجديه.

ب- وبشأن الموضع في سورة الأنعام[1]؛ فإن المحور الرئيس الذي تدور حوله هذه السورة، هو معالجةُ قضية العقيدة من شتى جوانبها في مواجهة المشركين، الذين ينفون الوحي جملة ويتنكرون لأصل الرسالة؛ وقد اقتضى هذا بيانَ أن رسالة الله الواحدة إلى أهل الأرض حملها موكب عظيم من الأنبياء عبر القرون؛ وامتدت حتى وصلت إلى محمد ﷺ، وطمأن الله نبيه محمدًا في ثنايا ذلك بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ الآية[2] والمعنى: لا عليك يا محمد!! فإذا كان المشركون قد كفروا بهذه الرسالة الواحدة الخالدة فإنها في غنًى عنهم؛ إذ آمن بها هذا الموكب الكريم والمؤمنون بها في كل وقت. ولما كان معظم الأنبياء الذين جرى ذكرهم هنا – أو كلهم –[3] من ذرية إبراهيم عبر

---

(١) الآيات من ٨٤-٩٠.

(٢) الأنعام: ٨٩ وبعض الآية ٩٠.

(٣) أورد القرطبي (الجامع لأحكام القرآن مجلد ٤ جـ ٧ ص٣١) قول ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعًا مضافون إلى ذرية إبراهيم؛ وإن كان فيهم من لم يلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم؛ لأن لوطًا ابن أخي إبراهيم، والعرب تجعل العم أبًا، كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ وإسماعيل عم يعقوب. وقال الإمام محمد عبده (المنار جـ ٧ ص٤٨٨): ذهب سائر المفسرين إلى أن الضمير [في "ومن ذريته"] عائد إلى إبراهيم؛ لأن الكلام في شأنه وما آتاه الله تعالى من فضله، وإنما ذكر نوحًا لأنه جده؛ فهو بيان لنعم الله عليه في أفضل أصوله؛ تمهيدًا لبيان نعمه عليه في الكثير من فروعه". ولقد أشار الرازي (مجلد ٦ جـ ١٢ ص٤١٣) إلى قريب مما أشار إليه محمد عبده، مع أنه ذكر الرأيين في عود الضمير إلى إبراهيم أو إلى نوح عليهما السلام دون أن يُرجح. =

فرع إسحاق ويعقوب؛ اقتضى ذلك عدم ذكر إسماعيل في مقدمة أبناء إبراهيم؛ لأنه لا واحد من الأنبياء المذكورين هنا من ذريته؛ بخلاف إسحاق ويعقوب[1].

ج- وبشأن آيتي سورة مريم؛ فإن الآية الأولى وهي برقم: ٤٩ منها؛ جاءت في مجال بيان إنعام الله على إبراهيم عليه السلام وتعويضه عن اعتزاله قومه؛ بأن رزقه الله إسحاق ويعقوب في سن متقدمة من امرأة عجوز وعقيم في ذات الوقت؛ وفوق ذلك كله عاش حتى رزق من إسحاق بيعقوب، وصارا نبيين. والإنعام الإلهي في رزقه بإسحاق ويعقوب مع هذه الملابسات - أوضح من الإنعام عليه بولادة إسماعيل من هاجر صغيرة السن، فتمت مراعاة مقام الامتنان الأوضح.

أما الموضع الثاني من سورة مريم (وهو الآية ٥٨) فإنه بعد أن ذكرت السورة الأنبياءَ: زكريا (الآية ٢ وما بعدها) وعيسى (الآية ٣٠ وما بعدها)، وإبراهيم (الآية ٤١ وما بعدها) وإسحاق ويعقوب (الآية ٤٩ وما بعدها)، وموسى (الآية ٥١ وما بعدها)، وإسماعيل (الآية ٥٤ والتي تليها)، وإدريس (الآية ٥٦ والتي تليها) عقبت الآية ٥٨ بأن هؤلاء الأنبياء هم ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ ومعلوم أن ليس واحد من المذكورين من ذرية إسماعيل؛ لذا لم يذكر مع إبراهيم ويعقوب (إسرائيل).

= وقال محمد عبده أيضًا (المنار ج٧ ص٤٨٨-٤٨٩): "وقال بعض المفسرين: إن يونس من ذرية إبراهيم، وإن لوطًا ابن أخيه وقد هاجر معه؛ فهو يدخل في ذريته بطريق التغليب، ويُعد منها بطريق التجوز الذي يسمون به العم أبًا".

(١) وقفت بعد كتابة هذا على قولة الرازي: (التفسير الكبير مجلد ٦ ج ١٢ ص ٤١٢): "فإن قالوا لِمَ لَمْ يُذكر إسماعيل مع إسحاق، بل أخر ذكره عنه بدرجات؟ قلنا: إن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب. أما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد".

فهل كان من الواجب أن يذكره القرآن بغير حاجة ولا مناسبة، حتى يرضى نولدكه؟؟

هذه هي وجوه عدم ذكر الآيات المكية لإسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين. نختصرها في جملة واحدة هي:

لم تكن ثمة مناسبة لذكره.

ثانيًا: توجيه ذكر الآيات المدنية لإسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين:

لقد ذُكِر إسماعيل في الآيات المدنية المذكورة[1] مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ لأنه:

أ- لا يوجد ثمة ما يمنع ذكره؛ فهو قد اشترك مع مَن ذُكر من الأنبياء في كل ما أثبتته لهم الآيات المدنية المذكورة:

فالإسلام دينه، كما هو دين غيره من الأنبياء المذكورين معه فيها. ويجب على المسلمين أن يؤمنوا بما أُنزل عليه. وهو لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا. ولقد أوحى الله إلى محمد كما أوحى إليه؛ وما دام الأمر كذلك فليس ثمة ما يمنع ذكره حتى يعد نولدكه ذلك إقحامًا قام به النبي.

كما أن إسماعيل قد ذُكر في هذه الآيات، إما في سياق التدليل على أن الإسلام دين هؤلاء الأنبياء (الذين سماهم نولدكه الآباء الإسرائيليين)[2]؛ أو في سياق الأمر بالإيمان بكل ما أُنزل على الأنبياء من قبل - ومن جملتهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

(١) راجع: ص٢٦٦.

(٢) البقرة: ١٣٣: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ الآية.

ويعقوب - بالإضافة للإيمان بما أنزل على محمد. وألا يُفرَّق بين هؤلاء الرسل[١]. أو في سياق تأكيد القرآن أن الله أوحى إلى محمد ﷺ مثلما أوحى إلى الأنبياء من قبله، ومنهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب[٢].

ب- فأين الإقحام في أيٍّ من هذا؟ هل لدى نولدكه ملاحظات على شيء مما أثبته القرآن المدني هنا لإسماعيل؟ إذا كان لديه منها شيء؛ فلماذا لم يصرح به؟ لا مناص إذن من أن نعد دعواه هنا -من حيث المنهج- مجرد دعوى فارغة غير ذات مضمون.

ثالثًا: بعد أن تناولنا بالتفصيل كلًّا من الآيات المكية والمدنية المشار إليها، من حيث ذكرها أو عدم ذكرها إسماعيل بشكل متصل مع الآباء الإسرائيليين؛ بقيت زاوية لا تقل أهمية عما ذُكر، هي: تَعَلّقُ ما لاحظناه من فارقٍ بالجانب العقدي الذي يُعَالَج في كلٍّ:

أ- فمن المعلوم أن محل النزاع مع المشركين في مكة كان منصبًّا حول نفيهم الوحي والرسالة من حيث المبدأ؛ لذا فقد كان اهتمام القرآن متوجهًا في المقام الأول إلى: إثباتهما في ذاتهما، ثم إثباتهما لمحمد ﷺ والأنبياء من قبله - صلوات الله عليهم جميعًا - مع ذكرِ عدد من هؤلاء الأنبياء.

ولما كان الحال أن معظم من ذُكر منهم من ذرية إبراهيم كانوا من فرع إسحاق ويعقوب، ولم يكن واحد قبل محمد ﷺ قد بعث من فرع إسماعيل؛ ناسب ألا يُذكر: إسماعيل بين من سماهم نولدكه (الآباء).

(١) البقرة: ١٣٦: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، وآل عمران: ٨٤: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية.

(٢) النساء: ١٦٣: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ الآية.

ب- أما في المدينة؛ فلقد كان محلّ النزاع بين القرآن من جانبٍ؛ وأهلِ الكتاب من جانب آخر مُنصَبًّا في المقام الأول حول نبوة محمد ﷺ وصدقها؛ وليس حول الوحي والنبوة بإطلاق؛ لذا كان الاهتمام متوجهًا في المقام الأول إلى إثباتها له.

ولـمَّا كان أهل الكتاب يُرَوّجُون لمفهوم (حصر النبوة في فرع إسحاق بن إبراهيم دون فرع إسماعيل)؛ فإن القرآن المدني راعَى مُقتضى الحال وأقام الحجة عليهم، وحَرصَ على هدايتهم وتبصيرهم بالحق، ووضعَ الأمورَ في موضعها الصحيح؛ حتى لا ينخدع بترويجهم أحد. لذا فقد أعاد الاعتبار لإسماعيل الذي كان أهل الكتاب يكتمون كل ما ثبت لديهم عنه من حق، ولا يروجون عنه سوى أنه (ابن الجارية)، وأمر بالإيمان بكل ما أُنزل على الأنبياء من قبل - ومن جملتهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب - بالإضافة للإيمان بما أُنزل على محمد. وأمر ألا يُفرَّق بين هؤلاء الرسل[1].

رابعًا: إن القضية الأساسية التي كان من الواجب أن يبحثها نولدكه هنا هي الجواب عن: هل جاوز القرآن الحقيقة فيما قرره عن إسماعيل، سواء في القرآن المدني أو القرآن المكي؟

وهل ما أثبته القرآن المدني لإسماعيل ناقَض شيئًا مما ذكره عنه القرآن المكي؟

وما موقف العهد القديم مما نسبه القرآن لإسماعيل؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة هي التي كان من الواجب أن ينشغل بها نولدكه، وليس مكان نزول ما قرره القرآن بشأن إسماعيل!

---

(١) البقرة: ١٣٦: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، وآل عمران: ٨٤: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية.

لقد ذكرنا من قبل أن القرآن المكي ليس فيه ما يناقض كون إسماعيل عليه السلام واحدًا ممن سماهم نولدكـه (الآباء)؛ وأن أسفار اليهود المقدسة ليس فيها ما يناقض ذلك أيضًا؛ بل فيها أنه من نسل إبراهيم، وأنه ابنه البكر، وأن الله أعطى عهده لنسل إبراهيم جميعًا، وأنه بورك، وأن إبراهيم وُعد من قِبَـل الله أن يجعل إسماعيل أمة كبيرة[1].

فما الذي يمنع أن يُذكر إسماعـيل في القرآن المدني مع هؤلاء الآباء، وهو واحد منـهم؟

٨- أما دعوى نولدكه أن إسماعيل قد رُقي في القرآن المدني ليصير مؤسسًا مشاركًا للكعبة؛ معتمدًا على عدم ذكر القرآن المكي مشاركة إسماعيل لإبراهيم في بنائها؛ فمردود عليها بالآتي:

أ- إن القرآن قبل أن يصل بالمسلمين لأن يجعل الكعبة قبلة فقد مهَّد لهذه النتيجة بممهدات؛ منها: أن أَقـرَّ في وجدان المسلم أن إبراهيم وإسماعيل نبيان من أنبياء الله كريمان؛ وأن ملة إبراهيم هي الحنيفية؛ وأنه كان لإبراهيم علاقة بمكة والبيت الحرام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ الآية[2]، و﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ الآية (٣٧ إبراهيم). ولقد تم جانب كبير من هذا في القرآن المكي؛ لأنه كان محل نزاع مع المشركين أيضًا.

ب- ولما استقرت هذه الحقيقة؛ بيَّن القرآن في المدينة أن إبراهيم وإسماعيل - وهما بهذا الشأن العظيم الذي اتضحت معالمه للمسلمين في القرآن المكي - قد رفعا قواعد البيت الحرام. وتمت

(١) سبق أن ذكرنا ذلك.

(٢) إبراهيم: ٣٥.

الإشارة إلى هذا في المدينة[1]؛ ولم تتم بنفس الحسم في مكة؛ لأن علاقة إبراهيم بالبيت، وكذلك إسماعيل لم تكن محل نزاع مع المشركين؛ إنما الذي كان محل نزاع معهم هناك؛ هو صلتهما بدين الإسلام، وهي التي عولجت هناك.

* * *

(١) البقرة: ١٢٥ : ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، والبقرة: ١٢٧ والتي بعدها: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾.

المبحث الثالث
دعاواه بشأن علاقة النبي بإبراهيم عليه السلام

يناقش هذا المبحث نولدكه فيما ادعاه من أنه لما كَوَّن النبي في المدينة تصورًا جديدًا عن إبراهيم؛ فإنه وصل نفسه به في آيات مدنية، وقَدَّر ملته على نحو خاص، واتجه إلى الكعبة في الصلاة، وأدخلها ومكة في شعائر الحج.

ولنناقش هذه الدعاوى بالتفصيل:

الدعوى الأولى: أن الصلة التي بين النبي وإبراهيم لم توجد إلا في القرآن المدني، وأنها جاءت بتأثير يهودي أو نصراني:

أعيد هنا ترجمة قول نولدكه الذي ذكرته في مطلع هذا الجزء:

"قد أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآية ٤٥ النحل و٧ الأنبياء[(١)]. وتأتي خيبة الأمل في المدينة، إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى مرجعية[(٢)] لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظهروا في مواجهته [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط: ١٢٩ البقرة[(٣)]".

---

(١) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٢) عبارته الألمانية هي:

So muß er sich eine über ihre kontrolle erhabene Instanz suchen.

(٣) ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ الآية.

ويقول[1]:

"Daß sich Muhammed später gerade Abraham am meisten verwandt fühlte, darf nicht Wunder nehmen. galt doch dieser Patriarch den Christen wie den Juden als vollendetstes Muster der Gerechtigkeit und des Glaubensgehorsams, als der «Vater» aller Frommen und der Freund Gottes. Die Bevorzugung Abraham's durch Muhammed hängt weiter aufs engste zusammen mit der Ansicht von Sur. 2.119,121, daß jener der Gründer des mekkanischen Heiligtums sei"

وترجمته:

"لا يجوز لنا أن نستغرب أن يشعر محمد في النهاية[2] بصلة مع إبراهيم؛ فإن هذا البطريرك الذي يُنظر إليه لدى كل من اليهود والنصارى -على حد سواء- على أنه النموذج الأكمل للإخلاص والانقياد للدين، ويعامل كأب لكل الأتقياء وأولياء الله. إن اصطفاء محمد لإبراهيم يتعلق بما يستمد من سورة البقرة، الآيتين ١١٩ و١٢١ من أن إبراهيم هو مؤسس الحرم المكي".

وأقول عن الشق الأول من هذه الدعوى:

١- لقد أوجد القرآن المكي الصلة بين النبي ﷺ وإبراهيم عليه السلام دون أن يتأخر هذا إلى الفترة المدنية؛ قال تعالى في سورة الأنعام المكية[3]: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال في سورة النحل المكية أيضًا[4]: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ

(١) ص١٤٧.
(٢) لاحظ تعبير: (في النهاية).
(٣) ١٦١.
(٤) ١٢٠-١٢٣.

حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وسأوضح بعد قليل صلة الأبوة الإبراهيمية للنبي والعرب[1].

٢- وليس إبراهيم عليه السلام وحده هو الذي عقد القرآن بينه وبين النبي هذه الصلة؛ فبنَصِّ القرآن المكي والمدني أيضًا نجد أن لكل الأنبياء قبل إبراهيم وبعده مثل هذه الصلة مع محمد ﷺ؛ فكلهم جميعًا أرسلوا بدين الله الواحد:

ففي القرآن المكي: بيَّن الله الصلة بين النبي ومن قبله من الأنبياء من حيث إنه شرع له نفس ما وصى به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى؛ فقال[2]:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. ثم قال بعدُ[3]: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وفي القرآن المدني وُجدت هذه الصلة كذلك:

من حيث وحدة مصدر الوحي لدى جميع الأنبياء؛ قال تعالى[4]: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

(١) وإن كان التشهد في ختام الصلاة قد شرع في العهد المكي لكان معنى ذلك أن إبراهيم وآله يذكرون في الصلاة منذ العهد المكي، ويُربط بينهم وبين محمد وآله، على الجميع الصلاة والسلام.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) الشورى: ١٥.

(٤) النساء: ١٦٣-١٦٦.

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

ومن حيث إن جميع الرسل مُصطفَون منه تعالى؛ قال[1]: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ومن حيث إن من عقيدة المؤمن عدم التفريق في الإيمان بين أحد من رسل الله؛ قال[2]: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. وقال أيضًا[3]: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أما الشق الثاني، وهو ادعاء نولدكه أن الصلة الخاصة للنبي مع إبراهيم عليه السلام قد جاءته بتأثير يهودي أو نصراني، فمردود عليه بالآتي:

١- إذا كان المقصود بهذه الصلة أُبوة إبراهيم عليه السلام للمسلمين؛ فإن هذه الأبوة هي الأبوة الروحية لكل المسلمين: أبوة النبي والرسول الذي جاءت كل الأنبياء من بعده من ذريته؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[4].

وحين يبين القرآن هذه الصلة فهـو ليس متأثرًا باليهودية أو النصرانية في ذلك؛ لأنه عارَض أصلًا كون اليهود والنصارى متبعين لإبراهيم؛ فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

(١) آل عمران: ٣٣.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

(٣) النساء: ١٥٢.

(٤) الآية ١٦١ الأنعام ومن الآية ٧٨ الحج.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾[1].

فكيف يكون القرآن متأثرًا باليهودية أو النصرانية في بيانه الأبوة الروحية لإبراهيم عليه السلام للمسلمين، وهو قد بين ضلال اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم؟

وإذا كان القرآن تأثر بالمسيحية في هذه الجزئية المتعلقة بإبراهيم عليه السلام؛ فلم خالفها في الاعتقاد أن الذي يموت يذهب إلى حضن إبراهيم[2]؟

كما أنه ليس مستغربًا أن يعترف المسلمون واليهود والنصارى بفضل إبراهيم عليه السلام؛ يقول الرازي عنه[3]: "يعترف بفضله جميع الطوائف والملل؛ فالمشركون كانوا معترفين بفضله مُقرّين بأنهم أولاده، واليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره". وقال[4]: "ثم إنه عليه السلام سأل ربه فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾[5]. فوجب في كرم الله تعالى أن يجيب دعاءه، ويحقق مطلوبه في هذا السؤال؛ فلا جرم أن أجاب دعاءه وقبل نداءه وجعله مقبولًا لجميع الفرق والطوائف إلى قيام القيامة".

٢- وإذا كان المقصود هنا أبوة إبراهيم للعرب التي قال عنها نولدكه[6]: "إنها لا تستدعي أن تتخذ موضوعًا للنقاش"؛ فهي ثابتة أيضًا لا يحتاج القول بها إلى تأثر بيهود أو نصارى؛ فقد كان شعور العرب المستعربة بنسبتهم

(١) البقرة: الآيات: ٦٧، ٦٨، ١٤٠.

(٢) جاء في إنجيل لوقا (١٦: ١٩-٢٢) أنه كان هناك في زمن المسيح عليه السلام مسكين اسمه لعاذر؛ كان لا يجد الطعام؛ وكانت الكلاب تلعق قروحه فمات، فحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم.

(٣) التفسير الكبير: المجلد ٦ ج١٢ ص٣٧٥.

(٤) المرجع السابق ص٣٧٦.

(٥) الشعراء: ٨٤.

(٦) راجع هامش ٤١١ ص٢١٠ من هذا الجزء.

لإبراهيم عن طريق ولده إسماعيل عليهما السلام شعورًا عامًّا أكده بحث الحنفاء الحثيث عن بقايا دين إبراهيم عليه السلام في أرض العرب[١].

ويعترف العهد القديم أيضًا بهذه الأبوة؛ فقد جاء فيه أن إسماعيل سكن برية فاران[٢]، وهذا الاسم هو الإطلاق العبري على جبال مكة.

وجاء فيه كذلك قائمة بأسماء أبناء إسماعيل الذين كانوا أصول عدة قبائل في بلاد العرب[٣]، وأن هؤلاء الأبناء "سكنوا من حويلة إلى شور التي أمام مصر، حينما تجيء نحو أشور"[٤]. أي: "شمال جزيرة العرب وفلسطين وأرض مابين النهرين"[٥].

ويقول الأستاذ عبد الوهاب النجار[٦]: "حويلة، هي خولان: قبيلة يمانية تسكن سراة اليمن مما يلي الحجاز؛ وهذا دليل على أن مكة تشملها مساكن إسماعيل وبنيه".

كما يعترف أهل الكتاب أيضًا بهذه الأبوة؛ فلقد ذكر چورچ زنانيري[٧] أن بطرس المبجل *Petrus Vernabiles* (١٠٥٩-١١٥٦م) سمى العرب: (أبناء إسماعيل). كما أن المسيحيين السريان، كما يقول أليكسي جورافسكي[٨]،

---

(١) ستأتي الإشارة لذلك بعد قليل.

(٢) الترجمة العربية للعهد القديم تك ٢١: ١٤-٢١، وفيها النص عن إسماعيل: "وسكن في برية فاران"، وكذلك نفس النص في الترجمة الألمانية *Genesis, 21-21*.

(٣) تك ٢٥: ١٢ - ١٨.

(٤) تك: ٢٥: ١٨ وفي النص الألماني:
‘Sie wohnten von Hawila an bis nach Sur, das ; östlich von Ägepten liegt, gegen Assur hin “ Genesis, 25: 18

وترجمتها: وسكنوا من حويلة إلى صور التي تقع شرق مصر في اتجاه أشور.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٣ ص٣٦٠- ٣٦٢.

(٦) قصص الأنبياء ص ١٣٦، ١٣٧ نهاية هامش ١.

(٧) في كتابه بالفرنسية: *L, Eglise etl, Islam (Paris 1969) PP177-178*

(٨) الإسلام والمسيحية ص ٧٢.

"أطلقوا على المسلمين لفظ: (أبناء الجارية)"، ويضيف[1]: "طبقًا لقصص التوراة والقرآن؛ فإن العرب تحدروا من نسل إسماعيل بن إبراهيم وهاجر جارية سارة، وبهذا الصدد كتب ماسينون قائلًا: إن تاريخ الجنس العربي يبدأ من دموع هاجر، الدموع الأولى في الكتاب المقدس".

وفي دائرة المعارف الإسلامية[2] أن "إسماعيل هو أبو العرب الذين كانوا في شمال الجزيرة العربية".

ولعل من المفيد هنا أن أختم هذه الجزئية بقول الأستاذ محمد حسين هيكل[3]:

"إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ؛ فإبراهيم الذي خرج من العراق فارًّا من أهله إلي فلسطين وإلى مصر أَلِفَ الترحال وأَلِفَ اجتياز الصحارى. والطريق ما بين مكة وفلسطين كان مطروقًا من القوافل منذ أقدم العصور؛ فلا محل إذًا للريبة في واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها".

وإذا كنا نقول بإمكان «انتقال جماعة من أبناء إبراهيم وإسماعيل بعد ذلك من فلسطين إلى بلاد العرب، واتصالهم وإياهم بصلة النسب، وما ندري - وهذا الإمكان جائز عندهم في شأن أبناء إبراهيم وإسماعيل - كيف لا يكون جائزًا في شأن الرجلين بالذات ... وكيف لا يكون بحيث لا يأتيه الريب، وقد ذكره القرآن وتحدثت به بعض الكتب المقدسة الأخرى»[4].

وأقول إذن: إنه على أي وجه كانت الصلة التي بينها القرآن بين محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام فهي ليست بتأثير من اليهود أو النصارى.

***

(١) المرجع السابق ص ١٢٤.
(٢) مجلد ٣ ص ٣٦٠ - ٣٦٢.
(٣) ص١٠٧ حياة محمد في معرض رده على وليم موير.
(٤) ص١٠٧ حياة محمد.

الدعوى الثانية: أن تقدير القرآن لملة إبراهيم والإخبار بأنها كانت الإسلام، وكذا الأمر باتِّبَاعها؛ هي أيضًا وجهات نظر جديدة للنبي في المدينة، وحَدد نولدكه وقت إقرارها بما بعد غزوة بدر؛ زاعمًا أن معظم الآيات التي تشير لذلك، هي بكل يقين مدنية، مشككًا في مكية الباقي منها، مثل آية النحل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ يقول[1]: "إن الفترة إثر هذه الغزوة [بدر] هي زمن نزول الآيات ٨٧-١١٣ من سورة آل عمران[2]. وفي هـذه الآيات [كما يقول] تقدير لملة إبراهيم: آيـة[3] ٨٩، وإدخال للحج إلى مكة في عبادة الإسلام: آية ٩٠، وما بعدها[4]".

وعن الآية ١٢٤ من سورة النساء[5]؛ وفيها ذكر ملة إبراهيم يقول[6]: "إنها لم تنزل قبل غزوة بدر".

وأقول:

أولًا: فيما يتعلق بتقدير القرآن لملة إبراهيم، وكذا الأمر باتِّبَاعها؛ فإن كل ذلك قد بدأ في مكة، وليس في المدينة:

١- فقد ورد في القرآن المكي: وَصْفُ إبراهيم بالحنيفية وعدم الشرك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

كما أُمر النبي في القرآن المكي أن يتبع الفطرة، فيكون حنيفًا غير مشرك؛

(١) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٩١ - ١٩٢.

(٢) [من: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية إلى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وفيها مواجهة مع اليهود، وأمر باتباع ملة إبراهيم، وإشارة إلى البيت الحرام بمكة، وفرض الحج إليه على المستطيع ... إلخ]. [المؤلف].

(٣) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(٤) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ الآية، والتي تليها.

(٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

(٦) ص٢٠٣-٢٠٤.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وقال: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ الآية[1].

إن نولدكه لم يدَّع أن آياتِ الأنعام، ويونس، والروم مدنية هي الأخرى.. وأتساءل الآن: إذا كانت هذه الآيات قد تضمنت أن إبراهيم كان حنيفًا ولم يكن مشركًا، وأن الله أمر رسوله أن يكون حنيفيًّا؛ لأن ذلك هو الفطرة؛ وإذا كان نولدكه لم يدع مدنيتها، فكيف ساغ له أن يجازف بهـذا الحكم؟

٢- كما أُمِرَ النبي صراحة في القرآن المكي أن يتبع ملة إبراهيم؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾. وقال الله آمرًا نبيه محمدًا ﷺ أن يعلن أن الله هداه إلى صراط مستقيم؛ هو ملة إبراهيم؛ وهي الحنيفية: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

بعد اتضاح أن كل هذه آيات مكية؛ نخلص إلى أن الأمر باتِّبَاع ملة إبراهيم كان مكيًّا؛ وليس وجهة نظر جديدة للنبي في المدينة؛ كما زعم نولدكه دون أي سند علمي يسوغ له ذلك.

٣- لكن نولدكه يفاجئنا بتشكيكه في مكية آية النحل المذكورة أعلاه: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾؛ ثم لا يكتفي بهذا، بل يحكم بيقين أنها مدنية؛ يقول[3] عنها:

"إن الأصل المكي لها محل شك[4]؛ لأن معظم الآيات التي هي مثل هذه،

(١) الآيات مرتبة هي: النحل: ١٢٠، الأنعام: ٧٩، يونس: ١٠٥، الروم: ٣٠، ٤٣.

(٢) النحل: ١٢٣، الأنعام: ١٦١.

(٣) ص١٤٦ – ١٤٧.

(٤) أَستمِدُّ أدلة الحجج الآتية من: سنوك هورجروني *Snouck Hurgronje*: الأعياد المكية، طبعة=

وتشير إلى الإسلام على أنه دين إبراهيم أو ملة إبراهيم: ١٢٩ و١٣٤ البقرة، و ٨٩ آل عمران، و١٢٤ النساء، و٧٧ الحج[١]؛ حسب مضمونها الكامل هي بكل يقين مدنية. ويتقوى هذا الظن بأسباب داخلية؛ فقد أقنع محمد العرب في البداية أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى، وما تلقاه اليهود من موسى، ودعا بتفاؤل غير المؤمنين الذين يحتاجون للمعرفة إلى سؤال العارفين حتى يصلوا إلى معرفة حقيةِ رسالته: الآية ٤٥ النحل، و٧ الأنبياء[٢]. وتأتي خيبة الأمل في المدينة؛ إذ إن أهل الكتاب لا يريدون الاعتراف به. لذا وجب عليه أن يبحث عن جهة أعلى ليتخذها مرجعية؛ بحيث لا تعارض نصوص وحيه الأول. ولذا مـد يده نحو الأنبياء القدامى الذين لا يمكن لطوائفهم أن يظـهروا في مواجهتـه [يعارضوه]. يصرح بهذا الهدف بكل وضوح في موضع واحد فقط: ١٢٩ البقرة[٣]».

٤- لكن تشكيكه هذا حوى عدة أخطاء:

أ- أنه لم يعتمد فيه على أية رواية إسلامية تدعم حكمه؛ اللهم إلا روايته عن المستشرق سنوك هورجروني!![٤] فالروايات الإسلامية لا يذكر

= ليدن ١٨٨٠ ص٢٨-٤٠. يبرز هذا المؤلف أيضًا، وبحق في الرسائل المتأخرة أهمية إبراهيم لتطور موقف الوحي المحمدي المبكر. (نولدكه).

(١) الآيات مرتبة هي: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ الآية، و﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية، و﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، و﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، و﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾. ولقد نسب نولدكه ص ٢١٥ إلى عمر بن محمد - دون أن يذكر اسم كتاب - أن الآيات ٧٥ إلى ٧٨ من سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية، إلى آخر السورة - وفيها أن الإسلام هو ملة إبراهيم الذي هو أب للمسلمين - تعد مدنية؛ وذلك بسبب إعلان الجهاد".

(٢) ختمت كل آية منهما بـ ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

(٣) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية.

(٤) راجع هامش ٤ من الصفحة السابقة.

فيها كونها مدنية؛ فالواحدي وابن حجر والسيوطي[1] لا يستثنون من آيات سورة النحل المكية؛ فيجعلوها مدنية؛ سوى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ الآية ١٢٦ والتي بعدها.

ب- أنه رأى مدنيتها بناء على دعواه مدنية معظم الآيات التي لها نفس المضمون[2]. وهو بهذا يضعنا - على فرض صحة دعواه - أمام قاعدة لا يحتمل كلامه غيرها؛ هي: أنه إذا كانت قد ثبتت مدنية بعض الآيات التي تناولت حقيقة تاريخية معينة؛ فإن هذا يعني مدنية الآيات الأخرى التي تناولت الحقيقة التاريخية ذاتها، أو حقيقة أخرى على علاقة بها، يقينًا أو احتمالًا. وهذه القاعدة واضحة البطلان؛ إذ إن كثيرًا من الحقائق التاريخية[3] عولجت في القرآن المكي والمدني على حد سواء؛ وإن اختلف السياق الذي ترد فيه هذه الحقيقة، والزاوية التي تعالج من خلالها في هذا السياق، والضوء المراد تسليطه عليها.

ج- أنه اعتمد في زعمه مدنيتها على ما سماه: الأسباب الداخلية التي عندما نقرؤها نجده يعني بها: ما ادعاه من تحول النبي في البحث عن مرجعية من أهل الكتاب إلى إبراهيم؛ رغم أن ثبوت دعوى التحول تلك يلزمه -إلى جانب أدلة أخرى- أن يثبت أولًا مدنية هذه الآية. فجعلنا نولدكه إزاء هذه الصيغة غير المنطقيـة:

مدنية الآية المذكورة دليل على تحول النبي في البحث عن مرجعية.

وتحول النبي في البحث عن مرجعية دليل على مدنية الآية المذكورة.

---

(١) الواحدي: أسباب النزول صفحات ٢٣٣-٢٤٠ وابن حجر: الفتح ج٩ ص٤١ في شرحه للحديث رقم (٤٩٩٦)، والسيوطي: لُباب النقول، صفحات ١٩٣-١٩٧.

(٢) انظر مناقشتي له فيما مضى.

(٣) وغيرها عند التحقيق.

فجعل كلًّا منهما بالنسبة للآخر دليلًا ومستدلًّا عليه.

د- وعلى فرض صحة زعمه مدنيتها، ووصوله بهذا إلى القول بأن الأمر باتباع إبراهيم مدني؛ فماذا عساه قائلًا في آية الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[1]؟ حيث يأمر الله فيها نبيه محمدًا أن يعلن أن الله هداه إلى صراط مستقيم؛ هو الحنيفية ملة إبراهيم، ومعلوم أنه لا اختلاف من حيث المضمون بين اتباع ملة إبراهيم، والهداية إلى ملة إبراهيم.

إن نولدكه لم يلتفت لهذه الآية فأفلتت لحسن الحظ من قبضة أحكامه.

ثانيًا: فيما يتعلق بزعمه مدنيةَ إخبار القرآن أن ملة إبراهيم كانت الإسلام؛ فالحق أن الآيات التي تشير إلى ذلك صراحة مدنية؛ وهي: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]، و﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ الآية[3]. وأن الذي ورد في المكي: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4]. وقول الله على لسان إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[5].

فصحيح أن القرآن المكي لا يذكر بصريح اللفظ أن إبراهيم كان مسلمًا؛ في حين أن القرآن المدني ذكر ذلك صراحة؛ لكن هذا لا يمكن أن يفيد نولدكه في دعواه أن وصف إبراهيم بالإسلام كان خصيصة للمرحلة المدنية. وذلك لأن القرآن يسوي في الإطلاق بين الإسلام والحنيفية؛ يتضح ذلك من خلال الآتي:

١- إن بعض الآيات المدنية -مَثلُها في ذلك مَثَل الآيات المكية - أثبتت

(١) الأنعام: ١٦١.
(٢) آل عمران: ٦٧.
(٣) الحج: ٧٨.
(٤) النحل: ١٢٠.
(٥) الأنعام: ٧٩.

الحنيفية لإبراهيم دون أن يرد فيها وصفه بالإسلام؛ قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾، و﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾. والاقتصار عند الحديث عن إبراهيم في بعض الآيات المدنية على وصفه بالحنيفية فقط؛ لا يعني مطلقًا استبعادَ وصفه بالإسلام فيها؛ فلِم يُتوقع هذا الاستبعاد في المكي فقط؟ إن القرآن يكمل بعضه بعضًا.

٢- كما أن بعض الآيات المدنية سوَّت في الإطلاق بين (إسلام الوجه لله)، و(اتباع ملة إبراهيم حنيفًا)، وبينت أنهما شيء واحد؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[(1)]؛ فقد بينت الآية أن اتباع الإنسان ملة إبراهيم حنيفًا هو إسلام الوجه لله.

٣- كما ورد في بعض الآيات المدنية أيضًا أن ملة إبراهيم - التي أُمر النبي في مكة باتباعها - هي الإسلام لله؛ فقد جاء على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، و﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[(2)].

نخلص إذن إلى أن (إثبات القرآن المكي أن إبراهيم كان قانتًا لله حنيفًا، وأنه وجّه وجهه لله).. هذا الإثبات ينطوي بالضرورة على إثبات (أنه كان مسلمًا)؛ حيث ظهر لنا أن القرآن يُسَوي في الإطلاق بين الإسلام والحنيفية. وبهذا تبطل دعوى نولدكه أن حديث القرآن عن أن الإسلام هو دين إبراهيم يُعد وجهة نظر جديدة للنبي في المدينة. ويبطل استدلال نولدكه بهذه الدعوى على تحول النبي إلى إبراهيم مرجعية.

ثالثًا: أما نَفْيُ كونِ إبراهيم عليه السلام يهوديًّا أو نصرانيًّا فقد نزل هذا النفي في المدينة، وهذا هو المناسب، ولا يُتصور نزوله في مكة، حيث لم يكن ثمة جدل بهذا الشأن بين أهل الكتاب، والنبي يَستدعي أن ينزل الوحيُ بذلك. ولنأخذ مثلًا الآيات: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

(١) النساء: ١٢٥.

(٢) البقرة: ١٢٨، ١٣٠.

لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ[1] وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]؛ فهل كان يتوقع نولدكه أن تنزل هذه الآيات الكريمة وأمثالها بمكة، فيُخاطَب بها أهلُ الكتاب المقيمون بالمدينة في حين أن الرسول ما زال بمكة؟

إن الحاجة لتقرير هذه الحقيقة (التاريخية والعقلية في آن معًا) لم تكن قد نشأت بعدُ لدى الجماعة المسلمة؛ لذا تَركَ القرآن إقرارها لوقت الحاجة إليها لتكون عندئذ أوقع وأكثر تأثيرًا.

وأرى أن هذه مناسبة لأشير إلى طرف من منهج القرآن في عرض الحقائق المتعلقة بتاريخ العقيدة. إن القرآن يريد أن يربي المسلمين على هذه الحقائق بشكل يخالط العقل والقلب معًا، ولا يتأتى هذا بالتقرير النظري المباشر لها؛ لذا فإن المقطع القرآني المعين لا يعرض تلك الحقائق في نظريات مجردة جامدة معزولة عن الواقع، وإنما يعرضها حية متحركة تلامس الظرف الزماني والمكاني لنزوله. وتطبيق هذا في الشأن الذي معنا أننا نلاحظ أنه في حين لم يتطرق القرآن المكي إلى نفي يهودية إبراهيم ونصرانيته فإنه نَفى كونه من المشركين؛ لأن طرح هذه الحقيقة التاريخية الأخيرة بشأنه هي التي تناسب الظرف المكي. فهل لم تفلح السنوات الطوال التي قضاها نولدكه مع القرآن في جعله يفهم منهجه؟

***

الدعوى الثالثة: أن الاتجاه للكعبة قبلة للصلاة يأتي في سياق التصور الجديد عن إبراهيم؛ يقول[3]:

"إن سبب تحويل قبلة الصلاة الأورسالمية يندرج في إطار التصور الجديد عن أديان الوحي القديمة، الذي ناله محمد بالتدريج في المدينة؛ ففي حين أنه كان يشعر في الماضي

(١) حادثة جدال أهل الكتاب فيما بينهم في شأن إبراهيم رواها ابن هشام (ج٢ ص٣٦٠).
(٢) آل عمران: ٦٥-٦٧.
(٣) ص١٧٥ الهامش.

أنه وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ فقد حركه إخفاق دعايته بين هؤلاء إلى أن يولي وجهه للارتباط بآخَرَ؛ وجده أخيرًا في دين إبراهيم الذي ربط الوحي بينه وبين الكعبة[1]، ولذا أصبح مكان الطقوس الوثنية حرمًا للإسلام، واتخذ مكانًا مثل هذا قبلة للصلاة، و كما كانت أورسالم بالنسبة لليهود. إن القبلة المكية التي وجب على محمد – حسب نظريته عن دين إبراهيم – أن يعدها الحق الأوحد؛ لم تقتصر على رفع إحساس المسلمين بذاتهم الذي شكل عائقًا جديدًا بين اليهود المواجهين المستنكرين وبين الإسلام[2]؛ وإنما أيضًا سهلت الدعاية بين القبائل الوثنية".

ويقول[3]:

"يحاول محمد في الآيات من ١١٦–١٣٥ من سورة البقرة[4] إثبات أن الكعبة ودين إبراهيم كانا أفضل بكثير من اليهودية. وما كان يلمح به قليلًا أو كثيرًا في هذه الآيات والتي قبلها؛ يشير إليه بوضوح صراحة في الآيات من ١٣٥–١٤٥ [5] التي فرض فيها على المسلمين صرف الوجه في كل الصلوات جهة الكعبة، ويخبر القرآن هنا أن كثيرين سيأخذهم الانزعاج بسبب هذا[6]".

وأقول: إن خلاصة دعواه هنا أن النبي كان في البداية وثيق الصلة باليهود والنصارى؛ لكن بعد إخفاق دعايته بينهم ولى وجهه نحو إبراهيم، فاتخذ الكعبة قبلة؛ وهذا التحول يندرج تحت الإطار الذي يزعمه نولدكه، وهو (التصور الجديد الذي حصله النبي

---

(١) يعترف نولدكه بالوحي إلى محمد ﷺ إذن.

(٢) لم يكن اليهود بحاجة لعائق بينهم وبين الإسلام؛ فقد تنكروا له من البداية، وجعلوا أنفسهم في موقف العداء له. [المؤلف].

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص١٧٧.

(٤) الآيات من ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلى ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ الآية.

(٥) من: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ الآية إلى ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ الآية.

(٦) يحيل نولدكه هنا إلى كتاب سنوك هورجروني *Snouck Hurgronje*: الأعياد المكية.

بالتدريج عن إبراهيم عليه السلام في المدينة) أو تحول النبي إلى إبراهيم ليتخذه مرجعية، وأرد بالآتي:

١- إن تحول النبي إلى الكعبة كقبلة لم يكن رد فعل على عدم إيمان اليهود به؛ لأن هذا التحول ووقته كان أمرًا من الله تعالى، لم يكن للنبي فيه اختيار؛ ولو كان للنبي مثل هذا الاختيار لما تأخر في التحول إلى الكعبة؛ فلقد كان وقت اتخاذه بيت المقدس قبلة يَوَدُّ لو تحول للكعبة؛ لكنه وهو الوقاف عند أمر ربه لا يتجاوزه ولا يقدم بين يديه؛ ما كان ليفعل ذلك. وكان كل ما يفعله بهذا الشأن أن يقلب وجهه في السماء منطويًا قلبه على رجاء خَفِيٍّ لربه أن يأمره بذلك، لكن مع حياءٍ أن يعبر عن ذلك بلسانه.

ولقد أشار القرآن إلى هذا فقال: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾[1].

٢- فإذا كان الأمر كذلك.. فكيف نفهم تأخرَ الأمر بتحويل القبلة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا بعد الهجرة[2]؟

هل يمكن أن يفسر على النحو الذي فسره به نولدكه؟..

إن القرآن يبين أن الأمر بتحويل القبلة سُبِق بعدة حقائق بشأن إبراهيم وإسماعيل ومِلَّتِهِمَا، وكذلك بشأن بيت الله الحرام؛ فيما يشبه أن يكون مقدمة تمهيدية للأمر بتحويل القبلة؛ وأعني بهذا الآيات: ١٢٤-١٤١ من سورة البقرة[3] التي تشير إلى إمامة إبراهيم، وقيامه هو وإسماعيل برفع قواعد البيت وتطهيره للعابدين، وجعله بيتًا لله وحده. كما تشير إلى كون إبراهيم وسائر الأنبياء مسلمين وليسوا يهودًا أو نصارى. وتشير كذلك إلى

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) هذا التحديد الزمني من حديث البراء رضي الله عنه البخاري بشرح ابن حجر ج٨ ص ١٧١ رقم (٤٤٨٦).

(٣) من ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ إلى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾.

أن صبغة الله هي اتباع ملة إبراهيم كما عرفها القرآن؛ وهي في نفس الوقت ملة يعقوب وبنيه من بعده. وتبين الآيات أن السفيه وحده هو الذي يتنكب تلك الملة؛ ومن ثم فيجب على النبي وأهل الكتاب اتباعها. كما تقرر الآيات وراثة النبي إمامة إبراهيم[1]. هذه هي المقدمة التي سَبَقت الأمر بتحويل القبلة، وأراها ضرورية[2].

٣- فلقد تأخر الأمر الإلهي بتحويل القبلة حتى تستقر هذه الحقائق في وجدان المسلمين؛ فنحن نعلم أنه حين أمر الله تعالى بتحويل القبلة إلى بيته الحرام كانت الأصنام ما زالت تحتل باحته، وتضفي على أجوائه طابعًا وثنيًّا زائفًا؛ فلو كان الأمر بالاتجاه إليه في الصلاة قد صدر من قِبَل الله في بداية العهد المدني أو قبله؛ دون ما أشرت إليه من تمهيد تأصيلي عقدي يبين صلة دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالبيت الحرام؛ لأمكن للحملات التشكيكية التي صدرت من اليهود بهذا الشأن أن تُحدث بعض التأثير السلبي في نفوس بعض المسلمين؛ وألا تكون استجابة المسلمين لأمر الله بالاتجاه للكعبة بنفس القدر الذي حصل عندما قُدِّم للأمر بتحويل القبلة بذلك التمهيد.

لذا فإن الترتيب المنطقي يقتضي أن يتم التأصيل من كافة الجوانب أولًا لعلاقة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالكعبة؛ وأن يُزال من وجدان المسلمين أي غبش عقدي يفرضه الواقع حول أصالة النظر للكعبة كبيت الله. فلقد أخَّر الله تحويل القبلة إلى الكعبة إلى أن ينطبع في وجدان المسلم وشعوره أنها بيت التوحيد الخالص لله تعالى. ثم لما استقر هذا جعلها الله قبلة للمسلمين.

---

(١) الآيتان: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، و﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾.

(٢) كما أن القرآن بعرضه هذه الحقائق في هذه المقدمة؛ جعل المسلمين يعتبرون وجود الأصنام حول الكعبة - مهما طال زمنه - مجرد لحظة عابرة استثنائية يمكن تجاوزها والعودة بعدها إلى الأصل. كما جعلهم يتوقعون أن عليهم أن يكونوا أداة لتحقيق هذا.

من هذه الزاوية وحدها يجب أن يُنظر لتأخر تحويل القبلة؛ وليس من زاوية وجود (تصور جديد حصله النبي عن إبراهيم عليه السلام في المدينة) أو(تحول من قبل النبي في البحث عن مرجعية)، أو حتى من زاوية كونه رد فعل على كفر اليهود.

٤- وإذا لم تكن الرغبة في التحول عن اليهود إلى إبراهيم ليست هي السبب في تغيير القبلة. فما السبب إذن؟ إن الآيات الآمرة بتحويل القبلة تبين ما يمكن أن يكون أسبابًا لهذا التحويل:

أ- فالجهات - كما يقول الشيخ محمد عبده[1]: "كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة؛ وأن لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء، وهو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"؛ قال تعالى ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ب- كما أن هذه القبلة الجديدة علامة على تميز ووسطية الأمة المسلمة[3]، بحيث لا تتبع قبلة كان اليهود يتبعونها؛ بل يكون لها قبلة خاصة علامة على الخصوصية؛ قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الآية[4].

ج- وأن تولية الوجه شطر المسجد الحرام هي الحق من الله تعالى،

---

(١) ص٤ ج٢ مجلد ١ تفسير المنار.

(٢) البقرة: ١١٥، ١٤٢.

(٣) ورد في أحكام القرآن للجصاص (ج١ ص٨٦): "قيل: إنهم كانوا أُمروا أن يتوجهوا إلى بيت المقدس ليتميزوا عن المشركين الذين كانوا بحضرتهم يتوجهون إلى الكعبة؛ فلما هاجر الرسول إلى المدينة كانت اليهود المجاورون للمدينة يتوجهون إلى بيت المقدس؛ فنقلوا إلى الكعبة ليتميزوا من هؤلاء، كما تميزوا من المشركين بمكة".

(٤) البقرة: ١٤٣.

وأهل الكتاب يعرفون ذلك؛ قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الآية[2].

د- وأن تولية الوجه شطر المسجد الحرام تقطع على اليهود قالةَ السوء التي كانوا يتفوهون بها في أثناء اتخاذ بيت المقدس قبلة؛ من قبيل: "يتبع قبلتنا ويوشك أن يتبع ديننا"؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3].

هـ- وأنها تُشعر بتوجيه قصد المسلمين وهمتهم نحو تطهير هذا البيت من الأصنام؛ ليصلوا في النهاية إلى إعادته إلى سابق عهده كبيت لتوحيد الله، منزه عن مظاهر الشرك؛ وُيفهم هذا من وعد الله لهم في آخرِ آيةٍ معنا: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[4]؛ وهي تشبه وعد الله لرسوله في مطلع سورة الفتح: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾؛ وقد عُدَّت الأخيرة بُشْرَى بفتح مكة.

ذكر الشيخ محمد عبده[5]: "أن الكعبة كانت في أول الإسلام مشغولة بالأصنام والأوثان، وكان سلطان أهل الشرك متمكنًا فيها، والأمل في انكشافه عنها بعيدًا؛ فصرفه الله أولًا عن استقبال بيت مدنس بعبادة الشرك، إلى بيت

(١) البقرة: ١٤٤.
(٢) البقرة: ١٤٩.
(٣) البقرة: ١٥٠.
(٤) الآية نفسها.
(٥) تفسير المنار مجلد ١ ج٢ ص٢١-٢٢.

المقدس قبلة اليهود؛ الذين هم أقرب من المشركين إلى ما جاء به من التوحيد والتنزيه. ولما قرب زمن تطهير البيت الحرام من الأصنام والأوثان وعبادتها وإزالة سلطة الوثنيين عنها؛ جعله الله قبلة للموحدين؛ ليوجه النفوس إليه؛ فيكون ذلك مقدمة لتطهيره وإتمام النعمة والاستيلاء عليه والسير فيه على ملة إبراهيم من التوحيد والعبادة الصحيحة لله تعالى".

***

الدعوى الرابعة: زعم نولدكه أن إدخال الحج إلى مكة في عبادة الإسلام؛ يأتي كذلك في سياق التصور الجديد عن إبراهيم؛ قال[1]:

"إن الفترة إثر هذه الغزوة [بدر] هي زمن نزول الآيات ٨٧-١١٣ من سورة آل عمران[2]. وفي هذه الآيات [كما يقول] تقدير لملة إبراهيم: الآيات ٨٩ [3]، وإدخال للحج إلى مكة في عبادة الإسلام: آية ٩٠ وما بعدها[4]".

وقال[5] عن الآيات ١٨٥-١٩٩ من سورة البقرة[6]:

"تُقدم هذه الآيات، باستثناء الجزء من ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ في الآية ١٩٦ إلى نهاية الآية ١٩٨ [7]، الذي يُحتمل أن يكون مكيًّا؛ مجموعة من القواعد التي تتعلق بالمنطقة

(١) ص١٩١ - ١٩٢.

(٢) من: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الآية إلى: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وفيها مواجهة مع اليهود، وأمرٌ باتباع ملة إبراهيم، وإشارة إلى البيت الحرام بمكة، وفرض الحج إليه على المستطيع ... إلخ. [المؤلف]. من هذه الآيات: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٥ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(٣) ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

(٤) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ الآية، والتي تليها.

(٥) ص١٨٠.

(٦) من ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾ إلى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

(٧) يشير إلى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ۝٢٠٠ وَمِنۡهُم =

الحرام في مكة؛ وبهذا يظهر بلا شك أصلها المدني. لكن لا يجزم بشيء بشأن ترتيبها الزمني. على أنه يمكن أن يصلح مؤقتًا أنها: تأتي من ناحية بعد آيات مثل ١٢٤ النحل[(١)] و١١٩ و١٢١ البقرة[(٢)]؛ التي فيها التصورات الرئيسة عن الكعبة؛ ومن ناحية أخرى ترجع إلى السنوات ٦، ٧، ١٠ التي قام فيها محمد بالحج، وما ينتمي إليه من زيارة (عمرة)" .

وأقول هنا:

لم يكن تشريع الحج في شكله الأخير عنصرًا من عناصر تصور جديد، حصَّله النبي ﷺ عن إبراهيم عليه السلام في المدينة كما ادعى نولدكه؛ وذلك للآتي:

١-أ- على المستوى النظري؛ فإن تقدير الوحي للكعبة وتحريم مكة أُوحي إلى النبي في مكة؛ ففيها نزلت الآيات الآتية:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، و﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الآية، و﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾، و﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، و﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، و﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[(٣)].

وقال النبي عند الهجرة من مكة[(٤)]: **«والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»**.

= مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(١) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ولقد سبق أن بينت أن هذه الآية ليست مدنية.

(٢) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ الآية، و﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(٣) أرقام الآيات وسورها بالترتيب: قريش: ٣، إبراهيم: ٣٧، الإسراء: ١، النمل: ٩١، القصص: ٥٧، العنكبوت: ٦٧.

(٤) سنن ابن ماجه ج٢ ص ١٠٣٧ رقم (٣١٠٨).

وحتى بالنظر إلى ما سميت أو وصفت به الكعبة؛ فالفارق ضئيل جدًّا في ذلك بين القرآن المكي والقرآن المدني؛ إذ نلاحظ أنها سميت في القرآن المكي: ﴿ٱلْبَيْتِ﴾، و﴿بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، و﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1]. وتكرر ذلك في القرآن المدني – ما عدا لفظ ﴿بَيْتِكَ﴾[2]. وزِيدَ الآتي: ﴿بَيْتِيَ﴾، و﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، و﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، و﴿ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[3]. وكلها – كما لاحظنا – لها أصل في القرآن المكي ما عدا وصف البيت بـ (العتيق)، وتسميته (كعبة)، وهو فارق ضئيل لا يتيح لنولدكه أن يدعي أن ثمة تصورًا جديدًا عن الكعبة حصَّله النبي في المدينة.

ب- إن نولدكه – صاحب الترتيب الزمني لآيات وسور القرآن – لا ينتبه إلى أن تقدير القرآن للكعبة لم يأت فقط في المرحلة المدنية؛ بل كان واضحًا منذ بداية الطور المكي الأول حسب ترتيبه هو، وهذا أمر غريب حقًّا؛ لكن الأغرب منه أن يأتي مستشرق ألماني لاهوتي، هو «باول شفارتزيناو» ***Paul Schwarzenau***، ويستخدم ترتيب نولدكه نفسه، فيصل منه إلى ما لم يستطع نولدكه أن يصل إليه منه؛ حيث يشير «شفارتزيناو» – في معرض رده على «رودي بارت» الذي يتابع «هورجرونيي» و«نولدكه» في هذا الادعاء– إلى أن موقف القرآن من الكعبة لم يتغير؛ يقول[4]:

"لا يوجد في القرآن أدنى أثر لجدل ضد الكعبة. إن محمدًا لم يُسَوِّ أبدًا *niemals.... In eins geworfen* بين بيت العرب المقدس وبين عبادة الأصنام[5] حولها. فالله – وليس أي إله محلي – هو رب البيت، سورة

---

(١) المواضع بالترتيب هي: ٣ قريش، ٣٧ إبراهيم، ١ الإسراء.

(٢) في الأنفال ٣٥، و البقرة ١٢٥، ١٢٧، ١٥٨، وآل عمران ٩٦، ٩٧، والتوبة ٧، ١٩، ٢٨، والحج ٢٥، والفتح ٢٥، ٢٧.

(٣) أرقام الآيات وسورها بالترتيب هي: ٢٦ الحج، و٢٩، ٣٣ الحج، و٢ و٩٧ المائدة.

(٤) *Korankunde für Christen (Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems) S. 87, 88.*

(٥) هو يقصد أن النبي طَوّحَ بعبادة الأصنام وهاجمها، لكنه لم يفعل الشيء نفسه مع الكعبة رغم أن الأصنام كانت حولها.

قريش الآية ٣[1]، وهي تأتي في بداية الطور المكي الأول، وسورة النمل الآية ٩١[2]، وهي تأتي في الطور المكي الثاني... إذن لم ينكر محمد منذ البداية لا الحرم ولا الحج.. ولا حق اللجوء إلى الكعبة *das Asylrecht*؛ بل أنكر فقط ما أدخل عليها من الشرك وتعدد الآلهة".

ونولدكه نفسه لا يستطيع أن يتجاهل كون تقدير الكعبة ورد في القرآن المكي، فهو يقول عن سورة قريش[3]:

> *„Die wohlwollende Stimmung, welche hier zum Ausdrucke kommt, deutet darauf hin, daß die Sura noch vor dem Konflikte mit diesem Stamme entstanden ist. Sonst wird der Ka'ba in keiner mekkanischen Sura mehr gedacht".*

وترجمته:

"أجواء الرضا التي تنطبع علينا من جراء هذه السورة تدل على أنها نشأت قبل الأزمة مع هذه القبيلة. ولن نجد الكعبة مذكورة في أية سورة مكية غير هذه".

ونولدكه حين يدعي عدم ذكر الكعبة في أي سورة مكية غير سورة قريش، فهو يكذب ويزور بشكل فج، وقد ذكرتُ قبل قليل الآيات المكية التي فيها ذكرٌ وتقديرٌ وتكريمٌ للكعبة، وهي: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الآية، و﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾، و﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، و﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، و﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾[4].

---

(١) ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾.

(٢) ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾.

(٣) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ ص٩١.

(٤) أرقام الآيات وسورها بالترتيب: ٣ قريش، ٣٧ إبراهيم، ١ الإسراء، ٩١ النمل، ٥٧ القصص، ٦٧ العنكبوت.

وليس لدي من تفسير سوى أن اهتمام نولدكه بدعم نظريته جعله يسقط من اعتباره هذا الموقف القرآني المعظم للكعبة منذ بداية نزول القرآن.

٢- وعلى المستوى التطبيقي من النبي نجد الآتي:

أ- لقد كان النبي قبل أن يوحى إليه يطوف بالكعبة ويعظمها، باعتبارها رمزًا على توحيد الله تعالى؛ قال عبد الله بن الزبير[١]: "كان رسول الله يجاور في حراء... وإذا قضى جواره كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره: الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا، أو ما شاء الله من ذلك...".

ب- وفي بدايات بعثته كان يطوف بها هو والمسلمون معه؛ حيث ورد أن رسول الله ﷺ "أقبل حتى استلم الركن ثم مر بهم (أي بمشركي مكة) طائفًا بالبيت" إلخ[٢]. ولم يرد أنه أقلع عن ذلك طوال المرحلة المكية.

ج- كما أنه صحيح أن تشريع الحج بتفاصيله لم يتم إلا في سنوات ما بعد الهجرة، ولم يكتمل إلا بحجة الوداع التي قال فيها النبي: **«لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»**[٣].

هذا صحيح... لكن ثبت أن رسول الله ﷺ أدى الحج على نحوٍ ما في العهد المكي قبل الهجرة؛ فعن جبير بن مطعم قال: أضللت جملًا لي يوم عرفة، فانطلقت إلى عرفة أبتغيه، فإذا أنا بمحمد واقف في الناس بعرفة على بعيره عشية عرفة، وذلك بعدما أنزل عليه... الحديث[٤]. ويقول ابن حجر

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٣٠٠، وابن هشام السيرة النبوية ج١ ص١٤٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج ١ ص١٤٨، وانظر ص١٧٣.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي المجلد ٣ ج٩ ص٤٤ - ٤٥ رقم (١٢٩٧).

(٤) مسند أحمد ج٤ ص٨٤ رقم (١٦٨٢٢)، وورد بلفظ مقارب في المستدرك ج١ ص ٦٥٦ رقم (١٧٧٣)، وفتح الباري ج٣ ص ٥١٦ -٥١٧.

في شرحه له: قال الكرماني: ويحتمل أن يكون لرسول الله وقوف بعرفة قبل الهجرة. اهـ، وهو المعتمَد.

كما أن البيعة الثانية من مسلمي يثرب تمت أواسط أيام التشريق بالعقبة[1] في منى، في موسم الحج؛ ووجود الرسول بينهم يعني أنه شارك في أعمال الحج.

فتقدير الكعبة وتعظيمها، وجعل مكة حرمًا، وأداء الحج على نحو ما؛ لم تكن أمورًا مدنية، وإنما كانت قد أُنزلت قرآنًا، أو نفذها النبي في مكة.

٣- أما تأخر تشريع الحج بشكله النهائي إلى سنوات ما بعد الهجرة، فيفسَّر على النحو الآتي:

أ- إن الحج قد فُرض على المستطيع بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية[2] التي جاءت في سياق الجدل مع اليهود بشأن الضجة المفتعلة التي أثاروها حول تحويل القبلة إلى الكعبة.

ولننظر إلى الآيات التي ورد فيها هذا الأمر؛ يقول تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ الآيات[3] فبعد أن ردَّ القرآن عليهم دعواهم مخالفته للتوراة في إباحة بعض الأطعمة المحرمة فيها رغم أنه مصدق لها؛ ردَّ عليهم فيما كانوا

---

(١) راجع ابن هشام: السيرة النبوية ج٢ ص٢٧٨، المقريزي: إمتاع الأسماع ٥٤-٥٥.

(٢) آل عمران: جزء من الآية ٩٧.

(٣) آل عمران: من ٩٣-٩٧.

مستمرين في التشكيك فيه، وهو تحويل القبلة؛ بأن أمر رسوله أن يعلن أن الله صادق فيما قرره هنا في شأن الطعام؛ كما كان صادقًا من قبل حين أمر بالتوجه إلى البيت الحرام في الصلاة[1]؛ وأن هذا كله كان اتباعًا لملة إبراهيم. ولأن هذه القبلة هي أول بيت وضع للناس، لذا فيجب عليهم - إن استطاعوا - أن يحجوا إليه. فالحج بشكله النهائي إذن مرتبط بجعل الكعبة قبلة؛ وقد جُعلت قبلة في المدينة للحكمة التي ذكرناها من قبل؛ لذا شُرع في المدينة ولم يشرع في مكة.

ب- والحج بشكله النهائي قد فُرض على المستطيع مع بعض العبادات؛ كالصيام والزكاة في السنة الثانية من الهجرة[2]، وهو الأمر الذي يتسق مع منهجية التدرج التي آثرها الإسلام في تثبيت أركانه بعد إقامة المجتمع المسلم؛ دون أن يكون لذلك أدنى علاقة بما زعمه نولدكه عن تصور جديد لدى النبي عن إبراهيم عليه السلام.

ج- كما أنه لم يكن ميسورًا للنبي أن يُتِم الحج أو العمرة على النحو الذي استقرا عليه إلا في ذلك الوقت المتأخر بعد الهجرة؛ وذلك لوجود معوقين كبيرين:

أولهما: تلك المواجهات التي فرض على دولة الإسلام الفتية أن تدخل فيها؛ إذ كيف كان يمكن أن يؤدي المسلمون الحج أو العمرة في بداية العهد المدني، وكيانهم ذاته مهدد من اليهود والمنافقين والمشركين، سواء أكانوا مكيين أو من قبائل أخرى وثنية مجاورة.

---

(١) وهو الأمر الذي عالجته الآيات ١٤٢-١٥٠ من سورة البقرة، ومقدماتها (١٢٤-١٤١)، وفيها أن الله جعل البيت مثابة للناس وأمنًا؛ وأن إبراهيم وإسماعيل رفعا قواعده وطهراه؛ وأن الله جعله قبلة المسلمين، وأن ملة إبراهيم هي الحق، وأن أهل الكتاب يعلمون أن البيت الحرام وملة إبراهيم هما الحق من الله تعالى... إلخ.

(٢) وإن تأخرت تفاصيل بعض مناسكه إلى الأعوام ٦، ٧، ١٠ هـ.

كيف كان يمكن أن تُلتقط الأنفاس للقيام بمثل تلك الرحلة الروحية، وقد فُرض على المسلمين حتى العام الخامس من الهجرة فقط تسعة عشر مواجهة [1] بين المسلمين وغيرهم من يهود ومشركين، سواء أكانوا مكيين أو من قبائل أخرى وثنية مجاورة. وقد تغاضى نولدكه عن كل ذلك كتفسير لتأخر كل من الحج والعمرة واختار - بغير حق - أن يفسره بكونه تصورًا جديدًا طرأ على فكر محمد في المدينة كرد فعل لصدامه مع اليهود وتكذيبهم.

وثانيهما: معوق العلاقة بين النبي ﷺ وأهل مكة الذي لم يكن ليتيح للنبي الحج أو العمرة في بداية العهد المدني.

فلقد كانت بين أهل مكة وبين النبي مواجهات عسكرية قاسية، منها بدر وأحد والخندق. وكانوا يفرضون لونًا من التضييق أمام من يقصد الحرم من المسلمين. لكن نولدكه تغاضى تمامًا عن كل هذا، وكأن الطريق نحو مكة كانت مفتوحة طوال الوقت - حتى في أثناء المواجهات - أمام النبي ليدخلها ويحج إليها؛ لكنه لم يفعل لأنه لم يكن قد كون تصوره الجديد عن إبراهيم!!

هكذا أراد نولدكه أن يصور لقارئه الأمر..

فهل كان يجهل تلك الملابسات التي شابت العلاقات بين النبي وأهل مكة، وذلك التضييق الذي كانوا يفرضونه على المسلمين الراغبين في زيارة البيت، واستغرق سنوات ستًّا من العهد المدني؟ إنه بكل تأكيد ما كان يجهله..

وهل كان يجهل منع المشركين النبي والمسلمين من أداء العمرة وزيارة البيت عام ست من الهجرة؟ إنها حادثة أشهر من أن يجهلها

(١) ما بين سرية قادها أحد أمراء رسول الله، أو غزوة قادها رسول الله بنفسه، أو يوم غدر كما في يوم الرجيع وبئر معونة.

دارس مبتدئ للإسلام – وذلك لارتباطها بصلح الحديبية – فكيف بمن هو في سعة اطلاع نولدكه؟

ويبقى السؤال: لماذا تجاهل نولدكه ذلك كله؟ والجواب: إنه أراد أن يصل إلى إقناع قارئه بشتى الوسائل: أن إدخال الحج إلى مكة في شعائر الإسلام ليس إلا تصورًا جديدًا طرأ على فكر محمد في المدينة؛ باعتباره رد فعل لتكذيب اليهود به وصدامهم معه. ولذا اجتهد نولدكه في صرف الأنظار عن هذين المعوقين الماديين اللذين جعلا من الحج والعمرة في بدايات العهد المدني أمرًا شبه مستحيل.

د- لكن على الرغم من هذا فقد أدى العمرة في الفترة قبل غزوة بدر بعض أصحاب النبي، الذين يأمنون على أنفسهم عند قريش كسعد بن معاذ. وهذا يبطل نظرية نولدكه من أساسها.

فقد ورد في الحديث الصحيح أن سعد بن معاذ انطلق معتمرًا قبل غزوة بدر وبعد الهجرة، فنزل على أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد، فقال أمية لسعد: انتظر حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقتَ فطُفت؛ فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمنًا، وقد آويتم محمدًا وأصحابه؟ فقال: نعم. فتلاحيا بينهما. فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم؛ فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام... الحديث[1].

ثبت بهذا الحديث الأخير أن العمرة وزيارة البيت الحرام معتمدة

(١) البخاري بشرح ابن حجر ج٦ ص٦٢٩ رقم (٣٦٣٢).

إسلاميًّا في بداية العهد المدني، كما كانت معتمدة في العهد المكي كله، ولم تأت رد فعل لتنكر اليهود للنبي.

لكنها بطبيعة الحال كانت في نطاق شخصي ضيق، نظرًا للتضييق الشديد الذي مارسته قريش ضد من يريد ذلك من المسلمين، وقد اتضح هذا جليًّا من الحوار بين أبي جهل وأمية بن خلف من جانب، وسعد بن معاذ من جانب آخر. لكن نولدكه أتى ليستغل جهل قارئه الغربي بدقائق وتفاصيل السيرة النبوية، فربط بين تأخر قيام النبي بعد الهجرة بالعمرة للعام السابع، وبين ما ادعاه من تكوينه تصورًا جديدًا عن إبراهيم، وزيارة البيت أحد معالمه!!! وقد ظهر لنا خطؤه.

وخلاصة القول أننا نرفض دعوى نولدكه الرئيسة في هذا الفصل، وهي: أن النبي ﷺ كَوَّن في المدينة تصورًا قرآنيًّا جديدًا عن إبراهيم عليه السلام؛ لم يُشَر إليه في القرآن المكي. عناصر هذا التصور هي: أن ثمة صلة بين النبي وإبراهيم، وأن الأخير كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن مشركًا ولا يهوديًّا ولا نصرانيًّا، وأنه يجب على النبي أن يَتَّبع ملة إبراهيم، وأنه وإسماعيل رفعا قواعد البيت الحرام؛ ولذا ورد الأمر القرآني بتقديره وتعظيمه والتوجه إليه في الصلاة، وجَعَل مكة حرمًا؛ وأدخلها القرآن المدني هي والبيتَ في شعائر الحج.

وكان رفضي بناء على ما ثبت لديَّ أن بعض عناصر هذا التصور (المدَّعَى كونُه مدنيًّا) قد وردت في القرآن المكي؛ وهذه العناصر هي: إثباتُ الصلة بين النبي وإبراهيم، وأن الأخير كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكن مشركًا، وأنه يجب على النبي أن يَتَّبع ملة إبراهيم، وتقديرُ البيت وتعظيمُه، وجَعْل مكة حرمًا. كما أن واحدًا منها على الأقل قد مارسه النبي وهو في مكة قبل الهجرة وهو أداؤه بعض شعائر الحج.

أما الذي انفرد القرآن المدني بتقريره منها فهو نفيُ كون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا، وإسنادُ رفع قواعد البيت الحرام إليه هو وإسماعيل، وجعلُ

الكعبة قبلة، وشعائر الحج المفصلة؛ على النحو المفصل في الجدول الآتي.

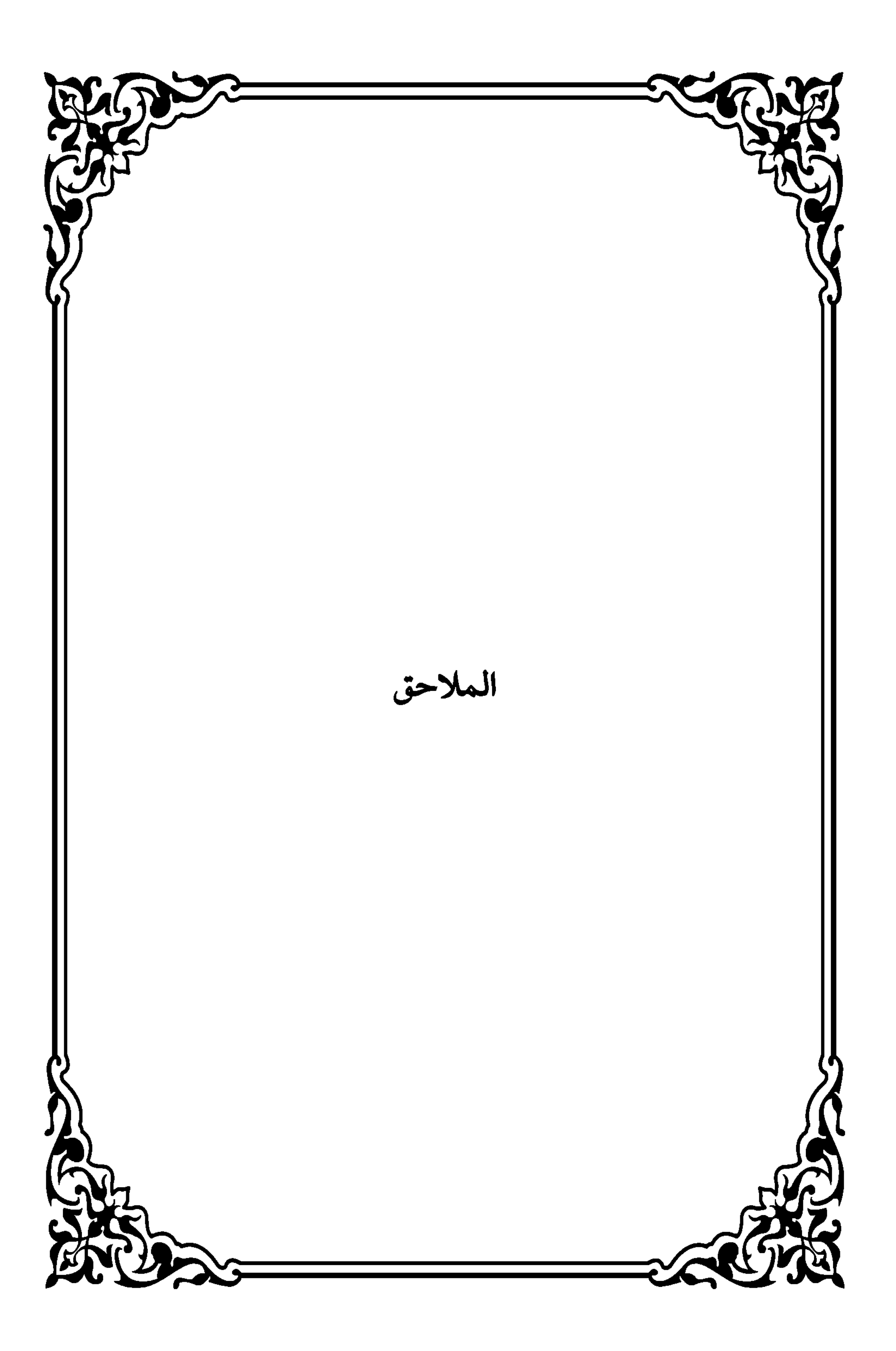
وكان لتأخر نزول كل منها إلى العهد المدني تفسير بينته عند الحديث المفصل عن كلٍّ. ومن ثم تسقط دعوى نولدكه في هذا الفصل.

* * *

النبي إبراهيم عليه السلام بين القرآن المكي والقرآن المدني
(ما تحته خط اختص القرآن المدني بإثباته)

موضع المقارنة	في القرآن المكي	في القرآن المدني
الموقف من إبراهيم عليه السلام	تقديره	استمرار تقديره
الصلة بين إبراهيم والنبي	القول بهذه الصلة	استمرار القول بهذه الصلة
ملة إبراهيم	* كان حنيفًا غير مشرك * الأمر باتباع ملته: (الإسلام)	* استمرار الوصف بالحنيفية * استمرار الأمر باتباع ملته * لم يكن يهوديا ولا نصرانيا
علاقته بمكة والكعبة	الربط بينه وبين الكعبة ومكة	١- استمرار الربط بينه وبين الكعبة ٢- أنه رفع قواعد الكعبة هو وإسماعيل
مكة والكعبة	تقدير الكعبة وتحريم مكة	١- استمرار تقدير الكعبة وتحريم مكة ٢- جعل الكعبة قبلة ٣- شعائر الحج التفصيلية

* * *



الملاحق

ملحق (١)
الإسلام دين الأنبياء جميعًا

لقد بين القرآن أن الإسلام بمعناه العام – بغض النظر عن الفروق في بعض تفاصيل الشرائع – هو دين الله الواحد الذي أرسل به جميع الأنبياء والرسل، من لدن آدم إلى خاتمهم محمد؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[١]؛ فلقد كان كل رسول يأتي قومه يقول لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. قالها نوح وهُود وصَالِح وشُعَيْب[٢]. ووُصف بالإسلام البيت الناجي من قوم لوط[٣].

وأعلن الأنبياء أنهم مسلمون؛ فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٤]. وهذان إبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥]. وهذان إبراهيم ويعقوب يوصيان أبناءهما: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٦].

كما يرد الوصف بالإسلام على لسان موسى ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[٧]؛ ومن ثم يطلب المؤمنون به أن يتوفاهم الله عليه ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[٨].

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) الأعراف: الآيات: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥.

(٣) الذاريات: ٣٦.

(٤) يونس: ٧٢.

(٥) البقرة: ١٢٨.

(٦) البقرة: ١٣٢.

(٧) يونس: ٨٤.

(٨) الأعراف: ١٢٦.

وأعلنه سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾[1]. وطلب حصوله من ملكة سبأ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[2]. واستجابت: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[3].

كما أعلنه فرعون موسى عند الغرق[4]. وأعلنه حواريو عيسى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[5].

وأصول الأخلاق من آدم إلى محمد كانت ثابتة، وكذلك كان الإيمان باليوم الآخر؛ لنستمع إلى شعيب وهو يقول: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[6]، ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[7].

ولنستمع إلى صوت اليقين الصادر من سحرة فرعون بعد أن آمنوا بنبي الله موسى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ (٧٣) إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[8].

كما بين القرآن أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ولا يرتضي لهم غيرَه، وأن جميع الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم جميعًا. وأن خاتمهم محمدًا ﷺ، يجب على أهل الكتب السابقة -الذين شهدوا مبعثه أو سمعوا عنه- أن يؤمنوا به. ومن لم يؤمن به فقد كفر بدين الله ودين جميع الأنبياء.

(١) النمل: ٤٢.
(٢) النمل: ٣١.
(٣) النمل: ٤٤.
(٤) يونس: ٩٠.
(٥) آل عمران: ٥٢.
(٦) الأعراف: ٨٥.
(٧) هود: ٨٤.
(٨) طه: ٧٢-٧٥.

لنقرأ معًا الآيات الآتية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾(٣).

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٤).

﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾(٥) الآية.

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾(٦).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾(٧).

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٨).

* * *

(١) النساء: ١٣٦.
(٢) النساء: ١٥٠-١٥٢.
(٣) الطلاق: ٨.
(٤) الشورى: ١٣.
(٥) الشورى: ١٥.
(٦) المائدة: ٥٩.
(٧) البقرة: ٤.
(٨) آل عمران: ٨٤.

ملحق (٢)
تحديد زمن نزول الآيات ١-٨٣ آل عمران

يرى نولدكه أن زمن نزول الآيات من بداية آل عمران إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ غير معلوم؛ لأن الروايات لا تساعدنا إلا قليلًا؛ فمن الممكن أن تكون كلها متأخرة عن غزوة بدر.

ويميل إلى أن بعض الآيات تشير إلى أحداثٍ بعد غزوة بدر مباشرة، ويرى أنه يتعذر جدًّا كونها في العام السادس أو السابع.

لكنه يرى -بلا دليل- أن بعض الآيات متأخرة جدًّا؛ يقول[1]:

"إن وقت نزول الآيات من ١-٨٦[2] من آل عمران غير معلوم نوعًا ما. وإذا كان كله ينتمي لوقت واحد، فإنه من الواجب أن يكون متأخرًا عن غزوة بدر؛ حيث إن الآية[3] ١١ تشير لهذا بشكل واضح. ويتعذر جدًّا أن نظن أن التأليف كان في العام السادس أو السابع.... إن التفاسير التاريخية التي تقدمها الروايات لبعض الآيات لا تساعدنا إلا قليلًا.

إن الآية ١٠[4] تتعلق -حسبما يقول كثيرون- بيهود بني قينقاع، وبهذا نصل لنقطة زمنية ثابتة. وفي هذا الوقت أيضًا تقريبًا تشير الآيات ٥٨[5]، وما بعدها التي تجعل أهل الكتاب مضادين لدين إبراهيم؛ لأن هذه الفكرة كانت مقدمة متفهمة لتضعضع العلاقة

---

(١) تاريخ القرآن "بالألمانية" ق١ ص١٨٩-١٩١.

(٢) إلى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

(٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ الآية.

(٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية.

(٥) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية.

بين النبي واليهود، ولانهيار أمله أن يدخلوا في الإسلام باختيارهم... ينبغي بالتأكيد أن تكون آية [1]٧٩ من سورة آل عمران متأخرة؛ حيث فيها يُفتح العذاب الأبدي على كل الكافرين".

ويرفض أن يكون نزول صدر آل عمران مرتبطًا بقدوم وفد نصارى نجران، مستدلًّا بأن ذلك القدوم لا يُذكر له تاريخ عند ابن هشام والبخاري؛ ويحدده بالفترة قبل وفاة النبي؛ يقول[2]:

"إن الروايات بأن وفد نصارى نجران كان سبب بداية سورة آل عمران لا قيمة لها. إن هذه الحادثة لا يؤرخ لها عند ابن هشام والبخاري؛ لكن من الممكن - ولأسباب داخلية - أن تكون حدثت فيما بعد في آخر حياة محمد؛ وذلك لأنه كيف يتسنى له أن يفرض في هذا الوقت المبكر شروطًا على قبيلة تقطن بعيدًا عنه؟".

ولأهمية هذه الجزئية لفهم بعض الأفكار التي يطرحها نولدكه لا بد من أن أبين وجه الحق في ذلك:

لقد نقل ابن كثير[3] قول ابن إسحاق: إن صدر آل عمران إلى ثلاث وثمانين آية منها نزل في وفد نصارى نجران. وأضاف إليه أن قدوم ذلك الوفد كان في العام التاسع الهجري. وهو بهذه الإضافة ربط بين رواية ابن إسحاق في سيرته[4]، التي لم يحدد فيها زمنًا لقدوم ذلك الوفد؛ وقول الزهري: «كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله؛ وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح»، أي: فتح مكة في العام الثامن.

لهذا فلكي نصل لرأي واضح في مسألة زمن نزول الآيات المذكورة؛ لا بد من أن نعالج بشيء من التفصيل مشكلين:

(١) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، وهي في مصحفنا الآية رقم (٨٥)، وليست (٧٩) كما في مصحف فلوجل الذي استخدمه نولدكه. [المؤلف].

(٢) تاريخ القرآن بالألمانية ق١ هامش ٣ ص ١٩٠.

(٣) التفسير ج١ ص ٣٢٤ و٣٤٨ و٣٥٠.

(٤) ابن هشام: السيرة النبوية: ج٢ ص٣٧٨.

مشكل زمن قدوم وفد نصارى نجران، الذي قيل إن الآيات نزلت بشأنه، ومشكل الارتباط بين نزول الآيات والوفد:

أولًا مشكل الزمن:

إنه على فرض أن الآيات الكريمة المذكورة أو بعضها نزلت في ذلك الوفد؛ فإن تحديد زمن نزولها بالعام التاسع هو قول غير دقيق بالمرة؛ وذلك للآتي:

١- إنه من الخطأ أن يُستدل على قدومهم في العام التاسع بأن "المال الذي اتفقوا مع النبي على دفعه كان جزية، وهي لم تشرع إلا في العام الثامن"؛ حيث إنه لم يكن جزية، وإنما كان صلحًا، لحديث البخاري[١] الذي لا يَذكر كونه جزية؛ ولم يرد فيه إلا قولهم: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلًا أمينًا... فقال النبي: «قم يا أبا عبيدة».

كما أن البخاري[٢] أيضًا ومسلم[٣] وأحمد بن حنبل[٤] لا يذكرون بشأن هذا الوفد إلا أن العاقب والسيد صاحبي نجران أتيا رسول الله يريدان أن يلاعناه... الحديث. ولقد ورد في بعض الروايات التصريح بأن المال كان مال صلح؛ فهذا ابن حجر[٥] يرد على الزهري - دون أن يصرح بذلك - فيرى أن ما ذهب أبو عبيدة عامر بن الجراح ليقبضه كان مال صلح ولم يكن جزية. أما هي فقد أرسل الرسول عليًّا فيما بعد ليأخذها ممن لم يسلم منهم، ويأخذ ممن أسلم الصدقة[٦]؛ ويستشهِد

---

(١) بشرح ابن حجر ج٨ ص٩٣-٩٤ رقم (٤٣٨٠) و(٤٣٨١).

(٢) الموضع نفسه.

(٣) بشرح النووي ج١٥ ص١٩١ رقم (٢٤٢٠).

(٤) المسند ج١ ٤١٤ ص ٣٩٣٠.

(٥) الفتح ج٨ ص٩٤ - ٩٥.

(٦) وذكر ابن هشام (السيرة النبوية ج٤ ص ٤٤٤) "أن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم". وهو وإن لم يحدد تاريخًا إلا أنه يذكره مباشرة قبل أن يتكلم عن حجة الوداع التي كانت في السنة العاشرة من الهجرة؛ كما يعنون بعد ذلك للموضوع التالي بـ "موافاة علي في قفوله من اليمن رسول الله في الحج" ج٤ ص ٤٤٦. وهذا كله يعني أن إرسال علي إليهم كان في أواخر العام التاسع من الهجرة.

بـ "رواية يونس بن بكير أنه صالحهم على ألفي حُلّة...".

وفي إمتاع الأسماع[1] أنهم "صالحوه على ألفي حُلة: ثمن كل حلة أربعون درهمًا".

وفي سنن أبي داود[2] قول ابن عباس: «صالَح رسول الله أهل نجران على ألف حلة.. النصف في صفر والبقية في رجب.. الحديث».

كما أن ابن كثير نفسه[3] يرى احتمال أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية؛ وأن الذي بذلوه لم يكن جزية، وإنما كان من باب المهادنة والمصالحة.

٢- ومما يُذكر هنا ليشكك في ذلك التحديد أن ابن إسحاق ذاته لم يحدد -عند حديثه عن ذلك الوفد[4]- زمن قدومه؛ لكنه يروي أن قدوم الوفد عاصَر وجود الأحبار اليهود في المدينة، وأن الجميع اجتمعوا عند النبي؛ وهذا يعني أن قدومهم كان قبل السنة الثالثة من الهجرة أو في أثنائها، ولم يتأخر عن ذلك؛ لأن ذلك الوقت هو الذي يتصور فيه إمكان أن يلتقي رسول الله ﷺ بأحبار اليهود قبل التصادم معهم؛ ابتداء من أحداث بني النضير بعد غزوة بدر؛ يقول ابن إسحاق[5]: "وقال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأحبار من يهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ دعاهم إلى الإسلام..." إلخ.

كما أن أبا نعيم أخرج في الدلائل[6] عن ابن عباس أن نصارى نجران وأحبار يهود اجتمعوا عند رسول الله، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديًا. وقالت النصارى: ما كان إلا نصرانيًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴾ الآية، والتي تليها.

---

(١) المقريزي ٣٦٢.

(٢) ج٣ ص١٦٥ رقم(٣٠٤١).

(٣) التفسير ج١ ص ٣٢٤ و٣٤٨ و ٣٥٠.

(٤) السيرة النبوية ج٢ ص ٣٧٦ – ٣٨٥.

(٥) المصدر نفسه ٣٦٠.

(٦) ج٥ ص٣٨٤، والآيتان الكريمتان هما: ٦٥ – ٦٨ آل عمران.

٤- يذكر البيهقي[1] أن الراهب ليث بن أبي شمر الزبيدي (وكان في الوفد النجراني) بقي في المدينة متخلفًا عن الوفد «سنين يسمع كيف ينزل الوحي والسنن والفرائض والحدود». فكيف يمكن تفسير ذلك إذا كنا قصرنا قدوم ذلك الوفد على السنة التاسـعة؟؟

٥- إذا أخذنا كل الذي مضى في اعتبارنا، فإنه يجعلني أصل إلى ما أرجحه بشأن زمن قدوم وفد نجران، الذي قيل: إن الآيات المذكورة من آل عمران كلها أو بعضها نزلت فيه؛ فأرى أنه كان العام الثالث من الهجرة أو حوله للأسباب التي ذكرتها.

٦- ولا يعني هذا استبعاد أن يكون قد جاء من نجران وفد آخر في العام التاسع؛ بل قد يترجح ذلك نظرًا لتعدد الأسماء التي تجعلها الروايات على رأس وفد نجران؛ فبعضها يتحدث عن أبي حارثة بن علقمة، وأخيه كرز بن علقمة[2]. وبعضها يجعل الرئاسة فيه لشرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل الأصبحي، وجبار بن فيض الحارثي[3]، وبعضها يتحدث عن رئاسة أبي الحارث ومعه السيد والعاقب، وهما اللذَان سلم الرسول لهما لقومهما كتابا؛ ويتم التصريح في طبقات ابن سعد أن قدومهما كان في السنة التاسعة[4] وأنهما لما رجعا لقومهما أسلما[5].

يمكن إذن أن يكون قد أتى من نجران وفدان - على الأقل؛ أحدهما في العام الثالث تقريبًا (هو الذي نزل بشأنه بعض آيات آل عمران، وهو الذي أرسل النبي معهم أبا عبيدة لأخذ مال الصلح)؛ وثانيهما في العام التاسع؛ جاءوا إلى النبي بعد كتابِه إليهم مرجِعَه من تبوك. ولا علاقة لهذا الوفد بسبب نزول الآيات المذكورة أو بعضها؛ وهو الوفد الذين أرسل النبي معهم علي بن أبي طالب ليأخذ الجزية ممن لم يسلم، والزكاة ممن أسلم.

---

(١) الدلائل ج٥ ص٣٩١.

(٢) البيهقي: دلائل ج٥ ص٣٨٣.

(٣) المصدر السابق ص٣٨٥، ٣٨٦، ٣٩٠.

(٤) انظر ابن حجر: الفتح ج٧ ص٩٣ - ٩٤.

(٥) المصدر نفسه ج٨ ص٩٥.

ثانيًا: مشكل الارتباط بين نزول الآيات والوفد:

١- إن رواية ابن اسحاق التي تربط بين نزول صدر آل عمران إلى الآية ٨٣ منها وبين قدوم الوفد هي أيضًا خطأ؛ إذ إنه بغض النظر عن أن ابن حجر[١] قال عنها: إنها مرسلة الإسناد. فإن ابن إسحاق ذاته يروي أسباب نزول أخرى لآيات من صدر آل عمران[٢] هي: ١٢-١٣، ٢٣-٢٤، ٧١-٧٣، ٧٩-٨٠، ٨١ من سورة آل عمران، وكلها تشير للآيات بشكل جزئي، وليست بالشكل الذي ذكره داخلة في هذه المجموعة التي حددها في الرواية التي معنا. كما أن أحاديث أخرى كثيرة أقوى من ناحية السند وأكثر توافقًا مع سياق الآيات تجعل لبعض تلك الآيات أسباب نزول أخرى؛ منها:

أ- روى البخاري[٣] أن الآية ٧٧ من السورة ذاتها[٤] نزلت في تخاصم بسبب بئر بين الأشعث بن قيس ورجل آخر؛ فطلب النبي من المدعَى عليه اليمين؛ فقال المدعِي (وهو الأشعث) خائفًا: إذًا يحلف يا رسول الله (أي سيحلف كذبًا)؛ فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥].

ب- وروى البخاري[٦] أيضًا أن الآية ٦٤ من نفس السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. هذه الآية وردت في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل سنة ست من

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ ص٩٤.
(٢) سيرة ابن هشام ج٢ ص ٣٥٩ – ٣٦١.
(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ ص٢١٢ – ٢١٣ رقم (٤٥٥٠).
(٤) وهي ضمن ما يدعى أنه نزل مرة واحدة في السنة التاسعة.
(٥) آل عمران: ٧٧.
(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ ص٢١٤-٢١٥ رقم (٤٥٥٢).

الهجرة[١]، وبسبب رواية البخاري هذه فإن ابن كثير نفسه[٢] يحكم على ما قاله ابن إسحاق بأنه "ليس بمحفوظ".

ج- ورُوي[٣] أن الآية ١٢ من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾؛ نزلت بعد غزوة بدر ردًّا على اليهود في تحديهم للنبي أنهم ليسوا كأهل مكة الذين هزموا، فلو قاتلوه هم لأدرك أن قتالهم ليس مثله قتال!!

د- وكذلك كان الأمر[٤] مع الآيات ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣١، ٦٥، ٧٢ من السورة نفسها.

٢- والذي صح هو أن ما نزل بشأن وفد نصارى نجران هي آيات محدودة؛ فقد أخرج البيهقي في الدلائل أنها الآيات: ٥٩-٦١ من السورة؛ قال: «فأصبح الغد وقد أنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾... إلى قوله: ﴿ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

وعند الواحدي[٥] أن الذي نزل من القرآن في هذه المناسبة هي الآيات من ٥٨- ٦٣، وهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

---

(١) وتحديد التاريخ للمقريزي: إمتاع الأسماع ٢٣٤.

(٢) التفسير ج ١ ص ٣٥١.

(٣) السيوطي: لباب النقول ص ٦٢، وعزاه لأبي داود في السنن والبيهقي في الدلائل، والغريب أنها من طريق ابن إسحاق أيضًا!

(٤) المرجع نفسه (لباب) صفحات: ٦٢- ٦٧.

(٥) في: أسباب النزول ص٩٠-٩١، وقد اختار فايل *Weil* ذلك في كتابه: (*Das Leben Muhammeds* ج٢ ص٣٠٢ وج٣ ص٣١٢).

أما السيوطي[1] فروى أن الذي نزل في تلك المناسبة هي الآيات من ٥٨–٦٠ فقط.

٣- وأختم هنا بأن أشير إلى ضرورة اعتبار الجو العام للآيات، الذي يمنع كونها متأخرة في نزولها نظرًا لطبيعة المعاني الواردة فيها والملابسات التي تواكبها؛ فالآية الكريمة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2]؛ واضح من لفظها زمن الرواية كذلك أنها بشأن بعض اليهود الذين توعدوا الرسول بعد انتصاره في بدر؛ وبالتالي لا علاقة لها بالسنة التاسعة. كما أن الآيات من ١–١١، ومن ١٤–١٨، ومن ٢٦–٣٢، وغيرها تعالج الأسس الإيمانية والضوابط التربوية للجماعة المسلمة الفتية، وهذا لا علاقة له بالسنة التاسعة كذلك.

وهذا الاعتبار بالمناسبة محترم لدى نولدكه؛ لكنه يخضعه في التطبيق لانتقائية واضحة؛ مَثَله في ذلك مَثَل كثير من آليات منهجه.

وقد فطن لذلك الاعتبار سيد قطب رحمه الله؛ قال[3]: "ونحن نستبعد أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات؛ فواضح من طبيعتها وجوها أنها نزلت في الفترة الأولى من الهجرة، حيث كانت الجماعة المسلمة بعد ناشئة، وكان لدسائس اليهود وغيرهم أثر شديد في كيانها وفي سلوكها". وقال عن نفس الآيات[4]: "نحن أميل إلى اعتبار هذا كله غير مقيد بحادث وفد نجران في السنة التاسعة، وأنه كانت هناك مناسبات أخرى مبكرة، هي التي نزل فيها هذا القرآن من هذه السورة".

---

(١) لباب النقول ص ٦٤ – ٦٥.

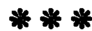
(٢) آل عمران: ١٢، ١٣.

(٣) الظلال ج١ ص٣٥٢، ولقد أشار سيد قطب إلى ذلك على عجل تقتضيه ضرورة منهجه في الظلال؛ من عدم الخروج إلى تفريعات وتحقيقات لإثبات أو نفي أو تحقيق مسألة علمية محددة.

(٤) المرجع نفسه ص٣٦٢.

نخلص إذن إلى أننا هنا إزاء رواية لابن إسحاق، تجعل صدر آل عمران مرتبطًا بوفد نجران الذي جاء في السنة التاسعة من الهجرة؛ لكنها فوق كونها ضعيفة فإنها معارضة بأربع عشرة رواية أخرى ـ منها خمسة لابن إسحاق نفسه ـ يُجعل فيها أسباب نزول أخرى لأربعة عشر موضعًا من صدر آل عمران. كما أنها معارضة كذلك بما صح من روايات، تجعل ما نزل بشأن ذلك الوفد آيات محدودة بذاتها، وليس كل ما تحدث عنه ابن اسحاق. ويمنع من قبولها كذلك كون عدد من المعاني المعالجة في الآيات الثلاثة والثمانين لا تمت بصلة إلى حوارات ذلك الوفد مع النبي؛ بل تتعلق أكثر بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين وتربية صفهم.

بناء على هذا فلا يمكن أن يكون شيء من هذه الآيات من ١-٨٣ من آل عمران متأخرًا في النزول إلى العام التاسع من الهجرة. وعلى القول إن وفدًا نجرانيًّا قدم في العام الثالث؛ فإن بعض الآيات المذكورة لا كلها؛ هو الذي يمكن أن يكون قد نزل متعلقًا بهذا الشأن.



نتائج الجزء الثالث

أثبت هذا الجزء من الدراسة بطلان الدعوى الرئيسة لنولدكه فيه: أن النبي ﷺ بحث عن مرجعيةٍ، وأنه تحولَ في ذلك من كونها أهلَ الكتاب؛ (وذلك في العهد المكي، وبداية العهد المدني) إلى كونها: إبراهيمَ عليه السلام (بعد ذلك).

وأبطلنا هنا كل ما استندت إليه هذه الدعوى من دعاوى فرعية:

ففيما يتعلق بدعوى نولدكه: (اتخاذ النبي أهل الكتاب مرجعية في العهد المكي، وبدايات المدني)؛ فقد أبطل هذا الجزء من الدراسة مزاعم نولدكه أن معارضة النبي لأهل الكتاب في مكة كانت ذات أهمية أقل، وأن آيات الهجوم على اليهود مدنية في غالبها، وأن ما في القرآن المكي من إنكار لبعض عقائد النصارى إنما هو موجه لعقائد المشركين لا النصارى، وأن النبي أوجد (تساويًا وصداقة بينه وبين المسيحيين في مكة)، و(أن القرآن اعتبر نصـر الروم على الفرس نصرًا للموحدين على الكفـار).

كما أظهر هذا الجزء خطأ استدلال نولدكه على دعواه المذكورة بـ(أن القرآن المكي دعا العرب أن يؤمنوا بما تلقاه المسيحيون من عيسى وما تلقاه اليهود من موسى، وأن يسألوا أهل الكتـاب عن حقيقة النبي ﷺ)؛ حيث أثبتنا هنا أن القرآن المدني، وليس فقط القرآن المكي، استمر في مواجهة أهل الكتاب بعرض حقيقة أنهم يعرفون النبي. كما أثبتنا أن ما ذكره القـرآن المكي من (معرفة أهـل الكتاب للنبي وأن بعضهم آمنوا به) لا ينطلق من نظرية نولدكه المزعومة عن اتخاذ النبي إياهم مرجعية؛ بل يرتبط بوقائع تاريخية ثابتة، وأن القرآن المدني أيضًا واصل تجلية هذه الحقيقة خلافًا لما يزعم نولدكه.

وأثبتنا هنا من خلال القرآن بطلان دعوى نولدكه (أن بدايات القرآن المدني لم تنكر

على اليهود)؛ حيث قدمنا الدليل على أن القرآن في بداية العهد المدني -وقبل الصدام العسكري مع اليهود- هاجمهم وفضح أخطاءهم.

كما أبطلنا -بالرجوع للقرآن- دعوى نولدكه (تغَيُّر موقف القرآن من أهل الكتاب: من اعتماد إيمانهم وقبوله في العهد المكي وبدايات المدني؛ إلى رفضهم وتكفيرهم بعد ذلك)؛ حيث أثبتنا: أن الوصف بالإيمان في القرآن المكي لم يكن فقط لأتباع موسى وعيسى -كما ادعى نولدكه- بل شمل أتباع الأنبياء جميعًا. وأن الذين عدهم القرآن مؤمنين من أتباع عيسى عليه السلام هم الذين لم يغالوا فيه ولم يحرفوا عقيدة التوحيد التي جاء بها وماتوا على ذلك قبل رسالة محمد ﷺ أو بعدها دون أن يسمعوا عن النبي ﷺ. وأن القرآن المدني استمر في موقفه الذي يصف بالإيمان كل من اتبعوا بحقٍّ الأنبياء، بمن فيهم موسى وعيسى عليهما السلام. كما أثبتنا أن الكافرين برسالة محمد ﷺ من المسيحيين أو اليهود المعاصرين للنبي أو الذين جاءوا بعده لا يعدهم القرآن مؤمنين حتى لو كانوا موحدين عاملين للصالحات.

وعلى صلة بهذا فقد انتهى هذا الجزء من الدراسة إلى وجه الحق في المواضع القرآنية المدنية الأربعة التي يثنى فيها الله تعالى على المؤمنين من أهل الكتاب -وظن بعض الباحثين بشكل خاطئ- أنه ثناء عام يشمل حتى من لم يؤمن منهم برسالة محمد ﷺ.

وأثبتنا هنا -من خلال القرآن- بطلان دعوى نولدكه أن (القرآن في معظم العهد المدني لم يهاجم النصارى، وأن الهجوم عليهم لم يحصل إلا في أواخر العهد المدني بسبب الصدام العسكري).

وفيما يتعلق بدعوى نولدكه (تحول النبي عن أهل الكتاب)؛ فقد أبطلنا هنا دعواه (أن غزوات النبي ﷺ ضد اليهود كانت بسبب أنهم لم يتركوا دينهم ويتبعوه)؛ حيث أثبتنا أن النبي ﷺ اعتمد وثيقة لتنظيم العلاقة بينه وبين اليهود في المدينة، وأن كل مواجهة تمت بينهم وبين رسول الله ﷺ كان لها أسبابها الخاصة التي ليس من بينها كونهم يهودًا. كما أثبتنا بقاء قبائل وأفرادٍ من اليهود في المدينة حتى بعد تلك المواجهات.

وأبطلنا زعم نولدكه أن (النبي لم يبين انحراف اليهود عن الدين إلا بعد أن انهار

أمله فيهم). وأبطلنا دعواه أن (تكفير غير المسلم جاء في نهاية العهد المدني)؛ حيث أثبتنا أنه لم يكن متأخرًا كما زعم؛ بل كان موجودًا في القرآن المكي والمدني على حد سواء.

وفيما يتعلق بدعوى نولدكه تحول النبي ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام كمرجعية؛ كشف هذا الجزء من الدراسة النقاب عن أن علاقة النبي بإبراهيم عليه السلام كانت موردًا لآراء استشراقية متناقضة، وأبطل الدافِعَين المزعومين اللذين زعم نولدكه أنهما شجعا النبي في المدينة على تشكيل تصوره المدَّعى عن إبراهيم. كما أثبت تهافت ما يطرحه نولدكه من دليل على ذلك.

وأبطلنا في هذا الجزء دعوى نولدكه أن (خبر القرآن عن تأسيس إبراهيم وإسماعيل الكعبة إنما جاء رد فعل على عداء اليهود للنبي ﷺ)؛ حيث أقام أربع أدلة على صدق هذا الخبر. كما أبطلنا دعواه (مدنية الآيات التي تربط بين إبراهيم والحرم المكي) بأن أثبتنا وجود آيات مكية يتضح فيها بجلاء هذا الربط.

وكذلك أبطلنا دعواه (أن القرآن المدني أقحم اسم إسماعيل بين من سماهم نولدكه الآباء الإسرائيليين بشكل لم يحصل في القرآن المكي)؛ حيث أثبتنا أن التفاوت بين القرآن المكي و القرآن المدني في (ذكر إسماعيل بين من سماهم نولدكه الآباء الإسرائيليين) له حكمته المتعلقة بالسياق وبالجانب العقدي المعالج في كل من المكي والمدني، ولا علاقة له بتحول مدعى من قبل النبي في المرجعية.

وأبطلنا زعم نولدكه (أن الصلة التي أوجدها القرآن بين النبي وإبراهيم لم توجد إلا في القرآن المدني، وأنها جاءت بتأثير يهودي أو نصراني)؛ حيث أثبتنا أن القرآن المكي أوجد الصلة بين النبي ﷺ وإبراهيم عليه السلام دون أن يتأخر هذا إلى الفترة المدنية، وأن القرآن سواء: المكي والمدني قد وصل النبي بكل الأنبياء؛ وليس بموسى وعيسى أو إبراهيم فقط. كما أبطلنا زعم نولدكه (أن تقدير القرآن لملة إبراهيم؛ والإخبار بأنها كانت الإسلام، والأمر باتِّبَاعها؛ هي وجهات نظر جديدة للنبي في المدينة). حيث أثبتنا هنا أن ذلك قد بدأه القرآن (لا النبي) في مكة وليس في المدينة.

وأبطلنا كذلك زعم نولدكه أن (الاتجاه للكعبة قبلة للصلاة، وإدخال الحج إلى مكة في عبادة الإسلام؛ يأتيان في سياق التصور الجديد عن إبراهيم)؛ حيث أثبتنا أن تحول النبي إلى الكعبة قبلة لم يكن رد فعل على عدم إيمان اليهود به؛ إذ إن هذا التحول كان أمرًا من الله تعالى ولم يكن للنبي فيه اختيار. كما أثبتنا أن العمرة وزيارة البيت الحرام كانا - على نحوٍ مّا - مُعْتَمَدين إسلاميًّا في العهد المكي كله وكذلك في بداية العهد المدني؛ ولم يكونا رد فعل لتنكر اليهود للنبي.

كما أوقفنا هذا الجزء من الدراسة على بعض أخطاء نولدكه في اللغة والفقه؛ حيث لم يُفرق بين (الحرب) و(الحرابة). وحيث إنه تجاوز في فهمه كل وجه للفهم حسب اللغة العربية حين حمل الآيتين ١٩، ٢٠ من سورة الفتح على الماضي رغم أنهما صريحتان في إفادة المستقبل.



خاتمة عن أخطاء نولدكه المنهجية

بالإضافة لما ذكرته في نهاية كل جزء؛ فإن هذه الدراسة بأجزائها الثلاثة قد كشفت عن عدة أخطاء منهجية وقع فيها المستشرق الكبير تيودور نولدكه. بعض هذه الأخطاء سببه الشعور بالاستعلاء والتمحور حول الذات، وبعضها مرجعه إلى المغالاة في التأثر بالشك المنهجي عند ديكارت، وبعضها يمكن رده إلى خطأ منهجي أساسي هو تحكم الآراء المسبقة في بحث نولدكه:

فمن الأخطاء التي سببها الشعور بالاستعلاء والتمحور حول الذات أن نولدكه فهم بعض الأحاديث الشريفة فهمًا خاصًّا به، ومن ثم بنى على فهمه هذا أحكامًا خاطئة مكتفيًا بالإحالة إلى مصادر تلك الأحاديث دون ذكر نصها أو حتى مضمونها فارضًا بذلك فهمه على قارئه دون أن يتيح له فرصة الفهم بعيدًا عن إيحاءات وسطوة أفكاره. وأنه طرح دعاوى بلا دليل؛ حيث ادعى أن في القرآن نصوصًا بدائية خيالية دون أن يذكر أمثلة ويبين وجه حكمه عليها.

ولم يطرح نولدكه آراءه على أنها فرضيات تقبل النقاش وتحتمل الخطأ.

ومن الأخطاء التي مردها إلى المغالاة في التأثر بمنهج الشك المنهجي عند ديكارت؛ أنه بلا أدنى مبرر يصير إلى التشكيك في روايات صحيحة متعلقة بسبب نزول آيات معينة، بحجة كونها مجرد تزيد من الشراح من أجل التفسير. كما أنه كان أحيانًا يترك الرواية الثابتة إلى رأيه الذي يبنيه على الظن والوهم.

أما أخطاء نولدكه التي يمكن ردها إلى خطأ منهجي أساس هو تحكم الآراء المسبقة في بحثه، (بمعنى أن نولدكه تتحكم فيه آراء استشراقية معينة ثم يدور يتلمس لها ما يظنه أدلة عليها ويتغافل عما يعارضها)؛ فتتضح من الآتي:

١- لقد وجدناه لا يلتزم بموقف واحد إزاء مرسل الصحابي؛ حيث رفضه حين لم يساعده في دعم آرائه المسبقة، وقبله حين ظن أنه يدعم تلك الآراء.

٢- اعتمد روايات ضعيفة ليثبت خوف النبي الجنون على نفسه متجاهلًا في ذات الوقت الآيات التي ترد التهمة عن النبي.

٣- التزم برواية ضعيفة دون تحقيق، وخلص منها إلى حكم عام نسبه لكل المسلمين، وتجاهل كافة الروايات الصحيحة الكثيرة؛ بل وآراء علماء المسلمين بهذا الشأن؛ وذلك فيما يتعلق بالرأي الزاعم نزول القرآن خمسًا خمسًا؛ وما ذلك إلا من أجل أن يدعم رأيه أن وحي النبي كان ناتجًا عن نوبات صرعية.

٤- لم يتوحد لديه معيار الحكم؛ حيث أثبت الوحي بصلصلة الجرس استنادًا لحديث نبوي؛ في حين رفض الأنواع الأخرى رغم ثبوتها بالقرآن والسنة.

٥- كان أحيانًا يجتزئ من النصوص الإسلامية ويضعها في غير السياق الذي وردت فيه في مصادرها.

٦- كان يتعامل أحيانًا بانتقائية مع النص الحديثي الواحد؛ حيث يختار منه ما يظن أنه يؤيد رؤيته ويسكت عما يعارضها بيقين.

٧- بالانتقائية ذاتها كان تعامله مع المصادر أحيانًا.

٨- وظف نولدكه نتائج (ترتيبه سور القرآن حسب النزول) في الحكم بقضايا جوهرية بشأن الإسلام ونبيه رغم أن هذا الترتيب في مجمله لم يحز حتى على ثقة نولدكه نفسه.

٩- من أجل أن يدعم نولدكه استدلاله بقصر سور الطور المكي الأول على أن (وحي الله لمحمد ﷺ ليس سوى نوبات تهيج عصبي حيث إن النوبة الصرعية لا تدوم طويلًا)؛ فإنه أتى إلى سور من آخر ما نزل بمكة فزعم أنها من أول ما نزل بها؛ وما ذلك إلا لأنها قصيرة. وأتى إلى سور من أوائل ما نزل بمكة فلم يُثبت ذلك لها؛ وما ذلك إلا لأنها طويلة.

١٠- من أجل أن يدعم نولدكه دعواه أن النبي كان يتخذ اليهود مرجعية في بدايات العهد المدني؛ عمد إلى (آيات تعارض اليهود نزلت في بدايات العهد المدني) فحدد لها زمن نزول متأخر.

١١- من أجل أن يدعم دعواه أن النبي في بداية العهد المدني كان يضع اليهود مع المؤمنين في جبهة واحدة؛ فإنه رجح -على وجه يخالف الروايات الصحيحة- أن الآيـة ٣١ المدثر تنتـمي لبداية العهد المدني.

١٢- من أجل أن يتهرب من وجود قرآن في أوائل الفترة المدنية يهاجم اليهود؛ فإننا وجدنا أنه كان عندما يجد آيات كثيرة تعارض دعواه؛ كان يتناولها بشكل عابر وبما يبعدها عن مضمونها الحقيقي.

١٣- ولكيلا يقف الأصل المكي لبعض الآيات التي تتحدث عن إبراهيم والحرم المكي؛ مانعًا من قبول نظرية نولدكه الملفقة؛ فإن نولدكه عمد إلى تلك الآيات المكية فادعى أنها مدنية. ولجأ للتشكيك في مكية آية النحل: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، وحكم بيقين أنها مدنية؛ لا لشيء إلا من أجل أن يدعم نظريته أن الأمر باتباع ملة إبراهيم كان في المدينة؛ وذلك لدعم نظريته الملفقة عن تحول النبي في البحث عن مرجعية.

١٤- كان اهتمام نولدكه بدعم نظريته المشار إليها يجعله يسقط من اعتباره الموقف القرآني المعظِّم للكعبة منذ بداية نزول القرآن.

والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

* * *



المصادر والمراجع

مصادر ومراجع الدراسة

أولا: المصادر

أ- القرآن الكريم:

- طبعة القاهرة.
- طبعة ج. فلوجل *Flügel G., Leipzig* ١٨٣٤.

ب- السنة النبوية:

١- ابن الأثير: المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري (٥٤٤-٦٠٦م): النهاية في غريب الأثر، مراجعة: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الفكر بيروت ١٩٧٩م-١٣٩٩هـ ٥ أجزاء.

٢- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (١٦٤-٢٤١هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل مؤسسة قرطبة، مصر، ٦ أجزاء.

٣- أحمد بن عمرو بن الضحاك: أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني (٢٠٦-٢٨٧)، الآحاد والمثاني، مراجعة د. باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية، الرياض ١٩٩١م-١٤١١هـ ٦ أجزاء.

٤، ٥- البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ - ٢٥٦):

- الجامع الصحيح المختصر، بشرح ابن حجر تحقيق الشيخ عبد العزيز ابن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، مكتبة الغزالي، ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق وبيروت ١٤ مجلدًا.

- الأدب المفرد، رواها عن الإمام البخاري أحمد بن محمد بن الجليل البزار، مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٠٠هـ-١٩٧٩م.

٦، ٧- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (٣٨٤-٤٥٨هـ):

- سنن البيهقي الكبرى، مراجعة محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٩٩٤م -١٤١٤هـ، ١٠ أجزاء.
- دلائل النبوة، تحقيق د. عبد المعطي قلعهجي، دار الريان للتراث القاهرة، ودار الكتب العلمية بيروت، مطابع الأهرام التجارية، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٩م.

٨- الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى (٢٠٩-٢٧٩هـ) الجامع الصحيح سنن الترمذي، مراجعة أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت بدون تاريخ، ٥ أجزاء.

٩- الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبدالله (٣٢١-٤٠٥هـ): المستدرك على الصحيحين، دار الكتب العلمية، مراجعة: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت ١٩٩٠م -١٤١١هـ ٤ أجزاء.

١٠- ابن حبان: أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي البستي (ت٣٥٤): صحيح ابن حبان، مراجعة: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت: ١٩٩٣م-١٤١٤هـ، ١٨ جزءًا.

١١- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري: تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب، مكتبة الغزالي، ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق وبيروت، ١٤ مجلدًا.

١٢- الدارقطني: أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي (٣٠٦ – ٣٨٥):

سنن الدارقطني، دار المعرفة، مراجعة: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، بيروت ١٩٦٦م - ١٣٨٦هـ ٤ أجزاء.

١٣- الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (١٨١-٢٥٥): سنن الدارمي، مراجعة: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ جزءان.

١٤- أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (٢٠٢-٢٧٥هـ) سنن أبي داود، دار الريان للتراث مصورة عن دار الحديث القاهرة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ٤ أجزاء.

١٥- أبو داود الطيالسي: سليمان بن داود الفارسي البصري (ت ٢٠٤هـ) مسند أبي داود الطيالسي، دار المعرفة بيروت جزء واحد.

١٦- الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (٢٦٠-٣٦٠هـ): معجم الطبراني الكبير، مراجعة: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل ١٩٨٣م - ١٤٠٤هـ، ٢٠ جزءًا.

١٧- ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٧-٢٧٥هـ) سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث مصورة عن دار إحياء الكتب العربية لفيصل الحلبي مجلدان.

١٨- محمد بن سلامة بن جعفر: أبو عبد الله القضاعي (ت٤٥٤هـ): مسند الشهاب، مراجعة: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م- ١٤٠٧هـ جزءان.

١٩- مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ): صحيح مسلم، بشرح النووي، مكتبة الغزالي ومؤسسة مناهل العرفان دمشق وبيروت، طبعة حديثة بدون تاريخ، ٦ مجلدات.

٢٠، ٢١- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٢١٥-٣٠٣هـ):

- سنن النسائي الكبرى، مراجعة: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩١م-١٤١١هـ ٦ أجزاء.
- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، دار الحديث ودار الريان القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م. ٤ مجلدات.

٢٢- أبو يعلى: أحمــد بن علي بن المثنى الموصلي (٢١٠-٣٠٧هـ) مسند أبي يعلى، مراجعة: حسين سليم أسد دار المأمون للتراث، دمشق ١٩٨٤م-١٤٠٤هـ. ١٣ جزءًا.

٢٣- الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي القاهرة، بيروت ١٤٠٧هـ ١٠ أجزاء.

ج- التفسير وعلوم القرآن:

٢٤- الرازي: الإمام فخر الدين محمد بن عمر (٥٤٤-٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، دار الغد العربي ط١، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، ١٤ مجلدًا.

٢٥، ٢٦- السيوطي: الحافظ جلال الدين (٨٩٤-٩١١م):

- الإتقان في علوم القرآن، دار مصر للطباعة ومكتبة مصر، الفجالة القاهرة دون تاريخ أو رقم طبعة.
- لباب النقول في أسباب النزول، تحقيق ياسر صلاح عزب، المكتبة التوفيقية طبعة حديثة بدون تاريخ.

٢٧- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ): تفسير الطبري تحقيق وتعليق: محمود شاكر، مراجعة وتخريج أحاديث: أحمد محمد شاكر دار المعارف سلسلة تراث الإسلام سنة ١٣٧٤هـ.

٢٨- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١ هـ/ ١٢٧٣م):

الجامع لأحكام القرآن، مكتبة الغزالي، ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق بيروت، طبعة حديثة بدون تاريخ، ٩ مجلدات.

٢٩- الواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول، تحقيق: أيمن شعبان، دار الحديث، ط ٤، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، القاهرة.

د- السيرة النبوية والتراجم والتاريخ الإسلامي:

٣٠- الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت٢٢٣هـ): أخبار مكة وما جاء فيه من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، دار الثقافة لبنان، جزءان معًا.

٣١- البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر: أنساب الأشراف. تحقيق: د. محمد حميد الله. القاهرة، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ودار المعارف، سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٧، سنة ١٩٥٩م.

٣٢- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، مراجعة: علي محمد البجاوي، دار الجيل بيروت، ١٩٩٢م - ١٤١٢هـ، ٨ أجزاء.

٣٣- ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦): جوامع السيرة النبوية، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٨٢م.

٣٤- الشهرستاني: أبو الفتح (٤٧٩ - ٥٤٨هـ): موسوعة الملل والنحل، مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الأولى ١٩٨١م.

٣٥- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، ط٤، ١٩٧٩م.

٣٦، ٣٧- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣هـ):

- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة القاهرة، بدون تاريخ.
- الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

٣٨- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢١٣- ٢٧٦هـ) المعارف، تحقيق: د. ثروت عكاشة، إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبعة دار الكتب ١٩٦٠م.

٣٩- محمد بن حبيب: بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي ت ٢٤٥هـ: المحبر، نشرة: د. ايلزه شتيتر طباعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد، سنة ١٣٦١هـ-١٩٤٢م.

٤٠- محمد بن سعد: الطبقات الكبرى[1]، نشرة:
Buchhandlung und Druckrei vormals E.J.Brill Leiden

القسم الأول من الجزء الرابع بتحقيق بروفيسور يوليوس لبرت طبعة ليدن ١٣٢٢هـ-١٩٠٦م، والقسم الأول من الجزء الثاني بتحقيق: جوزيف هوريفيتس ١٣٢٥هـ-١٩٠٩م، والقسم الأول من الجزء الثالث بتحقيق: إدوارد زخاو ١٣٢١هـ-١٩٠٥م، والقسمان الأول والثاني من الجزء الرابع بتحقيق: بروفيسور يوليوس لبرت ١٣٢٢هـ-١٩٠٦م، والجزء الخامس تحقيق: سترستين طبعة ليدن ١٣٢٢هـ-١٩٠٦م.

٤١- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، مراجعة: د. محمد جميل غازي، دار الأنصار القاهرة ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(١) في معظم هذه الدراسة رجعت إلى هذه الطبعة التي كانت موجودة بين يدي في أثناء دراستي في ألمانيا لكن بعد عودتي لمصر وفي بعض المواضع القليلة جدًّا رجعت لطبعة بيروتية من دار صادر، وقد أشرت لهذه الطبعة عند مواضع الرجوع إليها.

٤٢- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري: السيرة النبوية تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م أربعة أجزاء في مجلدين.

٤٣- الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ): المغازي، تحقيق: د. مارسدن جونس، مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦م.

٤٤- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل (٧٠١ - ٧٧٤هـ): قصص الأنبياء، دار عمر بن الخطاب، الإسكندرية، ط١، ١٩٨١م.

هـ- الكتاب المقدس:

- العهدان: القديم والجديد، النص العربي، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، طبعة العيد المئوي ١٩٨٣م.
- *Das Alte Testamen, Verlag der Zürcher Bibel, Deutche Bibelgeselschaft Zürch,* ١٩٩١.

ثانيًا: المراجع

أ- مراجع عامة:

٤٥- أحمد سمايلوفيتش، الدكتور: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف القاهرة، ١٩٨٠م.

٤٦- أحمد عبد الحليم عطية، الدكتور: المماثلة والمقابلة قراءة ثانية في موقف بدوي من المستشرقين، مجلة المسلم المعاصر، قبرص، عدد ٧٩ السنة ٢٠.

٤٧- إدوارد سعيد: الاستشراق المعرفة السلطة الإنشاء، نقله إلى العربية: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة العربية الأولى، ١٩٨١م.

٤٨- أرنولد، توماس (ت ١٩٣٠): الدعوة إلى الإسلام، ترجمة وتعليق:

د. حسن إبراهيم ود. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٠م.

٤٩- أكرم ضياء العمري، الدكتور: السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٥٠- الألباني، محمد ناصر الدين الألباني: تخريج أحاديث (بهامش) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ط ٨، دار الكتب الإسلامية، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، القاهرة.

٥١- بارت، رودي: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه، ترجمة: د. مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥٢- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية: الدكتور عبد الحليم النجار وآخرون، ط٥، ١٩٨٣م، دار المعارف بتكليف من جامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٥٣- بلاشير، ريجي، (١٩٠٠-١٩٧٣م): القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره. ترجمة: رضا سعادة، بيروت ١٩٧٤م.

٥٤- جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، مراجعة: د. حسين مؤنس، دار الهلال دون رقم طبعة أو تاريخ.

٥٥- جورافسكي، أليكسي: الإسلام والمسيحية، ترجمة: د. خلف محمد الجراد مراجعة وتقديم: د. محمود حمدي زقزوق عالم المعرفة ٢١٥ الكويت ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٥٦- جولدتسيهر، إجناتس: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: د. عبد الحليم النجار، دار اقرأ، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٥٧- ديكارت، رينيه: مقال عن المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، مراجعة وتقديم: د. محمد مصطفى حلمي، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

٥٨- ساسي سالم الحاج: الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية،، مركز دراسات العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، مالطا. الجزء الأول ١٩٩١م، الجزءان الثالث والرابع (معًا) ١٩٩٢م.

٥٩- سامي الصقار، الدكتور: دور المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي، مقال بمجلة المنهل العدد ٤٧١ عدد خاص عن الاستشراق مايو ١٩٨٩م.

٦٠- سيجال، م. ص: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل، ترجمة: د. حسن ظاظا منشورات جامعة بيروت العربية، مطابع النفري، بيروت بدون تاريخ.

٦١- سيد خميس: القصص الديني بين التراث والتاريخ، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠١م.

٦٢- السيد عبد العزيز سالم، الدكتور: تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة ذاكرة الكتابة، رقم ١٢، سنة ٢٠٠٠م.

٦٣- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة ١٧، ١٩٩٢م، ٦ مجلدات.

٦٤- شاخت، وبوزورث، ج. شاخت (ت١٩٦٩م) وكليفورد إ. بوزورث وآخرون: تراث الإسلام، ترجمة: د. محمد زهير السمهوري، وآخرون، الجزء الأول، ط٢، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٨م.

٦٥- صبحي الصالح، الدكتور، مباحث في علوم القرآن، وزارة المعارف بالسعودية، دار العلم للملايين، بيروت ط ٩، ١٩٧٧ بيروت.

٦٦-٦٨ صلاح الدين المنجد، الدكتور:

- المستشرقون الألمان: تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، ج١، دار الكتاب الجديد، لبنان.

- جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي، مقال، المنهل، السعودية، العدد ٤٧١ (عدد متخصص بعنوان الاستشراق والمستشرقون) رمضان ١٤٠٩هـ/ مايو ١٩٨٩م، صفحات ٢١٠-٢١٧.
- الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله، ضمن: حوار بين الألمان والعرب، إعداد: د. مصطفى ماهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦٩- عائشة عبد الرحمن، الدكتورة: تراجم سيدات بيت النبوة، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٧م.

٧٠- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٤٤ هـ): الأموال؛ تحقيق وتعليق: محمد خليل هراس، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، مكتبة الكليات الأزهرية - دار الفكر القاهرة.

٧١، ٧٢- عبد الرحمن بدوي، الدكتور:

- موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٩م.
- دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره، ترجمه عن الفرنسية: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٩م.

٧٣- عبد الله الشاذلي، الدكتور: الحكمة العربية في أصالتها الفطرية، مؤسسة سعيد للطباعة بطنطا، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٧٤- عبد الستار إبراهيم، الدكتور: الحكمة الضائعة الإبداع والاضطراب النفسي والمجتمع، عالم المعرفة، الكويت، العدد: ٢٨٠، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٧٥- عبد الوهاب النجار، الشيخ: قصص الأنبياء، مكتبة دار التراث، سنة ١٩٨٥م، القاهرة.

٧٦- عمر فروخ، الدكتور، الاستشراق ما له وما عليه، مقال بمجلة المنهل، العدد ٤٧١، عدد خاص عن الاستشراق، مايو ١٩٨٩م، ص١٥-٢١.

٧٨- عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن: دراسة نقدية لمناهج المستشرقين، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ١٩٩١م.

٧٩- عياض: القاضي أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦-٥٤٤هـ): الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى، ط ١٩٩٣م.

٨٠- فون جروينباوم، جوستاف: حضارة الإسلام، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: عبد الحميد الصاوي، سلسلة الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

٨١- قاسم السامرائي، الدكتور: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ط١، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، السعودية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٨٢- كويلرينج، ت.، وآخرون: الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، تقديم: فيليب حتى. ترجمة: د. عبد الرحمن محمد أيوب. مراجعة: د. أبو العلا عفيفي، د. محمد محمود الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.

٨٣- لوبون، جوستاف: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مكتبة الإيمان، وعيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ أو رقم طبعة.

٨٤- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، تقديم: د. محمد عبد الله دراز والشيخ محمود محمد شاكر طبع بتاريخ ١٩٩٢م، دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر دمشق، مصورة عن الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٨٥- مجموعة من المستشرقين: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يونس، مراجعة: د. محمد مهدي علام.

٨٦- مجموعة من العلماء المسلمين: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية

الإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. (مجلدان)

٨٧- محمد البهي، الدكتور: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مطبعة وهبة، ط١٢، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٨٨- محمد حسين هيكل: حياة محمد، دار المعارف القاهرة، الطبعة ١٦، ١٩٨١م.

٨٩- محمد عبد الله دراز، الدكتور، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، الطبعة الرابعة، دار القلم، الكويت، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

٩٠- محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، جزءان.

٩١- محمد عبد الغني شامة، الدكتور: الإسلام في الفكر الأوربي، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٩٢- محمد عبده، الإمام، والشيخ محمد رشيد رضا: تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م، ٧ مجلدات، لم يكتمل.

٩٣-٩٧ محمود حمدي زقزوق، الدكتور ووزير الأوقاف المصري:

- الإسلام في تصورات الغرب، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الإسلام في مرآة الفكر الغربي دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري كتاب الأمة، ط١، ١٤٠٤هـ، مطابع الدوحة الحديثة قطر.

• الأزمنة التي نشط فيها الاستشراق، مقال بمجلة: المنهل، عدد ٤٧١، متخصص (الاستشراق والمستشرقون) السعودية، سنة ١٩٨٩م. ص٢٠٢-٢٠٦.

• في مواجهة الاستشراق، بحث بمجلة المسلم المعاصر، مؤسسة المسلم المعاصر، قبرص، السنة السابعة عشرة، المحرم - جمادى الآخرة ١٤١٣هـ العددان ٦٥-٦٦ معًا، ص١١-٤٠.

٩٨- محمود محمد شاكر، الشيخ العلامة المحقق: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٧م.

٩٩- مري، بنيلوبي، وآخرون: العبقرية، تاريخ الفكرة، ترجمة محمد عبد الواحد، مراجعة: د. عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٠٨، سنة ١٩٩٦م.

١٠٠- مركز الثقافة والمعارف القرآنية: تابع للحوزة العلمية بمدينة قم بإيران: علوم القرآن عند المفسرين، ط١، إيران ١٤١٦هـ.

١٠١- مصطفى السباعي، الدكتور، السنة ومكانتها في التشريع، ط٢ المكتب الإسلامي دمشق بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

١٠٢- نجيب العقيقي: المستشرقون موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، الطبعة الرابعة الموسعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م، ثلاثة مجلدات.

١٠٣- هونكه، زيجريد: الله ليس كذلك، ترجمة: د. غريب محمد غريب، الطبعة الثانية، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام، ميونيخ، ألمانيا، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٠٤- الهيئة القبطية الإنجيلية: علم اللاهوت النظامي، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ١٩٧١م.

١٠٥- همام عبد الرحيم سعيد، الدكتور: الفكر المنهجي عند المحدثين، كتاب الأمة، ط١، قطر، المحرم ١٤٠٨هـ.

١٠٦- وات، مونتجمري: محمد في مكة، تعريب: شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ.

١٠٧- ويلز، هـ. ج.، معالم تاريخ الإنسانية، ج٣، ترجمة: عبد العزيز جاويد، لجنة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الدول العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٧٢م.

ب- المعاجم والقواميس:

١٠٨- الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٧٢١هـ) مختار الصحاح مكتبة لبنان، مراجعة: محمود خاطر، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٠٩- عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي، عربي، إنجليزي، فرنسي، ألماني، لاتيني، الدار الشرقية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

١١٠- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٦م.

١١١- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مكتبة الغزالي ومؤسسة مناهل العرفان، دمشق بيروت، دون تاريخ أو رقم طبعة.

١١٢- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، القاهرة ١٩٨٣م.

١١٣- منير البعلبكي: المورد، قاموس إنجليزي عربي، دار العلم للملايين، ط٣١ بيروت، لندن، ١٩٩٧م.

ج- الدوريات:

١١٤- الرسالة، مركز الإعلام العربي، مصر، السنة الأولى، العدد ٤، رجب ١٤٢٣هـ-سبتمبر٢٠٠٢م.

١١٥- رسالة الجهاد، ليبيا، السنة التاسعة، مايو ١٩٩٠م.

عالم الفكر، الكويت، العدد ٢ المجلد ٣١ أكتوبر- ديسمبر ٢٠٠٢م.

١١٦- فكر وفن، دار انترناسيونيز، د. أردموته هللر، ألمانيا، العدد ٤٤، العام ٢٣، سنة ١٩٨٦م.

١١٧- المسلم المعاصر، مؤسسة المسلم المعاصر، قبرص، السنة السابعة عشرة، المحرم - جمادى الآخرة ١٤١٣هـ، العددان ٦٥-٦٦ معًا.

١١٨- المنهل، العدد السنوي، المتخصص (الاستشراق والمستشرقون)، السعودية، العدد ٤٧١ رمضان وشوال ١٤٠٩هـ، إبريل ومايو ١٩٨٩م.

د- المراجع الأجنبية:

119. *Bavaria (Verlag), Die Bedeutung des Korans , Sure Al _ Anfal Teil 9, und 10, Bavaria Verlag & Handel GmbH, München.*

120. *Becker, (C.H.), Lebensbilder bekannter Islamforscher , Islamstudien, II, Georg Olms Verlag , Hildesheim, 1967.*

DAAD; Deutscher Akademischer Austauschdienst, Studying in Germany, Information for foreigners on university Studies. 5th edition 1997.

121. *Fück(Johan): Die arabischen Studien in Europa, bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts, Ottoharrassowitz. Leipzig 1955.*

122. *Götz Schregle, unter mitwirkung von Fahmi Abu l-Fadl , Mahmoud Hegazi ,...: Deutsch-Arabisches Wörterbuch , Libraire du Liban Berut, Macdonald & Evans LTD, London, printed in Lebanon 1977.*

123. *Halder (Alois) \ Max Műller: philosophisches Wöterbuch 3. Auflage Herder\Spktrum, Freiburger Graphische Betriebe 1997.*

124. *Juda (A.), Hőchstbegabung. Ihre Erbverhaltnisse sowie ihre Beziehungen zu Psychischen Anomalien Műnchen, 1953*

125. *Nöldeke (Theodor), G. Bergsträsser und Otto Pretzl: Geschichte des Qorāns, Dritter Teil*
126. *Richard Brunt, Karl-Dieter Bünting, und andere: Wörterbuch Englich Deutsch, Deutsch Englich, 1977 by ISIS Verlagsgesellschaft AG Chur, Schweiz*
127. *Schwarzenau, (Paul): Korankunde für Christen, Ein Zugang zum heiligen Buch der Moslems, 1. Aufl. Kreuz Verlag, Stutgart; Berlin , 1982*
128. *Sprenger (Aloys), Muhammed und der Qorān, eine psychologische Studie, Hamburg 1889.*
129. *Weil (Gustav), Das Leben Muhammeds, 2. Aufl. Stuttgart 1864.*
130. *Maudsley, (H.) The Pathology of Mind London, 1867.*





الفهرس المفصل للموضوعات

الفهرس المفصل للموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *